

تفسير القرطبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

١

خيركم من تعلم القرآن وعلمه

حديث شريف

دار الشعب

٩٢ شارع قصر العيني القاهرة ت: ٨١٠

رقم



وبه نستعين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

قال الشيخ الفقيه الإمام العالم العامل العلامة المحدث أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح الأنصارى الخزرجى الأندلسي ثم القرطبي رضى الله عنه :

الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يحمده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الربّ الصمد الواحد ، الحيّ القيوم الذى لا يموت ؛ ذو الجلال والإكرام ، والمواهب العظام ؛ والمتكلم بالقرآن ، والخالق للإنسان، والمنعم عليه بالإيمان، والمرسل رسوله بالبيان، محمدا صلى الله عليه وسلم ما اختلف الملوان، وتعاقب الجديدان، أرسله بكتابه المبين، الفارق بين الشك واليقين ؛ الذى أعجزت الفصحاء معارضته، وأعيت الألباء مناقضته، وأخرست البلغاء مشاكلته، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . جعل أمثاله عبرا لمن تدبرها، وأوامره هدى لمن استبصرها ؛ وشرح فيه واجبات الأحكام ، وفرق فيه بين الحلال والحرام ، وكرّر فيه المواعظ والقصص للأفهام؛ وضرب فيه الأمثال وقص فيه غيب الأخبار ؛ فقال تعالى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ خاطب به أولياءه ففهموا، وبين لهم فيه مراده فعلموا ؛ فقرّاء القرآن حملة سرّ الله المكنون، وحفظة علمه المخزون ، خلفاء أنبيائه وأمناؤه، وهم أهله وخاصته وخيرته وأصفياؤه ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنّ لِلّهِ أَهْلِينَ مِنّا » قالوا : يا رسول الله من هم؟ قال : « هم أهل القرآن هم أهل الله وخاصّته » أخرجه ابن ماجه فى سننه ، وأبو بكر البزار فى مسنده . فما أحق من علم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكر ماشرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه ، ويراقبه ويستحييه؛ فإنه قد حُمّل أعباء الرسل، وصار شهيدا فى القيامة على من خالف من أهل الملل . قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ . ألا وإن الحجة على من علمه فأغفله،

أوكدُ منها على من قصّر عنــه وجهله . ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيــه فلم يرتدع؛ وارتكب من المآثم قبيحا، ومن الجرائم فضوحا؛ كان القرآن حجة عليه، وخصيا لديه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القرآن حجةٌ لك أو عليك » خرّجه مسلم . فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حقّ تلاوته، ويتدبر حقائق عبارته؛ ويتفهم عجائبه، ويتبين غرائبه؛ قال الله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ . وقال الله تعـالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ . جعلنا الله ممن يرعاه حقّ رعايتــه ، ويتدبّره حقّ تدبّره؛ ويقوم بقسطه، ويوفى بشرطه ، ولا يلتمس الهدى فى غيره؛ وهدانا لأعلامه الظاهرة، وأحكامه القاطعة الباهرة، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة ، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة . ثم جعل الى رسوله صـلى الله عليه وسلم بيان ما كان منه مجملا، وتفسير ما كان منه مشكلا ، وتحقيق ما كان منه محتملا ؛ ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض اليه . قال الله تعـالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ . ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم آستنباط ما نبّه على معانيه، وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيــه إلى علم المراد، فيمتازوا بذلك عن غيرهم ، ويختصوا بثواب اجتهادهم . قال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ فصار الكتاب أصلا والسنة له بيانا، واستنباط العلماء إيضاحا وتبيانا؛ فالحمد لله الذى جعل صدورنا أوعية كتابه، وآذاننا موارد سنن نبيه؛ وهممنا مصروفة إلى تعلمهما والبحث عن معانيهما وغرائبهما؛ طالبين بذلك رضا رب العالمين، ومتدرّجين به إلى علم الملة والدّين .

(وبعد) فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع، الذى آستقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء الى أمين الأرض؛ رأيت أن أشتغل به مدى عمرى، وأستفرغ فيه مُنّتى؛ بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا ، يتضمن نكتا من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات ؛ والردّ على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لمـا نذكره من الأحكام ونزول الآيات؛ جامعا بين معانيهما، ومبينا ما أشكل منهما؛ بأقاويل السلف، ومن تبعهـم من الخلف ؛ وعملته تذكرة لنفسى، وذخيرة ليوم رمسى؛ وعملا صالحا بعـد موتى . قال الله تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا مات الإنسانُ انقطع عمَلُه إلا من ثلاثٍ صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ يُنتَفَعُ به أو ولدٍ صالحٍ يدعو له» .

وشرطي في هذا الكتاب إضافةُ الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنّفيها؛ فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله ، وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما ، لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث ، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرا لا يعرف الصحيح من السقيم ،ومعرفة ذلك علم جسيم؛فلا يقبل منه الاحتجاج به ،ولا الاستدلال حتى يضيفه الى من خرّجه من الأئمة الأعلام،والثقات المشاهير من علماء الاسلام . ونحن نشير إلى جمل من ذلك في هذا الكتاب، والله الموفق للصواب؛ وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بدّ منه ولا غَنَاءَ عنه للتبيين . واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام بمسائل تسفر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها ، فضمنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين فما زاد ، مسائل نبيّن فيها ما تحتوى عليه من أسباب النزول والتفسير والغريب والحكم؛ فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل، هكذا إلى آخر الكتاب .

(وسمّيته بالجامع لأحكام القرآن، والمبيّن لما تضمنه من السنّة وآي الفرقان)، جعله الله خالصا لوجهه ، وأن ينفعنى به ووالدىّ ومن أراده بمنّه ؛ إنه سميع الدعاء قريب مجيب آمين .

باب ذكر جمل من فضائل القرآن والترغيب فيه وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعامل به

اعلم أن هذا الباب واسع كبير، ألف فيه العلماء كتبا كثيرة، نذكر من ذلك نكتا تدل على فضله، وما أعدّ الله لأهله ، اذا أخلصوا الطلب لوجهه، وعملوا به . فأول ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام ربّ العالمين غير مخلوق، كلام من ليس كمثله شيء، وصفة من ليس له شبيه ولا ندّ ، فهو من نور ذاته جلّ وعز؛ وأن القراءة أصوات القرّاء ونغماتهم ، وهي أكسابهم التي يؤمرون بها في حال، إيجابا في بعض العبادات ، وندبا في كثير من الأوقات؛ ويزجرون عنها اذا أجنبوا، ويثابون عليها ويعاقبون على تركها . وهذا مما أجمع عليه المسلمون أهل الحق ونطقت به

الآثار، ودل عليها المستفيض من الأخبار؛ ولا يتعلق الثواب والعقاب إلا بما هو من أكساب العباد، على ما يأتى بيانه . ولولا أنه ــ سبحانه ــ جعل فى قلوب عباده من القوة على حمله ما جعله ليتدبّروه وليعتبروا وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته، وأداء حقوقه وفرائضه، لضعفت ولاندكت بثقله، أو لتضعضعت له وأنّى تطيقه؛ وهو يقول ــ تعالى جده ــ وقوله الحق : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ . فأين قوة القلوب من قوة الجبال ! ولكن الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم، فضلا منه ورحمة .

وأما ما جاء من الآثار فى هذا الباب ــ فأول ذلك، ما خرّجه الترمذىّ عن أبى سعيد، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الربّ تبارك وتعالى من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » قال : « وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » قال : هذا حديث حسن غريب . وروى أبو محمد الدارمىّ السمرقندىّ فى مسنده عن عبد الله قال : السبع الطوال مثل التوراة، والمئون مثل الإنجيل، والمثانى مثل الزبور، وسائر القرآن بعدُ فضلٌ . وأسند عن الحارث عن علىّ رضى الله عنه وخرّجه الترمذى، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم » قلت : يارسول الله وما المخرج منها ؟ قال : « كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله هو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء ولا يخلق على كثرة الردّ ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا من علم علمه سبق ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم خذها اليك يا أعور » الحارث رماه الشعبىّ بالكذب وليس بشىء، ولم يبنْ من الحارث كذب، وانما نقم عليه إفراطه فى حب علىّ وتفضيله له على غيره؛ ومن هاهنا والله أعلم كذبه الشعبىّ لأن الشعبىّ يذهب الى تفضيل أبى بكر، والى أنه أول من أسلم . قال أبو عمر بن عبد البر : وأظن الشعبىّ عوقب لقوله فى الحارث الهمدانىّ : حدثنى الحارث وكان أحد الكذابين .

وأسند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارى النحوى اللغوى فى كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم إن هذا القرآن هو حبل الله النور المبين والشفاء النافع عصمة من تمسك به ونجاة من اتبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن رد فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات أما إنى لا أقول الم حرف ولا ألفين أحدكم واضعا إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة فان الشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة وإن أصفر البيوت من الخير البيت الصفر من كتاب الله. وقال أبو عبيد فى غريبه عن عبد الله قال: إن هذا القرآن مأدبة الله فمن دخل فيه فهو آمن. قال: وتأويل الحديث، أنه شبه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس، لهم فيه خير ومنافع، ثم دعاهم اليه، يقال: مأدُبة ومأدَبة، فمن قال: مأدُبة، أراد الصنيع يصنعه الانسان فيدعو اليه الناس، ومن قال: مأدَبة فانه يذهب به الى الأدب، يجعله مفعلة من الأدب ويحتج بحديثه الآخر: «إن هذا القرآن مأدَبة الله عز وجل فتعلموا من مأدَبته» وكان الأحمر يجعلهما لغتين بمعنى واحد، ولم أسمع أحدا يقول هذا غيره؛ والتفسير الأول أعجب إلىّ

وروى البخارى عن عثمان بن عفان عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وروى مسلم عن أبى موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر». وفى رواية مثل الفاجر بدل المنافق. وقال البخارى: مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة، طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذى لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة، وذكر الحديث.

وذكر أبو بكر الأنبارى: وقد أخبرنا أحمد بن يحيى الحلوانى حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا هشيم: ح: وأنبأنا إدريس حدثنا خلف حدثنا هشيم عن العوام بن حوشب: أن أبا عبد الرحمن السلمى كان اذا ختم عليه الخاتم القرآن أجلسه بين يديه ووضع يده على رأسه، وقال له: يا هذا اتق الله فما أعرف أحدا خيرا منك ان عملت بالذى علمت! وروى الدارمى عن وهب الذمارى قال:

من آتاه الله القرآن فقـام به آناء الليل وآناء النهار ، وعمل بمـا فيه ومات على الطاعة ، بعثه الله يوم القيامة مع السفرة والأحكام[1] . قال سعد : السفرة : الملائكة ، والأحكام : الأنبياء .

وروى مسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران» التتعتع : التردد فى الكلام عيا وصعوبة ، وإنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة ، ودرجات الماهر فوق ذلك كله ، لأنه قد كان القرآن متعتعا عليه ، ثم ترقى عن ذلك الى أن شبه بالملائكة . والله أعلم . وروى الترمذى عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » . قال : حديث حسن صحيح غريب من هـذا الوجه ، وقد روى موقوفا . وروى مسلم عن عقبة بن عامر قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى الصُّفَّة ، فقال : « أيكم يحب أن يغدوَ كل يوم الى بُطحانَ أو العقيق فيأتى منه بناقتين كوماوين فى غير إثم ولا قطيعة رحم » فقلنا : يا رسول الله كلنا نحب ذلك ، قال : « أفلا يغدو أحدكم الى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين وثلاث خير له من ثلاث وأربع خير له من أربع ومن أعدادهنّ من الإبل » .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيـا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

وروى أبو داود والنسائى والدارمى والترمذى عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسرّ بالقرآن كالمسرّ بالصدقة » قال الترمذى : حديث حسن غريب . وروى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم

(١) والأحكام هكذا فى النسخ التى رأيناها ولعل الغرض وذوى الأحكام . أو هو جمع حكيم كشريف وأشراف أو حكم كبطل وأبطال .

قال : « يجيء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول يارب حله فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يارب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقول يا رب ٱرض عنه فيرضى عنه فيقول له ٱقرأ وٱرق و يزاد لكل آية حسنة» قال : حديث صحيح . وروى أبوداود عن عبد الله ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يقال لصاحب القرآن ٱقرأ وٱرق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » وأخرجه ابن ماجه فى سننه عن أبى سعيد الخدرى، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة اقرأ واصعد فيقرأ و يصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه» .

وأسند أبو بكر الأنبارى عن أبى أمامة الحمصى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوّة ومن أعطى ثلثى القرآن فقد أعطى ثلثى النبوّة ومن قرأ القرآن كله فقد أعطى النبوّة كلها غير أنه لا يوحى اليه و يقال له يوم القيامة ٱقرأ وٱرق فيقرأ آية و يصعد درجة حتى ينجز مامعه من القرآن ثم يقال له ٱقبض فيقبض ثم يقال له أتدرى ما فى يديك فإذا فى يده اليمنى الخلد وفى اليسرى النعيم » .

حدّثنا ادريس بن خلف حدّثنا اسماعيل بن عياش عن تمام عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أخذ ثلث القرآن وعمل به فقد أخذ أمر ثلث النبوّة ومن أخذ نصف القرآن وعمل به فقد أخذ أمر نصف النبوّة ومن أخذ القرآن كله فقد أخذ النبوّة كلها » . قال

وحدّثنا محمد بن يحيى المروزى أنبأنا محمد وهو ابن سعدان حدّثنا الحسين بن محمد عن حفص عن كثير بن زاذان عن عاصم بن ضمرة عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة وشفعه فى عشرة من أهل بيته كُلّ قد وجبت له النار» . وقالت أم الدرداء : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لها : ما فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأه ممن دخل الجنة ؟ فقالت عائشة رضى الله عنها : إن عدد آى القرآن على عدد درج الجنة ، فليس أحد دخل الجنة أفضل ممن قرأ القرآن ، ذكره أبو محمد مكىّ . وقال ابن عباس : من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب ، وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ . قال ابن عباس : فضمن الله لمن اتبع القرآن ألا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ، ذكره مكىّ أيضا . وقال الليث : يقال : ما الرحمة الى

أحد بأسرع منها الى مستمع القرآن لقول الله جل ذكره : ﴿ وإذا قُرِئَ القُرْآنُ فَٱستَمِعُوا له وأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ولعل من الله واجبة .

وفي مسند أبي داود الطيالسي وهو أوّل مسند أُلف في الإسلام (١) عن عبدالله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين» . والآثار في معنى هذا الباب كثيرة وفيما ذكرنا كفاية والله الموفق للهداية .

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى وما يكره منها وما يحرم وٱختلاف النـاس فى ذلك

روى البخاري عن قتادة قال : سألت أنسا عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كان يمدّ مدّا [إذا] قرأ بسم الله الرّحمن الرحيم يمدّ بسم الله ويمدّ بالرحمن ويمدّ بالرحيم .

وروى الترمذي عن أمّ سلمة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع قراءته يقول : الحمدُ لِلهِ ربِّ العالمين ثم يقف ، الرّحمَنِ الرّحيم ثم يقف ، وكان يقرأ مَالكِ يَوْمِ الدِّين . قال : حديث غريب . وأخرجه أبو داود بنحوه .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أحسن الناس صوتا من اذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى» وروى عن زياد النميري : أنه جاء مع القرّاء الى أنس بن مالك فقيل له : اقرأ فرفع صوته وطرّب وكان رفيع الصوت ، فكشف أنس عن وجهه وكان على وجهه خرقة سوداء ، فقال : يا هذا ما هكذا كانوا يفعلون ، وكان اذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه . وروى عن قيس ابن عباد أنه قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون رفع الصوت عند الذكر . وممن روى عنه كراهة رفع الصوت عند قراءة القرآن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والقاسم ابن محمد والحسن وابن سيرين والنخعي وغيرهم ، وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل كلهم كره رفع الصوت بالقرآن والتطريب فيه . روى عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤم الناس فطرّب في قراءته ، فأرسل اليه سعيد يقول : ــ أصلحك الله ــ إن الأئمة لا تقرأ هكذا ، فترك عمر التطريب بعد . وروى عن القاسم بن محمد : أن رجلا قرأ فى مسجد النبي

(١) يصح هذا إذا كان أبو داود هو الذى ألفه ولكن الذى ألفه تلميذه ابن حبيب فليس هو أول مسند ألف فى الاسلام .

صلى الله عليه وسلم فطرب، فأنكر ذلك القاسم وقال : يقول الله عز وجل : ﴿ وإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ الآية .

وروى عن مالك: أنه سئل عن النبر فى قراءة القرآن فى الصلاة فأنكر ذلك وكرهه كراهة شديدة، وأنكر رفع الصوت به . وروى ابن القاسم عنه : أنه سئل عن الألحان فى الصلاة فقال : لايعجبنى، وقال : إنما هو غناء يتغنّون به ليأخذوا عليه الدراهم. وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتطريب به، وذلك لأنه إذا حسن الصوت به كان أوقع فى النفوس وأسمع فى القلوب، واحتجوا بقوله عليه السلام : « زينوا القرآن بأصواتكم » رواه البراء بن عازب . أخرجه أبو داود والنسائى ؛ وبقوله عليه السلام : « ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن » أخرجه مسلم . وبقول أبى موسى للنبىّ صلى الله عليه وسلم : لو أعلم أنك تستمع لقراءتى لحبّرته لك تحبيرا؛ وبما رواه عبد الله بن مغفل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح فى مسيرله سورة الفتح على راحلته فرجع فى قراءته . وممن ذهب الى هذا أبو حنيفة وأصحابه والشافعىّ وابن المبارك والنضر بن شميل، وهو اختيار أبى جعفر الطبرى وأبى الحسن بن بطال والقاضى أبى بكر بن العربى وغيرهم . قلت : القول الأول أصح لما ذكرناه ويأتى . وأما ما احتجوا به من الحديث الأول فليس على ظاهره ، وإنما هو من باب المقلوب أى زينوا أصواتكم بالقرآن . قال الخطابىّ : وكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث : زينوا أصواتكم بالقرآن؛ وقالوا : هو من باب المقلوب كما قالوا : عرضت الحوض على الناقة، وإنما هو عرضت الناقة على الحوض؛ قال : ورواه معمر عن منصور عن طلحة، فقدّم الأصوات على القرآن وهو الصحيح؛

قال الخطابىّ: ورواه طلحة عن عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «زينوا القرآن بأصواتكم» أى آلهجوا بقراءته وآشغلوا به أصواتكم واتخذوه شعارا وزينة؛ وقيل: معناه الحض على قراءة القرآن والدءوب عليه . وقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه [أنه] قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « زينوا أصواتكم بالقرآن » وروى عن عمر أنه قال : « حسنوا أصواتكم بالقرآن » قلت : والى هذا المعنى يرجع قوله عليه السلام : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن» أى ليس منا من لم يحسن صوته بالقرآن؛ كذلك تأوله عبد الله بن أبى مليكة . قال عبد الجبار ابن الورد : سمعت ابن أبى مليكة يقول : قال عبد الله بن أبى يزيد : مرّ بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى

دخل بيته فإذا رجل رث الهيئة، فسمعته يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن » قال: فقلت لابن أبى مليكة: يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال : يحسنه ما استطاع ـ ذكره أبو داود ، وإليه يرجع أيضا قول أبى موسى للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إنى لو علمت أنك تستمع لقراءتى لحسنت صوتى بالقرآن وزيّنته ورتلته ؛ وهذا يدل أنه كان يهذّ (١) فى قراءته مع حسن صوته الذى جبل عليه ، والتحبير : التزيين والتحسين ، فلو علم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يسمعه لمدّ فى قراءته ورتلها كما كان يقرأ على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فيكون ذلك زيادة فى حسن صوته بالقراءة . ومعاذ الله أن يتأول على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : إن القرآن يزين بالأصوات أو بغيرها ، فمن تأول هذا فقد واقع أمرا عظيما أن يحوج القرآن الى من يزيّنه ، وهو النور والضياء والزين الأعلى لمن ألبس بهجته واستنار بضيائه ؛ وقد قيل : إن الأمر بالتزيين اكتساب القراءات وتزيينها بأصواتنا وتقدير ذلك أى زينوا القراءة بأصواتكم فيكون القرآن بمعنى القراءة ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ أى قراءة الفجر، وقوله : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَٱتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أى قراءته . وكما جاء فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : إن فى البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان عليه السلام، ويوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا أى قراءة . وقال الشاعر (٢) فى عثمان رضى الله عنه :

ضحّوا بأشمط عنوانُ السجود به * يقطّع الليل تسبيحا وقرآنا

أى قراءة، فيكون معناه على هذا التأويل صحيحا إلا أن يخرج القراءة التى هى التلاوة عن حدّها على ما نبينه فيمتنع . وقد قيل : إن معنى يتغنى به يستغنى به من الاستغناء الذى هو ضدّ الافتقار ، لا من الغناء؛ يقال : تغنيت وتغانيت بمعنى استغنيت . وفى الصحاح : تغنّى الرجل بمعنى استغنى، وأغناه الله وتغانوا أى استغنى بعضهم عن بعض . قال المغيرة بن حبناء التميميّ :

كلانا غنيّ عن أخيه حياته * ونحن إذا متنا أشدّ تغانيا

وإلى هذا التأويل ذهب سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح، ورواه سفيان عن سعد بن أبى وقاص، وقد روى عن سفيان أيضا وجه آخر؛ ذكره اسحاق بن راهويه أى يستغنى به عما سواه من الأحاديث

---

(١) الهذ فى القراءة : الاسراع فيها . (٢) هو حسان بن ثابت رضى الله عنه .

والى هذا التأويل ذهب البخاري محمد بن اسماعيل لإتباعه الترجمة بقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ والمراد الاستغناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم، قاله أهل التأويل . وقيل : إنّ معنى يتغنّى به يتحزن به أي يظهر على قارئه الحزن الذي هو ضد السرور عند قراءته وتلاوته ، وليس من الغنية لأنه لو كان من الغنية لقال : يتغانى به ولم يقل يتغنّى به . وذهب الى هذا جماعة من العلماء : منهم الإمام أبو محمد بن حبان البستي، واحتجوا بما رواه مطرّف بن عبد الله ابن الشخير عن أبيه، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء . الأزيز بزايين : صوت الرعد وغليان القدر . قالوا : ففي هذا الخبر بيان واضح على أن المراد بالحديث التحزّن، وعضدوا هذا أيضا بما رواه الأئمة عن عبد الله قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « اقرأ عليّ » فقرأت عليه سورة النساء حتى اذا بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ فنظرت اليه فاذا عيناه تدمعان . فهذه أربعة تأويلات ليس فيها ما يدل على القراءة بالألحان والترجيع فيها . وقال أبو سعيد بن الأعرابي في قوله صلى الله عليه وسلم: « ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن » قال : كانت العرب تولع بالغناء والنشيد في أكثر أقوالها، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هجيراهم مكان الغناء، فقال : « ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن » .

التأويل الخامس ما تأوله من استدل به على الترجيع والتطريب فذكر عمر بن شبّة قال : ذكرت لأبي عاصم النبيل تأويل ابن عيينة في قوله : يتغنّ يستغني، فقال : لم يصنع ابن عيينة شيئا . وسئل الشافعي عن تأويل ابن عيينة فقال : نحن أعلم بهذا ، لو أراد النبي صلى الله عليه وسلم الاستغناء لقال : من لم يستغن، ولكن لما قال : « يتغنّ » علمنا أنه أراد التغنّي . قال الطبري : المعروف عندنا في كلام العرب أن التغنّي انما هو الغناء الذي هو حسن الصوت بالترجيع . وقال الشاعر :

تغنّ بالشعر مهما كنت قائله * إن الغناء لهذا الشعر مضمار

قال : وأما ادّعاء الزاعم أن تغنّيت بمعنى استغنيت فليس في كلام العرب وأشعارها ، ولا نعلم أحدا من أهل العلم قاله، وأما احتجاجه بقول الأعشى :

وكنت امرءًا زمنا بالعراق * خفيف المناخ طويل التغنّ

وزعم أنه أراد الاستغناء فانه غلط منه، وانما عنى الأعشى فى هذا الموضع الاقامة، من قول العرب : غنى فلان بمكان كذا أى أقام. ومنه قوله تعالى: ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ وأما آستشهاده بقوله :

* ونحن إذا متنا أشدّ تغانيا *

فإنه إغفال منه، وذلك أن التغانى تفاعل من نفسين إذا استغنى كل واحد منهما عن صاحبه، كما يقال تضارب الرجلان إذا ضرب كل واحد منهما صاحبه . ومن قال هذا فى فعل الاثنين لم يجز أن يقول مثله فى الواحد . غير جائز أن يقال : تغانى زيد وتضارب عمرو؛ وكذلك غير جائز أن يقال : تغنّى بمعنى آستغنى .

قلت : ما آدّعاه الطبرىّ من أنه لم يرد فى كلام العرب تغنّى بمعنى استغنى، فقد ذكره الجوهرىّ كما ذكرنا ، وذكره الهروىّ أيضا . وأما قوله : إن صيغة فاعل انما تكون من آثنين فقد جاءت من واحد فى مواضع كثيرة : منها قول ابن عمر : وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام . وتقول العرب : طارقت النعل وعاقبت اللص وداويت العليل، وهو كثير، فيكون تغانى منها . واذا احتمل قوله عليه الصلاة والسلام : « يتغنّ » الغناء والاستغناء فليس حمله على أحدهما بأولى من الآخر، بل حمله على الاستغناء أولى، لو لم يكن لنا تأويل غيره ، لأنه مروىّ عن صحابىّ كبير كما ذكر سفيان . وقد قال آبن وهب فى حق سفيان : ما رأيت أعلم بتأويل الأحاديث من سفيان بن عيينة ، ومعلوم أنه رأى الشافعىّ وعاصره .

وتأويل سادس وهو ما جاء من الزيادة فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أذن الله لشئ أذنه لنبىّ حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » : قال الطبرىّ: ولو كان كما قال ابن عيينة لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنى . قلنا : قوله : يجهر به لا يخلو أن يكون من قول النبىّ صلى الله عليه وسلم أو من قول أبى هريرة أو غيره ، فإن كان الأول وفيه بعد فهو دليل على عدم التطريب والترجيع لأنه لم يقل : يطرّب به،وإنما قال : يجهر به أى يسمع نفسه ومن يليه ؛ بدليل قوله عليه السلام للذى سمعه وقد رفع صوته بالتهليل : « أيها الناس آربعوا على أنفسكم فإنكم لستم تدعون أصمّ ولا غائبا » الحديث . وسيأتى وكذلك إن كان من صحابىّ أو غيره فلا حجة فيه على ما راموه، وقد اختار هذا التأويل بعض علمائنا فقال : وهذا

أشبه لأن العرب تسمى كل من رفع صوته ووالى به غانيا ، وفعله ذلك غناء وإن لم يلحنه بتلحين الغناء؛ قال : وعلى هذا فسره الصحابيّ وهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال .

وقد احتج أبو الحسن بن بطال لمذهب الشافعيّ فقال : وقد رفع الإشكال فى هذه المسألة ما رواه ابن أبى شيبة، قال : حدّثنا زيد بن الحباب قال حدّثنا موسى بن على بن رباح عن أبيه عن عقبة ابن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعلموا القرآن وغنوا به واكتبوه فوالذى نفسى بيده لهو أشدّ تفصيا من المخاض من العُقُل » قال علماؤنا : وهذا الحديث وإن صح سنده فيرده ما يعلم على القطع والبتات من أن قراءة القرآن تلقينا متواترة عن كافة المشايخ جيلا فجيلا الى العصر الكريم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فيها تلحين ولا تطريب، مع كثرة المتعمقين فى مخارج الحروف وفى المدّ والإدغام والإظهار وغير ذلك من كيفية القراءات . ثم إن فى الترجيع والتطريب همز ما ليس بمهموز ومدّ ما ليس بممدود، فترجع الألف الواحدة ألفات والواو الواحدة واوات والشبهة(1) الواحدة شبهات فيؤدّى ذلك الى زيادة فى القرآن وذلك ممنوع، وإن وافق ذلك موضع نبر وهمز صيروها نبرات وهمزات ، والنبرة حيثما وقعت من الحروف فإنما هى همزة واحدة لا غير؛ إما ممدودة وإما مقصورة . فان قيل : وقد روى عبدالله بن مغفل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسيره له سورة الفتح على راحلته فرجع فى قراءته؛ وذكره البخاريّ وقال فى صفة الترجيع : آء آء آء ثلاث مرات .

قلنا : ذلك محمول على إشباع المدّ فى موضعه، ويحتمل أن يكون حكايةَ صوته عند هز الراحلة كما يعترى رافع صوته اذا كان راكبا من انضغاط صوته وتقطيعه لأجل هز المركوب؛ واذا احتمل هذا فلا حجة فيه . وقد خرّج أبو محمد عبد الغنيّ بن سعيد الحافظ من حديث قتادة عن عبد الرحمن ابن أبى بكر عن أبيه قال : كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم المدّ ليس فيها ترجيع . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن يطرّب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الأذان سهل سمح فإذا كان أذانك سمحا سهلا وإلا فلا تؤذن » أخرجه الدارقطنيّ فى سننه. فاذا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم قد منع ذلك فى الأذان فأحرى ألا يجوّزه فى القرآن الذى حفظه الرحمن ، فقال وقوله الحق : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

(1) لعل أصل العبارة — والشين الواحدة شينات . أو والشدّة الواحدة شدّات .

قلت : وهذا الخلاف انما هو ما لم يفهم معنى القرآن بترديد الأصوات وكثرة الترجيعات ، فان زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام باتفاق كما يفعل القراء بالديار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك والجنائز، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز، ضل سعيهم، وخاب عملهم، فيستحلون بذلك تغيير كتاب الله، ويهوّنون على أنفسهم الاجتراء على الله بأن يزيدوا فى تنزيله ماليس فيه، جهلا بدينهم ومروقا عن سنة نبيهم، ورفضا لسير الصالحين فيه من سلفهم، ونزوعا الى ما يزين لهم الشيطان من أعمالهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فهم فى غيهم يترددون، وبكتاب الله يتلاعبون، فإنا لله وإنا اليه راجعون، لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون فكان كما أخبر صلى الله عليه وسلم .

ذكر الامام الحافظ أبو الحسين رزين وأبو عبد الله الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث حذيفة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل الفسق ولحون أهل الكتابين وسيجيء بعدى قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» . اللحون : جمع لحن وهو التطريب وترجيع الصوت وتحسينه بالقراءة والشعر والغناء .

قال علماؤنا : ويشبه أن يكون هذا الذى يفعله قراء زماننا بين يدى الوعاظ وفى المجالس من اللحون الأعجمية التى يقرءون بها، ما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . والترجيع فى القراءة ترديد الحروف كقراءة النصارى ، والترتيل فى القراءة هو التأنى فيها والتمهل وتبيين الحروف والحركات تشبيها بالثغر المرتل وهو المشبه بنور الأقحوان وهو المطلوب فى قراءة القرآن؛ قال الله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ . وسئلت أم سلمة عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاته فقالت : ما لكم وصلاته ! ثم نعتت قراءته فإذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا . أخرجه النسائى وأبو داود والترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره

قال الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ . روى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول

الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أوّل الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت ليقال جرىء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار » . وقال الترمذىّ فى هذا الحديث : ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتى، فقال : « يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أوّل خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة » . أبو هريرة اسمه عبد الله وقيل : عبد الرحمن ؛ وقال : كنيت أبا هريرة لأنى حملت هرّة فى كمّى فرآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : « ما هذه » قلت : هرّة، فقال : « يا أبا هريرة » . قال ابن عبد البر : وهذا الحديث فيمن لم يرد بعمله وعلمه وجه الله تعالى . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من طلب العلم لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار » .

وخرّج ابن المبارك فى رقائقه عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يظهر هذا الدّين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار بالخيل فى سبيل الله تبارك وتعالى ثم يأتى أقوام يقرءون القرآن فإذا قرءوه قالوا من أقرأ منا من أعلم منا » ثم التفت الى أصحابه فقال : « هل ترون فى أولئكم من خير » قالوا : لا قال : « أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار » . وروى أبو داود والترمذىّ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عَرف الجنة يوم القيامة » يعنى ريحها . قال الترمذىّ : حديث حسن . وروى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعوّذوا بالله من جبّ الحزن » قالوا : يا رسول الله وما جب الحزن ؟ قال : « وادٍ فى جهنم تتعوّذ منه جهنم فى كل يوم مائة مرة » قيل : يا رسول الله، ومن يدخله ؟ قال : « القرّاء

المراءون بأعمالهم» قال : هذا حديث غريب. وفى كتاب أسد بن موسى: أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « إن فى جهنم لواديا إن جهنم لتتعوّذ من شرّ ذلك الوادى كل يوم سبع مرات وإن فى ذلك الوادى لجبا إن جهنم وذلك الوادى ليتعوّذان بآلله من شرّ ذلك الجبّ وإن فى الجبّ لحية وإن جهنم والوادى والجب ليتعوّذون بالله من شرّ تلك الحية سبع مرات أعدّها الله للأشقياء من حملة القرآن الذين يعصون الله » فيجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتق الله فى نفسه ويخلص العمل لله ، فإن كان تقدّم له شيء مما يكره فليبادر التوبة والإنابة ، وليبتدئ الإخلاص فى التوبة وعمله ، فآلذى يلزم حامل القرآن من التحفظ أكثر مما يلزم غيره ، كما أن له من الأجر ما ليس لغيره . روى الترمذى عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنزل الله فى بعض الكتب أو أوحى الى بعض الأنبياء قل للذين يتفقهون لغير الدّين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدّنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرّ من الصّبر : إياى يخادعون وبى يستهزءون لأتيحنّ لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران » .

وخرّج الطبرىّ فى كتاب آداب النفوس : حدّثنا أبو كريب محمد بن العلاء (1) حدّثنا المحاربىّ عن عمرو بن عامر البجلىّ عن آبن صدقة عن رجل من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم أو من حدّثه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله ونفسه يخدع لو يشعر » قالوا : يارسول الله وكيف يخادع الله ؟ قال : « تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره وآتقوا الرياء فإنه الشرك وإن المرائى يدعى يوم القيامة على رءوس الأشهاد بأربعة أسماء ينسب إليها يا كافر يافاجر ياغادر ياخاسر ضلّ عملك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم فآلتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع » . وروى علقمة عن عبد الله بن مسعود قال : كيف آنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم الكبير وتتخذ سنة مبتدعة يجرى عليها الناس فإذا غير منها شيء قيل: قد غيرت السنة قيل : متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : إذا كثر قرّاؤكم ، وقلّ فقهاؤكم ، وكثر أمراؤكم ، وقلّ أمناؤكم ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة ، وتفقه لغير الدّين . وقال سفيان بن عيينة : بلغنا عن ابن عباس أنه قال : لو أن حملة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغى لأحبهم الله ، ولكن طلبوا به الدنيا

---

(1) فى بعض النسخ « أبو بكر بن محمد » والصواب ما أثبتناه .

فابغضهم الله، وهانوا على الناس . وروى عن أبى جعفر محمد بن على فى قول الله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ قال : قوم وصفوا الحق والعدل بالسنتهم ، وخالفوه الى غيره . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى .

باب ما ينبغى لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه

فأول ذلك أن يخلص فى طلبه لله جل وعز كما ذكرنا ، وأن يأخذ نفسه بقراءة القرآن فى ليله ونهاره فى الصلاة أو فى غير الصلاة لئلا ينساه . روى مسلم عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره ، وإن لم يقم به نسيه » وينبغى له أن يكون لله حامدا، ولنعمه شاكرا، وله ذاكرا، وعليه متوكلا، وبه مستعينا ، وإليه راغبا ، وبه معتصما، وللموت ذاكرا، وله مستعدا . وينبغى له أن يكون خائفا من ذنبه، راجيا عفو ربه ؛ ويكون الخوف فى صحته أغلب عليه، إذ لا يعلم بما يختم له ؛ ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى فى نفسه ، لحسن الظن بالله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يموتنّ احدكم إلا وهو يحسن بالله الظنّ » أى أنه يرحمه ويغفر له . وينبغى له أن يكون عالما بأهل زمانه ، متحفظا من سلطانه، ساعيا فى خلاص نفسه ، ونجاة مهجته، مقدّما بين يديه ما يقدر عليه من عرض دنياه، مجاهدا لنفسه فى ذلك ما استطاع . وينبغى له أن يكون أهم أموره عنده الورع فى دينه ، واستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه . وقال ابن مسعود : ينبغى لقارئ القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مستيقظون، وببكائه اذا الناس يضحكون، وبصمته اذا الناس يخوضون، وبخشوعه اذا الناس يختالون ، وبحزنه اذا الناس يفرحون . وقال عبد الله بن عمرو : لا ينبغى لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو ويصفح لحق القرآن، لأن فى جوفه كلام الله تعالى . وينبغى له أن يأخذ نفسه بالتصاون عن طرق الشبهات، ويقل الضحك والكلام فى مجالس القرآن وغيرها بما لا فائدة فيه ، ويأخذ نفسه بالحلم والوقار، وينبغى له أن يتواضع للفقراء ويتجنب التكبر والإعجاب ويتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة، ويترك الجدال والمراء، ويأخذ نفسه بالرفق والأدب . وينبغى له أن يكون ممن يؤمن شره،

ويرجى خيره ويسلم من ضره، وألا يسمع ممن نم عنده، ويصاحب من يعاونه على الخير ويدله على الصدق ومكارم الأخلاق، ويزينه ولا يشينه . وينبغى له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو . فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه . وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه؛ فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا . وينبغى له أن يعرف المكيّ من المدنيّ ليفرق بذلك بين ما خاطب الله به عباده فى أول الإسلام، وما ندبهم اليه فى آخر الاسلام، وما افترض الله فى أول الإسلام، وما زاد عليهم من الفرائض فى آخره . فالمدنيّ هو الناسخ للمكيّ فى أكثر القرآن، ولا يمكن أن ينسخ المكيّ المدنيّ لأن المنسوخ هو المتقدم فى النزول قبل الناسخ له . ومن كماله أن يعرف الإعراب والغريب ، فذلك مما يسهل عليه معرفة ما يقرأ، ويزيل عنه الشك فيما يتلو . وقد قال أبو جعفر الطبريّ: سمعت الجرميّ يقول: أنا منذ ثلاثين سنة أفتى الناس فى الفقه من كتاب سيبويه؛ قال محمد بن يزيد : وذلك أن أبا عمر الجرميّ كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سيبويه تفقه فى الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفسير. ثم ينظر فى السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبها يصل الطالب الى مراد الله عز وجل فى كتابه، وهى تفتح له أحكام القرآن فتحا، وقد قال الضحاك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ ﴾ . قال : حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيها .

وذكر ابن أبى الحواريّ قال : أتينا فضيل بن عياض سنة خمس وثمانين ومائة ونحن جماعة، فوقفنا على الباب فلم يأذن لنا بالدخول، فقال بعض القوم : إن كان خارجا لشيء فسيخرج لتلاوة القرآن، فأمرنا قارئا فقرأ فاطلع علينا من كوة، فقلنا : السلام عليك ورحمة الله؛ فقال : وعليكم السلام؛ فقلنا: كيف أنت يا أبا علىّ، كيف حالك؟ فقال : أنا من الله فى عافية ومنكم فى أذى، وإن ما أنتم فيه حدث فى الإسلام ، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ما هكذا كنا نطلب العلم، ولكنا كنا نأتى المشيخة فلا نرى أنفسنا أهلا للجلوس معهم، فنجلس دونهم ونسترق السمع، فإذا مرّ الحديث سألناهم إعادته وقيدناه، وأنتم تطلبون العلم بالجهل، وقد ضيعتم كتاب الله ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريدون ، قال : قلنا قد تعلمنا القرآن، قال : إن فى تعلمكم القرآن شغلا لأعماركم

وأعمار أولادكم؛ قلنا : كيف ياأبا على؟ قال : لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ، ومحكمه من متشابهه ، وناسخه من منسوخه؛ فإذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فضيل وآبن عيينة ، ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

قلت : فإذا حصلت هذه المراتب لقارئ القرآن كان ماهرا بالقرآن ، وعالما بالفرقان؛ وهو قريب على من قربه الله عليه ، ولا ينتفع بشيء مما ذكرنا حتى يخلص النية فيه لله جل ذكره عند طلبه أو بعد طلبه كما تقدم . فقد يبتدئ الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف فى الدنيا ، فلا يزال به فهم العلم حتى يتبين أنه على خطأ فى اعتقاده فيتوب من ذلك ويخلص النية لله تعالى ، فينتفع بذلك ويحسن حاله . قال الحسن : كنا نطلب العلم للدنيا فجرّنا إلى الآخرة . وقاله سفيان الثورى . وقال حبيب بن أبى ثابت : طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نية ثم جاءت النية بعدُ .

باب ما جاء فى إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه وثواب من قرأ القرآن معربا

قال أبو بكر بن الأنبارى : جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن أصحابه وتابعيهم رضوان الله عليهم من تفضيل إعراب القرآن ، والحض على تعليمه ، وذم اللحن وكراهيته ما وجب به على قراء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد فى تعلمه .

من ذلك ما حدثنا يحيى بن سليمان الضبى قال حدثنا محمد — يعنى ابن سعيد — قال حدثنا أبو معاوية عن عبد الله بن سعيد المقبرى عن أبيه عن جده عن أبى هريرة : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه » . حدثنى أبى قال حدثنا إبراهيم بن الهيثم قال حدثنا آدم — يعنى ابن أبى إياس — قال حدثنا أبو الطيب المروزى قال حدثنا عبد العزيز بن أبى رواد عن نافع عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن فلم يعربه وكل به ملك يكتب له كما أنزل بكل حرف عشر حسنات فإن أعرب بعضه وكل به ملكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة فان أعربه وكل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة » . وروى جويبر عن الضحاك قال : قال عبد الله بن مسعود : جردوا القرآن وزينوه بأحسن

الأصوات ، وأعربوه فانه عربيّ والله يحب أن يعرب به . وعن مجاهد عن ابن عمر قال : أعربوا القرآن . وعن محمد بن عبد الرحمن بن زيد قال : قال أبو بكر وعمر رضى الله عنهما : إعراب القرآن أحب الينا من حفظ حروفه . وعن الشعبيّ قال: قال عمر رحمه الله : من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد . وقال مكحول : بلغنى أن من قرأ بإعراب كان له من الأجر ضعفان ممن قرأ بغير إعراب . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحبّ العرب لثلاث لأنى عربيّ والقرآن عربيّ وكلام أهل الجنة عربيّ » . وروى سفيان عن أبى حمزة قال : قيل للحسن فى قوم يتعلمون العربية قال : أحسنوا، يتعلمون لغة نبيهم صلى الله عليه وسلم . وقيل للحسن : إن لنا إماما يلحن؛ قال : أخروه .

وعن ابن أبى مليكة قال : قدم أعرابيّ فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : من يقرئنى مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال : فأقرأه رجل براءة؛ فقال : أن الله برىء من المشركين ورسوله بالجر، فقال الأعرابيّ : أو قد برئ الله من رسوله ! فإن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه؛ فبلغ عمر مقالة الأعرابيّ فدعاه، فقال: يا أعرابيّ أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنى قدمت المدينة ولا علم لى بالقرآن فسألت من يقرئنى، فأقرأنى هذا سورة براءة، فقال : أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فقلت : أو قد برئ الله من رسوله، إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه؛ فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابيّ، قال: فكيف هى يا أمير المؤمنين؟ قال : ﴿ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ فقال الأعرابيّ : وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه؛ فأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ألّا يقرئ الناس إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود فوضع النحو .

وعن علىّ بن الجعد قال : سمعت شعبة يقول : مثل صاحب الحديث الذى لا يعرف العربية مثل الحمار عليه مخلاة لا علف فيها . وقال حماد بن سلمة : من طلب الحديث ولم يتعلم النحو أو قال العربية فهو كمثل الحمار تعلق عليه مخلاة ليس فيها شعير. قال ابن عطية: إعراب القرآن أصل فى الشريعة، لأن بذلك تقوّم معانيه التى هى الشرع .

قال ابن الأنباريّ : وجاء عن أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وتابعيهم رضوان الله عليهم ، من الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله باللغة والشعر مابين صحة مذهب النحويين فى ذلك، وأوضح

فساد مذاهب من أنكر ذلك عليهم . من ذلك ماحدّثنا عبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز قال حدّثنا ابن أبي مريم قال : أنبأنا ابن فروخ، قال أخبرني أسامة قال أخبرني عكرمة : أن ابن عباس قال : إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب . وحدّثنا إدريس ابن عبد الكريم قال حدّثنا خلف قال حدّثنا حماد بن زيد عن عليّ بن زيد بن جدعان قال سمعت سعيد بن جبير ويوسف بن مهران يقولان : سمعنا ابن عباس يسأل عن الشيء من القرآن فيقول فيه هكذا وهكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا . وعن عكرمة عن ابن عباس، وسأله رجل عن قول الله جل وعز : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : لاتلبس ثيابك على غدر، وتمثل بقول غيلان الثقفيّ :

فإني بحمد الله لا ثوبَ غادرٍ لَبِستُ ولا من سَوْءَةٍ أتقنَّعُ (١)

وسأل رجل عكرمة عن الزنيم قال : هو ولد الزنا، وتمثل ببيت شعر :

زنيمٌ ليس يُعرَفُ مَنْ أبوه بَغِيُّ الأمِّ ذو حسبٍ لئيمِ

وعنه أيضا الزنيم : الدعيّ الفاحش اللئيم، ثم قال :

زنيمٌ تداعاهُ الرجالُ زيادةً كما زِيدَ في عَرْضِ الأديمِ أكارِعُهْ

وعنه في قوله تعالى : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ قال : ذواتا ظل وأغصان، ألم تسمع الى قول الشاعر :

ما هاج شوقَكَ من هَديلِ حمامةٍ تدعو على فَنَنِ الغصونِ حَماما
تدعو أبا فَرخَينِ صادفَ طائرًا ذا مِخلَبينِ من الصُّقُورِ قَطَاما

وعن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى :﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قال : الأرض، قاله ابن عباس، وقال أمية بن أبي الصلت : «عندهم لحم بحرولحم ساهرة» (٢) . قال ابن الأنباريّ والرواة يروون هذا البيت :

وفيها لحمُ سَاهِرَةٍ وبَحْرٍ وما فاهُوا به لَهُمُ مُقيمُ

---

(١) أورد الألوسي في تفسيره روح المعاني هذا البيت عند قوله تعالى « وثيابك فطهر » برواية أخرى هكذا :

فاني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

(٢) كذا في الأصول ولعل ابن عباس يريد ما تضمنه البيت الذي قاله أمية والذي ذكره ابن الأنباري فيما يلي وقد عزز قول ابن الأنباري صاحب اللسان في مادة سهر وصاحب تفسير روح المعاني ج ١ ص ٢٨٦ طبع بولاق .

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس: أخبرنى عن قول الله جل وعز : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ما السِّنة ؟ قال : النعاس؛ قال زهير بن أبى سلمى :

لا سِنَةٌ فى طُوَالِ الليل تأخُذُه ＊ ولا يَنَامُ ولا فى أمره فَنَدُ (١)

باب ما جاء فى فضل تفسير القرآن وأهله

قال علماؤنا رحمة الله عليهم :

وأما ما جاء فى فضل التفسير عن الصحابة والتابعين، فمن ذلك : أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم ؛ فقال له رجل: ـــ جعلت فداءك ـــ تصف جابرا بالعلم وأنت أنت ! فقال : إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ . وقال مجاهد : أحب الخلق الى الله تعالى أعلمهم بما أنزل. وقال الحسن : والله ما أنزل الله آية الا أحب أن يعلم فيما أنزلت وما يعنى بها . وقال الشعبىّ : رحل مسروق الى البصرة فى تفسير آية ، فقيل له إن الذى يفسرها رحل الى الشأم، فتجهز ورحل الى الشأم حتى علم تفسيرها . وقال عكرمة : فى قوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته . وقال ابن عبد البر : هو ضمرة بن حبيب وسيأتى . وقال ابن عباس : مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما يمنعنى الا مهابته، فسألته فقال : هى حفصة وعائشة . وقال إياس بن معاوية : مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح ، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما فى الكتاب ؛ ومثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما فى الكتاب .

باب ما جاء فى حامل القرآن ومن هو وفيمن عاداه

قال أبو عمر : روى من وجوه فيها لين عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: « من تعظيم جلال الله إكرام ثلاثة ، الامام المقسط، وذى الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالى فيه ولا الجافى عنه»

---

(١) الفند : العجز .

وقال أبو عمر : وحملة القرآن هم العالمون بأحكامه ، وحلاله وحرامه ، والعاملون بما فيه . وروى أنس : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « القرآن أفضل من كل شيء فمن وقر القرآن فقد وقر الله ومن استخف بالقرآن استخف بحق الله تعالى حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله المعظمون كلام الله الملبسون نور الله فمن والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد استخف بحق الله تعالى » .

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته

قال الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله فى نوادر الأصول : فمن حرمة القرآن ألا يمسه إلا طاهراً . ومن حرمته أن يقرأه وهو على طهارة . ومن حرمته أن يستاك و يتخلل فيطيب فاه، إذ هو طريقه . قال يزيد بن أبي مالك : إن أفواهكم طرق من طرق القرآن، فطهروها ونظفوها ما استطعتم . ومن حرمته أن يتلبس(1) كما يتلبس للدخول على الأمير لأنه مناج . ومن حرمته أن يستقبل القبلة لقراءته . وكان أبو العالية إذا قرأ اعتم ولبس وارتدى واستقبل القبلة . ومن حرمته أن يتمضمض كلما تنخع . روى شعبة عن أبي حمزة عن ابن عباس : أنه كان يكون بين يديه تور اذا تنخع مضمض ثم أخذ فى الذكر وكان كلما تنخع مضمض . ومن حرمته إذا تثاءب أن يمسك عن القراءة لأنه اذا قرأ فهو مخاطب ربه ومناج، والتثاؤب من الشيطان . قال مجاهد : اذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القرآن تعظيما حتى يذهب تثاؤبك . قال عكرمة : يريد أن فى ذلك الفعل إجلالا للقرآن . ومن حرمته أن يستعيذ بالله عند ابتدائه للقراءة من الشيطان الرجيم ، ويقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إن كان ابتداء قراءته من أول السورة أو من حيث بلغ . ومن حرمته اذا أخذ فى القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة . ومن حرمته أن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه، لأنه اذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة الذى استعاذ فى البدء . ومن حرمته أن يقرأه على تؤدة وترسيل وترتيل . ومن حرمته أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يخاطب به . ومن حرمته أن يقف على آية الوعد فيرغب الى الله تعالى و يسأله من فضله ، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه . ومن حرمته أن يقف على أمثاله فيتمثلها ؛ ومن حرمته أن يلتمس غرائبه . ومن حرمته أن يؤدّى لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تماما، فإن

---

(1) يقال : تلبس بالثوب بمعنى لبسه .

له بكل حرف عشر حسنات . ومن حرمته اذا انتهت قراءته أن يصدّق ربه ويشهد بالبلاغ لرسوله صلى الله عليه وسلم، ويشهد على ذلك أنه حق، فيقول : صدقت ربنا وبلّغ رسولك . ونحن على ذلك من الشاهدين، اللهم اجعلنا من شهداء الحق، القائمين بالقسط، ثم يدعو بدعوات، ومن حرمته اذا قرأه ألا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأ، فإنه روى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه مر ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئا فأمره أن يقرأ على السور أو كما قال . ومن حرمته اذا وضع الصحيفة ألا يتركه منشورا وألّا يضع فوقه شيئا من الكتب حتّى يكون أبدا عاليا لسائر الكتب، علما كان أو غيره . ومن حرمته أن يضعه فى حجره اذا قرأه أو على شىء بين يديه ولا يضعه بالأرض . ومن حرمته ألا يمحوه من اللوح بالبصاق ولكن يغسله بالماء . ومن حرمته اذا غسله بالماء أن يتوقى النجاسات من المواضع التى توطأ، فان لتلك الغسالة حرمة، وكان من قبلنا من السلف منهم من يستشفى بغسالته . ومن حرمته ألا يتخذ الصحيفة اذا بليت ودرست وقاية للكتب؛ فإن ذلك جفاء عظيم، ولكن يمحوها بالماء . ومن حرمته ألا يخلى يوما من أيامه من النظر فى المصحف مرّة . وكان أبو موسى يقول : إنى لأستحيى ألا أنظر كل يوم فى عهد ربى مرّة . ومن حرمته أن يعطى عينيه حظهما منه فإن العين تؤدّى الى النفس وبين النفس والصدر حجاب، والقرآن فى الصدر فإذا قرأه عن ظهر قلب فإنما يسمع أذنه فتؤدّى الى النفس، فإذا نظر فى الخط كانت العين والأذن قد اشتركتا فى الأداء وذلك أوفر للأداء، وكان قد أخذت العين حظها كالأذن . روى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرىّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أعطوا أعينكم حظها من العبادة» قالوا : يارسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال : « النظر فى المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه » . وروى مكحول عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن نظرا» . ومن حرمته ألا يتأوله عند ما يعرض له شىء من أمر الدنيا . حدثنا عمرو بن زياد الحنظلىّ قال حدّثنا هشيم بن بشير عن المغيرة عن ابراهيم قال : كان يكره أن يُتأول شىء من القرآن عند ما يعرض له شىء من أمر الدنيا، والتأويل مثل قولك للرجل اذا جاءك : جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يا مُوسَى، ومثل قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الأَيَّامِ الخَالِيَةِ﴾ هذا عند حضور الطعام وأشباه هذا . ومن حرمته ألا يقال : سورة كذا كقولك : سورة النحل وسورة البقرة وسورة النساء ولكن يقال : السورة التى يذكر فيها كذا . قلت : هذا يعارضه

قوله صلى الله عليه وسلم : « الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما فى ليلة كفتاه » خرّجه البخاري ومسلم من حديث عبدالله بن مسعود . ومن حرمته ألا يتلى منكوسا كفعل معلمى الصبيان يلتمس أحدهم بذلك أن يُرى الحذق من نفسه والمهارة، فان تلك مخالفة . ومن حرمته ألا يقعر فى قراءته كفعل هؤلاء الهمزيين المبتدعين المتنطعين فى إبراز الكلام من تلك الأفواه المنتنة تكلفا ، فإن ذلك محدث ألقاه اليهم الشيطان فقبلوه عنه . ومن حرمته ألا يقرأه بألحان الغناء كلحون أهل الفسق ولا بترجيع النصارى ولا نوح الرهبانية، فإن ذلك كله زيغ وقد تقدم . ومن حرمته أن يجلل تخطيطه اذا خطه . وعن أبى حكيمة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة ، فمرّ علىّ رضى الله عنه فنظر الى كتابته ، فقال له : أجل قلمك ، فأخذت القلم فقططته من طرفه قطا ، ثم كتبت وعلىّ رضى الله عنه قائم ينظر الى كتابتى ، فقال : هكذا نوره كما نوره الله عز وجل . ومن حرمته ألا يجهر بعض على بعض فى القراءة فيفسد عليه حتى يبغض اليه ما يسمع ويكون كهيئة المغالبة . ومن حرمته ألا يمارى ولا يجادل فيه فى القراءات، ولا يقول لصاحبه : ليس هكذا هو ، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة جائزة من القرآن، فيكون قد جحد كتاب الله . ومن حرمته ألا يقرأ فى الأسواق ولا فى مواطن اللغط واللغو ومجمع السفهاء، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم اذا مرّوا باللغو مرّوا كراما ، هذا لمروره بنفسه ، فكيف اذا مرّ بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهرانى أهل اللغو ومجمع السفهاء . ومن حرمته ألا يتوسد المصحف ولا يعتمد عليه ولا يرمى به الى صاحبه اذا أراد أن يناوله . ومن حرمته ألا يصغر المصحف ، روى الأعمش عن ابراهيم عن علىّ رضى الله عنه قال : لا يصغر المصحف . قلت : وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه رأى مصحفا صغيرا فى يد رجل فقال : من كتبه ؟ قال : أنا ، فضربه بالدرة ، وقال : عظموا القرآن . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقال : مسيجد أو مصيحف . ومن حرمته ألا يخلط فيه ما ليس منه . ومن حرمته ألّا يحلى بالذهب ولا يكتب بالذهب فتخلط به زينة الدنيا . وروى مغيرة عن ابراهيم : أنه كان يكره أن يحلى المصحف أو يكتب بالذهب أو يعلم عند رءوس الآى أو يصغر . وعن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدبار[1] عليكم » وقال ابن عباس ورأى مصحفا قد زين بفضة : تغرون به السارق، وزينته فى جوفه .

(١) الدبار : الهلاك . وفى رواية «فالدمار» بالميم بدل الباء الموحدة .

ومن حرمته ألا يكتب على الأرض ولا على حائط كما يفعل بهذه المساجد المحدثة . حدّثنا محمد بن على الشقيقيّ عن أبيه عن عبد الله بن المبارك عن سفيان عن محمد بن الزبير قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يحدّث قال : مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب فى أرض، فقال لشاب من هذيل : «ما هذا» قال : من كتاب الله كتبه يهوديّ ؛ فقال : «لعن الله من فعل هذا ، لا تضعوا كتاب الله إلا موضعه» . قال محمد بن الزبير : رأى عمر بن عبد العزيز ابنا له يكتب القرآن على حائط فضربه . ومن حرمته أنه اذا اغتسل بكتابته مستشفيا من سقم ألا يصبه على كناسة ، ولا فى موضع نجاسة ولا على موضع يوطأ ، ولكن ناحية من الأرض فى بقعة ، لا يطؤه الناس ، أو يحفر حفيرة فى موضع طاهر حتى ينصب من جسده فى تلك الحفيرة ثم يكبسها ، أو فى نهر كبير يختلط بمائه فيجرى . ومن حرمته أن يفتتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ختم يقرأ من أوّل القرآن قدر خمس آيات، لئلا يكون فى هيئة المهجور . وروى ابن عباس قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله أيّ العمل أفضل؟ قال : « عليك بالحال المرتحل » قال : وما الحالّ المرتحل؟ قال : «صاحب القرآن يضرب من أوّله حتى يبلغ آخره ثم يضرب من أوّله كلما حل آرتحل» .

قلت : ويستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله . ذكر أبو بكر الأنباريّ أنبأنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا وكيع عن مسعر عن قتادة : أن أنس بن مالك كان اذا ختم القرآن جمع أهله ودعا . وأخبرنا ادريس حدّثنا خلف حدّثنا جرير عن منصور عن الحكم قال : كان مجاهد وعبدة بن أبى لبابة وقوم يعرضون المصاحف، فاذا أرادوا أن يختموا وجهوا الينا أحضرونا، فإن الرحمة تنزل عند ختم القرآن. وأخبرنا ادريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم العوام عن ابراهيم عن التيميّ قال : من ختم القرآن أوّل النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسى، ومن ختم أوّل الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح؛ قال : فكانوا يستحبون أن يختموا أوّل الليل وأوّل النهار. ومن حرمته ألا يكتب التعاويذ منه ثم يدخل به فى الخلاء إلا أن يكون فى غلاف من أدم أو فضة أو غيره، فيكون كأنه فى صدرك. ومن حرمته إذا كتبه وشربه سمى الله على كل نفس وعظم النية فيه فإن الله يؤتيه على قدر نيته . روى ليث عن مجاهد قال : لا بأس أن تكتب القرآن ثم تسقيه المريض . وعن أبى جعفر قال : من وجد فى قلبه قساوة فليكتب « يس » فى جام بزعفران ثم يشربه . قلت : ومن حرمته ألا يقال : سورة صغيرة، وكره

أبو العالية أن يقال : سورة صغيرة أو كبيرة ، وقال لمن سمعه قالها : أنت أصغر منها ؛ وأما القرآن فكله عظيم ذكره مكىّ رحمه الله . قلت : وقد روى أبو داود ما يعارض هذا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنه قال : ما من المفصل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤم بها الناس فى الصلاة .

باب ما جاء من الوعيد فى تفسير القرآن بالرأى والجرأة على ذلك ومراتب المفسرين

روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من كتاب الله إلا آيا بعدد علمه إياهن جبريل . قال ابن عطية : ومعنى هذا الحديث فى مغيبات القرآن ، وتفسير مجمله ونحو هذا ، مما لا سبيل اليه إلا بتوقيف من الله تعالى . ومن جملة مغيباته ما لم يُعْلِم الله به ، كوقت قيام الساعة ونحوها ، مما يستقرى من ألفاظه كعدد النفخات فى الصور ، وكرتبة خلق السموات والأرض . روى الترمذىّ عن ابن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « اتقُوا الحديث علىّ إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » . وروى أيضا عن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » قال : هذا حديث غريب . وأخرجه أبو داود وتُكُلِّمَ فى أحد رواته . وزاد رَزِينٌ : ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر . قال أبو بكر محمد بن القاسم ابن بشار بن محمد الأنبارىّ النحوىّ اللغوىّ فى كتاب الرّد : فُسِّر حديث ابن عباس تفسيرين : أحدهما من قال فى مشكل القرآن بما لا يعرف من مذاهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرّض لسخط الله . والجواب الآخر وهو أثبت القولين وأصحهما معنى : من قال فى القرآن قولا يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار . ومعنى يتبوأ : ينزل ويحلل ، قال الشاعر :

وبُوِّئَتْ فى صَميم مَعْشَرِها فَتَمَّ فى قومها مُبوَّؤُها(١)

وقال فى حديث جندب : فحمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأى معنىّ به الهوى : من قال فى القرآن قولا يوافق هواه ، لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب فقد أخطأ لحكمه على القرآن

(١) جاء فى لسان العرب مادّة بوأ تفسيرا لهذا البيت : أى نزلت من الكرم فى صميم النسب .

بما لا يعرف أصله ، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه . وقال ابن عطية : ومعنى هذا أن يُسأل الرجل عن معنى من كتاب الله عز وجل فيتسوّر[(١)] عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء أو اقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول ؛ وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه ، ويقول كل واحد باجتهاده المبنيّ على قوانين علم ونظر ، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا لمجرّد رأيه . قلت : هذا صحيح وهو الذى اختاره غير واحد من العلماء ، فإن من قال فيه بما سنح فى وهمه وخطر على باله من غير استدلال عليه بالأصول فهو مخطئ ، وإن من استنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح .

وقال بعض العلماء : إن التفسير موقوف على السماع لقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ وهذا فاسد لأن النهى عن تفسير القرآن لا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط ، أو المراد به أمرا آخر ، وباطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما سمعه ؛ فإن الصحابة رضى الله عنهم قد قرءوا القرآن واختلفوا فى تفسيره على وجوه ، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس وقال : « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فى الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ » فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك ! وهذا بيّن لا إشكال فيه ، وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة النساء إن شاء الله تعالى . وإنما النهى يحمل على أحد وجهين * أحدهما أن يكون له فى الشىء رأى ، واليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأوّل القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى ، وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته ، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك ، ولكن مقصوده أن يُلَبِّس على خصمه ، وتارة يكون مع الجهل ، وذلك اذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه الى الوجه الذى يوافق غرضه ، ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه ، فيكون قد فسّر برأيه أى رأيه حمله على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه . وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به ، كمن يدعو الى مجاهدة القلب القاسى ، فيقول : قال

(١) من قولهم : تسوّر الحائط اذا صعد عليه ويعنى به هنا التهجم والاقدام بغير بصيرة ولا تدبر .

الله تعالى : ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ ويشير الى قلبه ويومئ الى أنه المراد بفرعون ، وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للستمع ، وهو ممنوع لأنه قياس فى اللغة ، وذلك غير جائز . وقد تستعمله الباطنية فى المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم الى مذاهبهم الباطلة ، فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعا أنها غير مرادة . فهذه الفنون أحد وجهى المنع من التفسير بالرأى * الوجه الثانى أن يتسارع الى تفسير القرآن بظاهر العربية ، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن ، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة (١) ، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير ؛ فمن لم يُحكِم ظاهر التفسير وبادر الى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه ، ودخل فى زمرة من فسر القرآن بالرأى ، والنقل والسماع لا بد له منه فى ظاهر التفسير أولا ليتقى به مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط ؛ والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ولا مطمع فى الوصول الى الباطن قبل إحكام الظاهر ، ألا ترى أن قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها ؛ فالناظر الى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ، ولا يدرى بماذا ظلموا وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم ، فهذا من الحذف والإضمار ؛ وأمثال هذا فى القرآن كثير وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرق النهى اليه والله أعلم .

قال ابن عطية : وكان جملة من السلف كسعيد بن المسيب وعامر الشعبى وغيرهما يعظمون تفسير القرآن ويتوقفون عنه تورعا واحتياطا لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم . قال أبو بكر الأنبارى : وقد كان الأئمة من السلف الماضى يتورعون عن تفسير المشكل من القرآن ، فبعض يقدر أن الذى يفسره لا يوافق مراد الله عز وجل فيُحجم عن القول ، وبعض يُشفق من أن يُجعل فى التفسير إماما يُبنى على مذهبه ويُقتفى طريقه ، فلعل متأخرا أن يفسر حرفا برأيه ويخطئ فيه ، ويقول : إمامى فى تفسير القرآن بالرأى فلان الإمام من السلف . وعن ابن أبى مليكة قال : سئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه عن تفسير حرف من القرآن فقال : أى سماء تُظلنى ، وأى أرض تُقلنى ! وأين أذهب ! وكيف أصنع ! اذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى .

---

(١) هكذا فى كل النسخ التى بأيدينا .

قال ابن عطية : وكان جملة من السلف كثير عددهم يفسرون القرآن وهم أبقوا[1] على المسلمين فى ذلك رضى الله عنهم؛ فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، ويتلوه عبد الله بن عباس وهو تجرّد فيه للأمر وكمله وتبعه العلماء عليه كمجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما ، والمحفوظ عنه فى ذلك أكثر من المحفوظ عن علىّ . وقال ابن عباس : ما أخذت من تفسير القرآن فعن علىّ بن أبى طالب ، وكان علىّ رضى الله عنه يثنى على تفسير ابن عباس ويحض على الأخذ عنه، وكان ابن مسعود يقول: نِعْمَ تَرْجُمانُ القرآن عبدُالله بن عباس. وقال عنه علىّ رضى الله عنه : ابن عباس كأنما ينظر الى الغيب من ستر رقيق . ويتلوه عبد الله بن مسعود وأبىّ بن كعب وزيد ابن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص ؛ وكلّ ما أُخذ عن الصحابة فحسن مقدّم لشهودهم التنزيل ونزوله بلغتهم . وعن عامر بن واثلة قال : شهدت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يخطب فسمعته يقول فى خطبته : سلونى فوالله لا تسألونى عن شىء يكون الى يوم القيامة إلا حدّثتكم به، سلونى عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم فى سهل نزلت أم فى جبل؛ فقام اليه ابن[2] الكوّاء فقال : يا أمير المؤمنين ما الذّاريات ذَرْوًا؟ وذكر الحديث. وعن المنهال بن عمرو قال: قال عبد الله بن مسعود: لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله منّى تبلغه المطىّ لأتيته ؛ فقال له رجل : أما لقيت علىّ بن أبى طالب ؟ فقال : بلى قد لقيته . وعن مسروق قال : وجدت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مثل الإخاذ يُرْوِى الواحد والإخاذ يُرْوِى الإثنين ، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصدرهم، وإن عبد الله بن مسعود من تلك الآخاذ ؛ ذكر هذه المناقب أبو بكر الأنبارىّ فى كتاب الرّد، وقال : الإخاذ عند العرب : الموضع الذى يحبس الماء كالغدير . قال أبو بكر حدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس حدّثنا سلّام عن زيد العمّى[3] عن أبى الصدّيق الناجى عن أبى سعيد الخدرىّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرحم أمّتى بها أبو بكر وأقواهم فى دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم علىّ وأفرضهم زيد وأقرؤهم لكتاب الله عز وجل

(١) من قولهم : أبقيت على فلان اذا أشفقت عليه ورحمته .

(٢) اسمه عبد الله بن أبى أوفى اليشكرى كما فى تاريخ الطبرى فى عدّة مواضع .

(٣) جاء فى حاشية بهامش الأصل : أنه سمى زيدا العمى لأنه كان ينادى من رآه ياعم . وجاء فى تهذيب التهذيب عند الكلام على اسم زيد المذكور : أنه لقب بذلك لأنه كان اذا سئل عن الشيء يقول : حتى أسأل عمى .

أبىّ بن كعب وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح وأبو هريرة وعاء من العلم وسلمان بحر من علم لا يدرك وما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء — أو قال — : البطحاء من ذى لهجة أصدق من أبى ذر" .

قال ابن عطية : ومن المبرّزين فى التابعين الحسن البصرىّ ومجاهد وسعيد بن جبير وعلقمة، قرأ مجاهد على ابن عباس قراءة تفهم ووقوف عند كل آية؛ ويتلوهم عكرمة والضحاك وإن كان لم يلق ابن عباس، وإنما أخذ عن ابن جبير؛ وأما السدّىّ فكان عامر الشعبىّ يطعن عليه وعلى أبى صالح (١) لأنه كان يراهما مقصرين فى النظر . قلت : وقال يحيى بن معين : الكلبىّ ليس بشىء . وعن يحيى ابن سعيد القطان عن سفيان قال : قال الكلبىّ : قال أبو صالح : كل ما حدّثتك كذب . وقال حبيب بن أبى ثابت : كنا نسميه الدروَغْزَنْ — يعنى أبا صالح — مولى أم هانئ، والدروَغْ زَنْ : هو الكذاب بلغة الفرس . ثم حمل تفسير كتاب الله تعالى عدول كل خلف ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « يحمل هذا العلم من كل خلف عُدُولُه يَنفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » خرّجه أبو عمر وغيره . قال الخطيب أبو بكر أحمد بن على البغدادىّ : وهذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم أعلام الدين وأئمة المسلمين لحفظهم الشريعة من التحريف، والانتحال للباطل، وردّ تأويل الأبله الجاهل، وأنه يجب الرجوع إليهم، والمعوّل فى أمر الدين عليهم، رضى الله عنهم .

قال ابن عطية : وألف الناس فيه كعبد الرزاق والمفضل وعلىّ بن أبى طلحة والبخارىّ وغيرهم . ثم إن محمد بن جرير رحمه الله جمع على الناس أشتات التفسير، وقرّب البعيد منها وشفى فى الإسناد . ومن المبرّزين من المتأخرين أبو إسحاق الزجاج وأبو علىّ الفارسىّ ؛ وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس فكثيرا ما استدرك الناس عليهما ، وعلى سننهما مكىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وأبو العباس المهدوىّ متقن التأليف، وكلهم مجتهد مأجور رحمهم الله ونضّر وجوههم .

(١) اسمه باذام بمعجمة بين ألفين، يروى عن مولاته أم هانئ كما فى الخلاصة فى أسماء الرجال .

باب تبيين الكتاب بالسنة وما جاء فى ذلك

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وفرض طاعته فى غير آية من كتابه وقرنها بطاعته عز وجل ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . ذكر ابن عبد البر فى كتاب العلم له عن عبد الرحمن ابن يزيد : أنه رأى محرما عليه ثيابه فنهى المحرم ؛ فقال : ائتنى بآية من كتاب الله تنزع ثيابى ؛ قال : فقرأ عليه ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ وعن هشام بن حُجير(١) قال : كان طاوس يصلى ركعتين بعد العصر ، فقال ابن عباس : اتركهما ؛ فقال : إنما نهى عنهما أن تتخذا سنة ؛ فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد العصر ، فلا أدرى أتعذب عليهما أم تؤجر ، لأن الله تعالى قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ . وروى أبو داود عن المقدام بن معديكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا وإنى قد أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فان لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه » .

قال الخطابى : قوله « أتيت الكتاب ومثله معه » يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما أن معناه أنه أوتى من الوحى الباطن غير المتلو ، مثل ما أعطى من الظاهر المتلو ، والثانى أنه أوتى الكتاب وحيا يتلى ، وأوتى من البيان مثله أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب فيعم ويخص ويزيد عليه ويشرع ما فى الكتاب ؛ فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن ؛ وقوله : « يوشك رجل شبعان » الحديث ، يحذر بهذا القول من مخالفة السنن التى سنها مما ليس له فى القرآن ذكر على ما ذهبت اليه الخوارج والروافض ، فانهم تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التى قد ضمنت بيان الكتاب ؛ قال : فتحيروا وضلوا ؛ قال والأريكة : السرير ، ويقال : إنه لا يسمى

---

(١) حجير بمهملة وجيم مصغر كما فى الخلاصة فى أسماء الرجال .

أريكة حتى يكون فى حجلة ، قال : وإنما أراد بالأريكة أصحاب الترفه والدعة الذين لزموا البيوت ولم يطلبوا العلم من مظانه؛ وقوله : «إلا أن يستغنى عنها صاحبها» معناه أن يتركها صاحبها لمن أخذها استغناء عنها؛ كقوله : ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ معناه تركهم الله استغناء عنهم؛ وقوله : «فله أن يعقبهم بمثل قراه» هذا فى حال المضطر الذى لا يجد طعاما ويخاف التلف على نفسه، فله أن يأخذ من مالهم بقدر قراه عوض ما حرموه من قراه . ويعقبهم يروى مشددا ومخففا من المعاقبة، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أى فكانت الغلبة لكم فغنمتم منهم ، وكذلك لهذا أن يغنم من أموالهم بقدر قراه؛ قال : وفى الحديث دلالة على أنه لا حاجة بالحديث الى أن يعرض على الكتاب، فإنه مهما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حجة بنفسه؛ قال : فأما ما رواه بعضهم أنه قال : «إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه وإن لم يوافقه فاتركوه» فانه حديث باطل لا أصل له .

ثم البيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين : بيان لمجمل فى الكتاب، كبيانه للصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذى تؤخذ منه من الأموال، وبيانه لمناسك الحج، قال صلى الله عليه وسلم إذ حج بالناس : «خذوا عنى مناسككم» وقال : «صلوا كما رأيتمونى أصلى» أخرجه البخارى . وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال لرجل : إنك رجل أحمق، أتجد الظهر فى كتاب الله أربعا لا يجهر فيها بالقراءة ؟ ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال : أتجد هذا فى كتاب الله تعالى مفسرا ! إن كتاب الله تعالى أبهم هذا، وإن السنة تفسر هذا .

وروى الأوزاعىّ عن حسان بن عطية قال : كان الوحى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التى تفسر ذلك . وروى سعيد بن منصور : حدثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعىّ عن مكحول قال : القرآن أحوج الى السنة من السنة الى القرآن . وبه عن الأوزاعى قال : قال يحيى ابن أبى كثير : السنة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب بقاض على السنة . قال الفضل بن زياد : سمعت أبا عبد الله — يعنى أحمد بن حنبل — وسئل عن هذا الحديث الذى روى أن السنة قاضية على الكتاب، فقال : ما أجسر على هذا ان أقوله، ولكنى أقول : إن السنة تفسر الكتاب وتبينه .

وبيان آخر وهو زيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وتحريم الحمر الأهلية وكل ذى ناب من السباع ، والقضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك ، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

باب كيفية التعلم والفقه لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وما جاء أنه سهل على من تقدم العمل به دون حفظه

ذكر أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان له باسناده عن عثمان وابن مسعود وأبى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها الى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل ، فيعلمنا القرآن والعمل جميعا . وذكر عبد الرزاق عن معمر عن عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن السلمى قال : كنا اذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التى بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها . وفى موطإ مالك : أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلمها . وذكر أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الحافظ فى كتابه المسمى[1] فى ذكر أسماء من روى عن مالك : عن مرداس بن محمد بن بلال الأشعرى قال : حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر قال : تعلم عمر البقرة فى اثنتى عشرة سنة ، فلما ختمها نحر جزورا . وذكر أبو بكر الأنبارى : حدثنى محمد بن شهريار حدثنا حسين بن الأسود حدثنا عبد الله[2] بن موسى عن زياد بن أبى مسلم أبى عمرو عن زياد بن مخراق قال : قال عبد الله بن مسعود : إنا يصعب علينا حفظ ألفاظ القرآن ، ويسهل علينا العمل به ، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ ألفاظ القرآن ، ويصعب عليهم العمل به .

حدثنا ابراهيم بن موسى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا الفضل بن دكين حدثنا اسماعيل بن ابراهيم ابن المهاجر عن أبيه عن مجاهد عن ابن عمر قال : كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها ، ورزقوا العمل بالقرآن ، وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبى والأعمى ولا يرزقون العمل به . حدثنى حسن ابن عبد الوهاب أبو محمد بن أبى العنبر حدثنا أبو بكر بن حماد المقرئ قال : سمعت خلف بن هشام

---

(١) هكذا فى النسخ التى وقفنا عليها . (٢) فى بعض النسخ « عبيد الله » .

البزاري يقول : ما أظن القرآن إلا عارية فى أيدينا، وذلك أنا روينا أن عمر بن الخطاب حفظ البقرة فى بضع عشرة سنة، فلما حفظها نحر جزورا شكرا لله، وإن الغلام فى دهرنا هـذا يجلس بين يدى فيقرأ ثلث القـرآن لا يسـقط منه حرفا، فما أحسب القرآن إلا عارية فى أيدينا . وقال أهـل العلم بالحديث : لا ينبغى لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكتبه،دون معرفته وفهمه،فيكون قـد أتعب نفسه من غير أن يظفر بطائل، وليكن تحفظه للحديث على التدريج قليلا قليلا مع الليـالى والأيام . وممن ورد عنه ذلك من حفاظ الحديث شـعبة وابن عُلَيَّة ومعمر، قال معمر : سمعت الزهرى يقول : من طلب العلم جملة فاته جملة، وإنما يدرك العلم حديثا وحديثين والله أعلم . وقال معاذ بن جبل : اعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا . قال ابن عبـد البر : وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مثل قول معاذ من رواية عباد بن عبد الصمد، وفيـه زيادة أن العلماء همتهم الدراية ، وأن السفهاء همتهم الرواية . وروى موقوفا وهو أولى من رواية من رواه مرفوعا، وعباد بن عبد الصمد ليس ممن يحتج به، ولقد أحسن القائل فى نظمه فى فضل العلم وشرف الكتاب العزيز والسنة الغراء :

إن العـلوم وإن جلت محاسنها … فتاجها مابه الإيمـان قد وجبا
هو الكتاب العـزيز الله يحفظه … وبعـــد ذلك علم فـرج الكربا
فذاك فاعلم حديث المصطفى فبه … نور النبوة سنّ الشرع والأدبا
وبعد هـذا علوم لا انتهاء لهـا … فاختر لنفسك يامن آثر الطلبا
والعـلم كنز تجـده فى معادنه … ياأيها الطالب ابحث وانظر الكتبا
واتل بفهم كتاب الله فيه أتت … كل العـلوم تدبره تر العجبـا
واقرأ هديت حديث المصطفى وسل … مولاك ما تشتهى يقضى لك الأربا
من ذاق طعما لعـلم الدين سرّ به … اذا تزيد منـه قال واطـربا

باب معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه»

روى مسلم عن أبيّ بن كعب : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة[1] بنى غفار ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف ، فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك" ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين ؛ فقال : « أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك» ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ؛ فقال: "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك" ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا . وروى الترمذى عنه قال : لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال : "يا جبريل إنى بعثت إلى أمة أمّية منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لا يقرأ كتابا قط فقال لى يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف" قال : هذا حديث حسن صحيح ، وثبت فى الأمهات : البخارى ومسلم والموطإ وأبى داود والنسائى وغيرها من المصنفات والمسندات قصة عمر مع هشام بن حكيم ، وسيأتى بكماله فى آخر الباب مبينا ان شاء الله تعالى .

وقد اختلف العلماء فى المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا ذكرها أبو حاتم محمد ابن حبان البستى ، نذكر منها فى هذا الكتاب خمسة أقوال :

الأول وهو الذى عليه أكثر أهل العلم كسفيان بن عيينة وعبد الله بن وهب والطبرى والطحاوى وغيرهم : أن المراد سبعة أوجه من المعانى المتقاربة بألفاظ مختلفة ، نحو أقبل وتعال وهلم . قال الطحاوى : وأبين ما ذكر فى ذلك حديث أبى بكرة قال : جاء جبريل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : اقرأ على حرف ؛ فقال ميكائيل : استزده ، فقال : اقرأ على حرفين فقال ميكائيل : استزده حتى بلغ الى سبعة أحرف ؛ فقال : اقرأ فكل شاف كاف إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب أو آية

---

(1) الأضاة : غدير صغير وقيل : هو مسيل الماء إلى الغدير . وهو موضع قريب من مكة فوق سرف . وغفار . قبيلة من كنانة .

عذاب بآية رحمة، على نحو هلم وتعال وأقبل واذهب وأسرع وعجل. وروى ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب: أنه كان يقرأ: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا﴾ للذين آمنوا أمهلونا، للذين آمنوا أخرونا، للذين آمنوا ارقبونا. وبهذا الاسناد عن أبيّ كان يقرأ: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ مروا فيه، سعوا فيه. وفي البخاري ومسلم قال الزهري: إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلف في حلال ولا حرام.

قال الطحاوي: إنما كانت السعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم، لأنهم كانوا أميين لا يكتب إلا القليل منهم، فلما كان يشق على كل ذي لغة أن يتحول الى غيرها من اللغات، ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة، فوسع لهم في اختلاف الألفاظ إذ كان المعنى متفقا، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها. قال ابن عبد البر: فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان في وقت خاص لضرورة دعت الى ذلك، ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد.

روى أبو داود عن أبيّ قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبيّ إني أقرئت القرآن فقيل لي على حرف أو حرفين فقال الملك الذي معي قل على حرفين فقيل لي على حرفين أو ثلاثة فقال الملك الذي معي قل على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال ليس منها الا شاف كاف إن قلت سميعا عليما، عزيزا حكيما، ما لم تخلط آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب". وأسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وذكر من كلام ابن مسعود نحوه. قال القاضي ابن الطيب: واذا ثبتت هذه الرواية — يريد حديث أبيّ — حمل على أن هذا كان مطلقا ثم نسخ، فلا يجوز للناس أن يبدلوا اسما لله تعالى في موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالف.

القول الثاني قال قوم: هي سبع لغات في القرآن على لغات العرب كلها: يمنها ونزارها، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجهل شيئا منها، وكان قد أوتي جوامع الكلم، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن قال الخطابي: على أن في القرآن ما قد

قرئ بسبعة أوجه، وهو قوله : ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ . وقوله : ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ وذكر وجوها كأنه يذهب الى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف لا كله، والى هذا القول بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف على سبع لغات، ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام واختاره ابن عطية قال أبو عبيد : وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظا فيها من بعض ، وذكر حديث ابن شهاب عن أنس أن عثمان قال لهم حين أمرهم أن يكتبوا المصاحف : ما اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش ، فانه نزل بلغتهم . ذكره البخارى وذكر حديث ابن عباس قال : نزل القرآن بلغة الكعبين كعب قريش وكعب خزاعة قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لان الدار واحدة . قال أبو عبيد : يعنى أن خزاعة جيران قريش فأخذوا بلغتهم .

قال القاضى ابن الطيب رضى الله عنه : معنى قول عثمان : فإنه نزل بلسان قريش، يريد معظمه وأكثره ، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط ، إذ فيه كلمات وحروف وهى خلاف لغة قريش، وقد قال الله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ولم يقل قرشيا، وهذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب ، وليس لأحد أن يقول : إنه أراد قريشا من العرب دون غيرها ، كما أنه ليس له أن يقول : أراد لغة عدنان دون قحطان، أو ربيعة دون مضر، لان اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولا واحدا .

وقال ابن عبد البر : قول من قال : إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عندى فى الأغلب والله أعلم، لأن غير لغة قريش موجود فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها ، وقريش لا تهمز . وقال ابن عطية : معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم : «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أى فيه عبارة سبع قبائل بلغة جملتها نزل القرآن ، فيعبر عن المعنى فيه مرة بعبارة قريش، ومرة بعبارة هذيل، ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوجز فى اللفظ؛ ألا ترى أن فطر معناه عند غير قريش ابتدأ فجاءت فى القرآن فلم تتجه لابن عباس ، حتى اختصم اليه أعرابيان فى بئر، فقال أحدهما : أنا فطرتها ؛ قال ابن عباس : ففهمت حينئذ موقع قوله تعالى : ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ . وقال أيضا : ما كنت أدرى معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ ، حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك أى أحاكمك، وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ

عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ أى على تنقص لهم . وكذلك اتفق لقطبة بن مالك إذ سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الصلاة : ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ ذكره مسلم فى باب القراءة فى صلاة الفجر إلى غير ذلك من الأمثلة .

القول الثالث : أن هـذه اللغات السبع انمـا تكون فى مضر قاله قوم ، واحتجوا بقول عثمان : نزل القرآن بلغة مضر، وقالوا : جائز أن يكون منها لقريش، ومنها لكنانة، ومنها لأسد، ومنها لهذيل، ومنها لتيم ، ومنها لضبة، ومنها لقيس؛ قالوا : فهذه قبائل مضر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب؛ وقد كان ابن مسعود يحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر . وأنكر آخرون أن تكون كلها فى مضر، وقالوا : فى مضر شـواذ لا يجوز أن يقرأ القـرآن بها ، مثل كشكشة قيس، وتمتمة تميم؛ فأما كشكشة قيس فانهم يجعلون كاف المؤنث شينا فيقولون فى : ﴿ جَعَـلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ . جعل ربش تحتش سريا؛ وأما تمتمة تميم فيقولون فى الناس : النات، وفى أكياس : أكيات، قالوا : وهذه لغات يرغب عن القرآن بها ولا يحفظ عن السلف فيها شيء .

وقال آخرون: أما إبدال الهمزة عينا و إبدال حروف الحلق بعضها من بعض فمشهور عن الفصحاء، وقـد قرأ به الجلة واحتجوا بقراءة ابن مسعود : ليسجننه عتى حين ذكرها أبو داود ، وبقول ذى الرمة :

فعيناك عيناها وجيدك جيدها ٭ ولونك إلا عنّهـا غير طائل

القول الرابع : ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء وحكى نحوه القاضى ابن الطيب قال: تدبرت وجوه الاختلاف فى القراءة فوجدتها سبعا : منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته، مثـل : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ وأطهرَ، ﴿ و يضيقُ صـدرى ﴾ و يضيقَ ؛ ومنها ما لا تتغير صورته و يتغير معناه بالإعراب : مثل ﴿ رَبَّنَا بَاعَدَ بين أسفارنا ﴾ و باعِدْ؛ ومنها ما تبقى صورته و يتغير معناه باختلاف الحروف، مثل قوله : ﴿ نُنْشِزُهَا ﴾ وننشرها ومنها ما تتغير صورته و يبقى معناه : ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ وكالصوف المنفوش؛ ومنها ما تتغير صـورته ومعناه، مثـل : ﴿ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾ وطلع منضود؛ ومنها بالتقديم والتأخير كقوله : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ وجاءت سكرة الحق بالموت؛ ومنها بالزيادة والنقصان مثل قوله : تسع وتسـعون نعجة أنثى وقوله : وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين وقوله : فان الله من بعد اكراههن لهن غفور رحيم .

القول الخامس : أن المراد بالأحرف السبعة معانى كتاب الله تعالى ، وهى أمر ونهى ووعد ووعيد وقصص ومجادلة وأمثال . قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأن هذا لا يسمى أحرفا ، وأيضا فالاجماع على أن التوسعة لم تقع فى تحليل حلال ولا فى تغيير شىء من المعانى . وذكر القاضى ابن الطيب فى هـذا المعنى حديثا عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم ، ثم قال : ولكن ليست هذه هى التى أجاز لهم القراءة بها ، وانما الحرف فى هذه بمعنى الجهة والطريقة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ فكذلك معنى هذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك . وقد قيل : إن المراد بقوله عليـه السلام : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » القراءات السبع التى قرأ بها القراء السبعة ، لأنها كلهـا صحت عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، وهـذا ليس بشىء لظهور بطلانه على ما يأتى .

(فصل) قال كثير من علمائنا كالداودى وابن أبى صفرة وغيرهما : هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هى الأحرف السبعة التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها ، وإنما هى راجعة الى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذى جمع عليـه عثمان المصحف ، ذكره ابن النحاس وغيره ؛ وهذه القراءات المشهورة هى اختيارات أولئك الأئمة القراء ، وذلك أن كل واحد منهم اختار فيما روى وعلم وجهه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى ، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتهر عنه ، وعرف به ونسب اليه ، فقيل : حرف نافع ، وحرف ابن كثير ، ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوّغه وجوّزه ، وكل واحد من هؤلاء السبعة روى عنه اختياران أو أكثر وكل صحيح ، وقد أجمع المسلمون فى هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا فى ذلك مصنفات ، فاستمر الاجماع على الصواب ، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب ؛ وعلى هذا الأئمة المتقـدمون والفضلاء المحققون كالقاضى أبى بكر بن الطيب والطبرى وغيرهما . قال ابن عطية ؛ ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة وبها يصلى لأنها ثبتت بالاجماع ؛ وأما شاذ القراءات فلا يصلى به لأنه لم يجمع الناس عليه ، أما أن المروى منه عن الصحابة رضى الله عنهم وعن علماء التابعين فلا نعتقد فيه إلا أنهم رووه ، وأما ما يؤثر عن أبى السمال ومن قارنه فإنه لا يوثق به ، قال غيره : أما شـاذ القراءة عن المصاحف المتـواترة فليست بقرآن ، ولا يعمل بها على أنهـا منه ،

وأحسن محاملها أن تكون بيان تأويل مذهب من نسبت اليه كقراءة ابن مسعود : فصيام ثلاثة أيام متتابعات، فأما لو صرح الراوى بسماعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاختلف العلماء فى العمل بذلك على قولين : النفى والاثبات، ووجه النفى أن الراوى لم يروه فى معرض الخبر بل فى معرض القرآن. ولم يثبت فلا يثبت، والوجه الثانى أنه وإن لم يثبت كونه قرآنا فقد ثبت كونه سنة، وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الاحاد .

فصل فى ذكر معنى حديث عمر وهشام. قال ابن عطية : أباح الله تعالى لنبيه عليه السلام هذه الحروف السبعة وعارضه بها جبريل عليه السلام فى عرضاته على الوجه الذى فيه الإعجاز وجودة الرصف، ولم تقع الإباحة فى قوله عليه السلام : « فاقرءوا ما تيسر منه » بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن، وكان معرّضا أن يبدّل هذا وهذا حتى يكون غير الذى نزل من عند الله، وإنما وقعت الإباحة فى الحروف السبعة للنبىّ صلى الله عليه وسلم ليوسع بها على أمته، فاقرأ مرة لأبىّ بما عارضه به جبريل ، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضا، وعلى هذا تجىء قراءة عمر بن الخطاب لسورة الفرقان، وقراءة هشام بن حكيم لها، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبىّ صلى الله عليه وسلم فى كل قراءة منهما، وقد اختلفتا : « هكذا أقرأنى جبريل » هل ذلك إلا أنه أقرأه مرة بهذه ومرة بهذه وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ : إن ناشئةَ الليلِ هى أشدّ وطأ وأصوب قيلا فقيل له : إنما نقرأ وأقوم قيلا. فقال أنس : وأصوب قيلا وأقوم قيلا وأهيأ واحد، فإنما معنى هذا أنها مروية عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى : ﴿إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ . روى البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها، فكدت أن أعجل عليه ، ثم أمهلته حتى انصرف ثم لببته بردائه، فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله، إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أرسله، اقرأ " فقرأ القراءة التى سمعته يقرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"هكذا أنزلت" ثم قال لى : " اقرأ " فقرأت فقال : "هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه" .

قلت : و فى معنى حديث عمر هذا، ما رواه مسلم عن أبىّ بن كعب قال : كنت فى المسجد فدخل رجل يصلى، فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما النبىّ صلى الله عليه وسلم، فقرآ فحسّن النبىّ صلى الله عليه وسلم شأنهما، فسقط فى نفسى من التكذيب ولا اذ كنت فى الجاهلية، فلما رأى النبىّ صلى الله عليه وسلم ما قد غشينى، ضرب فى صدرى ففضت عرقا . وكأنى أنظر الى الله تعالى فرقا، فقال: "يا أبىّ أرسل الىّ أن أقرأ القرآن على حرف فرددت اليه أن هوّن على أمتى فردّ الىّ الثانية أن اقرأه على حرفين فرددت اليه أن هوّن على أمتى فردّ الىّ الثالثة أن اقرأه على سبعة أحرف ولك بكل ردّة رددتكها مسألة تسألنيها فقلت : اللهم اغفر لأمتى واغفر لأمتى وأخرت الثالثة ليوم يرغب الىّ فيه الخلق كلهم حتى ابراهيم عليه السلام"

قول أبىّ رضى الله عنه فسقط فى نفسى معناه اعترتنى حيرة ودهشة أى أصابته نزغة من الشيطان ليشوّش عليه حاله، و يكدر عليه وقته؛ فانه عظم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيما فى نفسه والا فأىّ شىء يلزم من المحال والتكذيب من اختلاف القراءات، ولم يلزم ذلك والحمد لله فى النسخ الذى هو أعظم، فكيف بالقراءة !

ولما رأى النبىّ صلى الله عليه وسلم ماأصابه من ذلك الخاطر نبهه بأن ضربه فى صدره، فأعقب ذلك بأن انشرح صدره وتنور باطنه، حتى آل به الكشف والشرح إلى حالة المعاينة ؛ ولما ظهر له قبح ذلك الخاطر خاف من الله تعالى وفاض بالعرق استحياء من الله تعالى، فكان هذا الخاطر من قبيل ما قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم ــ حين سألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ــ قال :"وقد وجدتموه" قالوا : نعم قال: "ذلك صريح الإيمان" أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . وسيأتى الكلام عليه فى سورة الأعراف ان شاء الله تعالى .

باب ذكر جمع القران وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقه ما سواها وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم

كان القرآن فى مدة النبى صلى الله عليه وسلم متفرقا فى صدور الرجال ، وقد كتب الناس منه فى صحف وفى جريد وفى لخاف وظُرَر وفى خزف وغير ذلك — قال الأصمعى : اللخاف : حجارة بيض رقاق واحدتها لَخْفة . والظرر : حجر له حد كحد السكين والجمع ظرار ، مثل رطب ورطاب ، وربع ورباع ، وظرزان أيضا مثل صرد وصردان — فلما استحر القتل بالقراء يوم اليمامة فى زمن الصديق رضى الله عنه ، وقتل منهم فى ذلك اليوم فيما قيل سبعمائة ، أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر الصديق رضى الله عنهما بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القراء ، كأُبَىّ وابن مسعود وزيد ، فندبا زيد بن ثابت الى ذلك ، فجمعه غير مرتب السور ، بعد تعب شديد ، رضى الله عنه ، روى البخارى عن زيد بن ثابت قال : أرسل إلىّ أبو بكر مقتلَ أهل اليمامة وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه ، وإنى لأرى أن تجمع القرآن ؛ قال أبو بكر : فقلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : هو والله خير ، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى ، ورأيت الذى رأى عمر ؛ قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لى أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن ؛ قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ؛ فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف[1] والعُسُب[2] وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع

---

(١) الأكتاف : جمع كتف وهو عظم عريض يكون فى أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم .

(٢) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل إذا نزع عنه خوصه .

غيره : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ إلى آخرها . فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر . وقال الليث حدثنى عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب وقال : مع أبى خزيمة الأنصارى، وقال أبو ثابت حدثنا ابراهيم وقال: مع خزيمة أو أبى خزيمة ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وقال الترمذى فى حديثه عنه : فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ . قال : حديث حسن صحيح .

وفى البخارى عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا الصحف فى المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب، كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصارى الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ . وقال الترمذى عنه : فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ فالتمستها فوجدتها عند خزيمة بن ثابت أو أبى خزيمة، فألحقتها فى سورتها . قلت : فسقطت الآية الأولى من آخر براءة فى الجمع الأول، على ما قاله البخارى والترمذى؛ وفى الجمع الثانى فقدت آية من سورة الأحزاب . وحكى الطبرى : أن آية براءة سقطت فى الجمع الأخير، والأول أصح والله أعلم . فإن قيل : فما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه، وقد سبقه أبو بكر الى ذلك وفرغ منه؛ قيل له : إن عثمان رضى الله عنه لم يقصد بما صنع جمع الناس على تأليف المصحف، ألا ترى كيف أرسل الى حفصة : أن أرسلى الينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك على ما يأتى؛ وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس اختلفوا فى القراءات بسبب تفرق الصحابة فى البلدان وآشتد الأمر فى ذلك، وعظم اختلافهم وتشبثهم؛ ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضى الله عنه، وذلك أنهم اجتمعوا فى غزوة أرمينية فقرأت كل طائفة بما روى لها؛ فاختلفوا وتنازعوا وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا، فأشفق حذيفة مما رأى منهم؛ فلما قدم حذيفة المدينة فيما ذكر البخارى

والترمذى دخل الى عثمان قبـل أن يدخل الى بيته ، فقال أدرك هـذه الأمة قبل أن تهلك ، قال : فماذا ؟ قال : فى كتاب الله ، إنى حضرت هذه الغزوة وجمعت ناسا من العـراق والشام والحجـاز ، فوصف له ما تقـدم وقال : إنى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى . قلت : وهـذا أدل دليل على بطلان من قال : إن المراد بالأحرف السبعة قراءات القراء السبعة ، لأن الحق لا يختلف فيه ، وقد روى سُوَيد بن غَفَلة عن على بن أبى طالب أن عثمان قال : ما ترون فى المصاحف فإن النـاس قد اختلفوا فى القراءة حتى إن الرجل ليقول : إن قراءتى خير من قراءتك ، وقراءتى أفضل من قراءتك ، وهـذا شبيه بالكفر ، قلنا : ما الرأى عندك يا أمير المؤمنين ؟ قال : الرأى عندى أن يجتمع الناس على قراءة ، فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافا ، قلنا : الرأى رأيك يا أمير المؤمنين . فأرسل عثمان الى حفصة : أن أرسلى الينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردّها اليك ، فأرسلت بها اليه فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصى وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين : اذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف فى المصاحف ردّ عثمان الصحف الى حفصة ، وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سوى ذلك من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ، وكان هذا من عثمان رضى الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلة أهل الاسـلام وشاورهم فى ذلك ، فاتفقوا على جمعه بمـا صح وثبت من القراءات المشهورة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم واطّراح ما سواها ، واستصوبوا رأيه وكان رأيا سديدا موفقا رحمـة الله عليه وعليهم أجمعين . وقال الطبرى فيما روى : إن عثمان قرن بزيد أبان ابن سعيد بن العاصى وحده وهذا ضعيف . وما ذكره البخارى والترمذى وغيرهما أصح ، وقال الطبرى أيضا : إن الصحف التى كانت عند حفصة جعلت إماما فى هذا الجمع الأخير ، وهذا صحيح .

قال ابن شهاب : وأخبرنى عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف ، وقال : يامعشر المسلمين ، أعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل ، والله لقد أسلمت وإنه لفى صلب رجل كافر ! — يريد زيد بن ثابت — ولذلك قال عبـد الله بن مسعود : يا أهل العراق اكتموا المصاحف التى عندكم وغلوها ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فالقوا الله بالمصاحف، خرجه الترمذى . وسيأتى الكلام فى هـذا فى سورة آل عمران ان شاء الله تعالى .

قال أبو بكر الأنبارى : ولم يكن الاختيار لزيد من جهة أبى بكر وعمر وعثمان على عبد الله ابن مسعود فى جمع القرآن ، وعبد الله أفضل من زيد، وأقدم فى الإسلام، وأكثر سوابق، وأعظم فضائل ، إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله إذ وعاه كله، ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىّ والذى حفظ منه عبد الله فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم نيف وسبعون سورة ، ثم تعلم الباقى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فالذى ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىّ أولى بجمع المصحف وأحق بالإيثار والاختيار، ولا ينبغى أن يظن جاهل أن فى هـذا طعنا على عبد الله بن مسعود، لأن زيدا اذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبا لتقدمته عليه، لأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن، وليس هو خيرا منهما ولا مساويا لهما فى الفضائل والمناقب. قال أبو بكر: وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك فشىء نتجه الغضب، ولا يعمل به ولا يؤخذ به، ولا يشك فى أنه رضى الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبقى على موافقتهم وترك الخلاف لهم، فالشائع الذائع المتعالم عند أهل الرواية والنقل: أن عبد الله بن مسعود تعلم بقية القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال بعض الأئمة : مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن . قال يزيد بن هارون : المعوذتان بمنزلة البقرة وآل عمران من زعم أنهما ليستا من القرآن فهو كافر بالله العظيم ، فقيل له : فقول عبد الله بن مسعود فيهما؟ فقال : لا خلاف بين المسلمين فى أن عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كله . قلت : هذا فيه نظر وسيأتى، وروى اسماعيل بن اسحاق وغيره قال حماد : أظنه عن أنس بن مالك، قال : كانوا يختلفون فى الآية فيقولون أقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلان بن فلان، فعسى أن يكون من المدينة على ثلاث ليال فيرسل اليه فيجاء به، فيقال : كيف أقرأك رسول الله صلى الله عليه وسلم آية كذا وكذا ؟ فيكتبون كما قال . قال ابن شهاب : واختلفوا يومئذ فى التابوت، فقال زيد: التابوه، وقال ابن الزبير وسعيد بن العاصى التابوت، فرفع اختلافهم الى عثمان فقال : اكتبوه بالتاء، فإنه نزل بلسان قريش أخرجه البخارى والترمذى . قال ابن عطية :

قرأه زيد بالهاء والقرشيون بالتاء، فأثبتوه بالتاء وكتبت المصاحف على ما هو عليه غابر الدهر، ونسخ منها عثمان نسخا، قال غيره : قيل سبعة وقيل أربعة وهو الأكثر، ووجه بها الى الآفاق ، فوجه للعراق والشام ومصر بأمهات، فاتخذها قراء الأمصار معتمد اختياراتهم ولم يخالف أحد منهم مصحفه على النحو الذى بلغه ، وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف فى حروف يزيدها بعضهم وينقصها بعضهم فذلك لأن كلا منهم اعتمد على ما بلغه فى مصحفه ورواه، إذ قد كان عثمان كتب تلك المواضع فى بعض النسخ ولم يكتبها فى بعض إشعارا بأن كل ذلك صحيح ، وأن القراءة بكل منها جائزة . قال ابن عطية : ثم إن عثمان أمر بما سواها من المصاحف أن تحرق أو تخرق، تروى بالحاء غير منقوطة وتروى بالخاء على معنى ثم تدفن؛ ورواية الحاء غير منقوطة أحسن .

وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد عن سويد بن غفلة قال : سمعت علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول : يامعشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلو فى عثمان وقولكم : حرّاق المصاحف، فوالله ما حرقها الا عن ملأٍ منا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وعن عمر بن سعيد قال : قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لوكنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان ، قال أبو الحسن بن بطال : وفى أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التى فيها أسماء الله تعالى، وأن ذلك إكرام لها وصيانة عن الوطء بالأقدام، وطرحها فى ضياع من الأرض . روى معمر عن ابن طاوس عن أبيه : أنه كان يحرق الصحف اذا اجتمعت عنده الرسائل فيها بسم الله الرحمن الرحيم . وحرق عروة بن الزبير كتب فقه كانت عنده يوم الحرة، وكره إبراهيم أن تحرق الصحف اذا كان فيها ذكر الله تعالى، وقول من حرقها أولى بالصواب، وقد فعله عثمان؛ وقد قال القاضى أبو بكر لسان الأمة : جائز للامام تحريق الصحف التى فيها القرآن، اذا أداه الاجتهاد الى ذلك .

فصل — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وفى فعل عثمان رضى الله عنه رد على الحلولية والحشوية[1] القائلين بقدم الحروف والأصوات، وأن القراءة والتلاوة قديمة، وأن الايمان قديم، والروح قديم؛

(١) الحلولية : فرقة من المتصوفة تقول : إن الله حالّ فى كل شىء وفى كل جزء منه متحد به حتى جوزوا أن يطلق على كل شىء أنه الله . والحشوية طائفة من المبتدعة تمسكوا بالظواهر وذهبوا الى التجسيم وغيره »

وقد أجمعت الأمة وكل أمة من النصارى واليهود والبراهمة بل كل ملحد وموحد أن القديم لا يفعل ولا تتعلق به قدرة قادر بوجه ولا بسبب ، ولا يجوز العدم على القديم وأن القديم لا يصير محدثا ، والمحدث لا يصير قديما ، وأن القديم مالا أول لوجوده، وأن المحدث هو ما كان بعد أن لم يكن ، وهذه الطائفة خرقت إجماع العقلاء من أهل الملل وغيرهم ؛ فقالوا : يجوز أن يصير المحدث قديما ، وأن العبد اذا قرأ كلام الله تعالى فعل كلاما لله قديما ، وكذلك اذا نحت حروفا من الآجر والخشب ، أو صاغ أحرفا من الذهب والفضة ، أو نسج ثوبا فنقش عليه آية من كتاب الله فقد فعل هؤلاء كلام الله قديما ، وصار كلامه منسوجا قديما ومنحوتا قديما ومصوغا قديما ؛ فيقال لهم : ما تقولون فى كلام الله تعالى : أيجوز أن يذاب ويحى ويحرق ؟ فان قالوا : نعم ، فارقوا الدين، وان قالوا : لا، قيل لهم : فما قولكم فى حروف مصورة آية من كتاب الله تعالى من شمع ، أو ذهب أو فضة أو خشب أو كاغد فوقعت فى النار فذابت واحترقت فهل تقولون : إن كلام الله احترق ؟ فان قالوا : نعم، تركوا قولهم؛ وإن قالوا : لا قيل لهم : أليس قلتم : إن هذه الكتابة كلام الله وقد احترقت ! وقلتم : إن هذه الأحرف كلامه وقد ذابت؛ فان قالوا : احترقت الحروف وكلامه تعالى باق، رجعوا الى الحق والصواب ودانوا بالجواب؛ وهو الذى قاله النبىّ صلى الله عليه وسلم، منبها على ما يقوله أهل الحق : «ولو كان القرآن فى إهاب ثم وقع فى النار ما احترق» وقال الله عز وجل : "أنزلت عليك كتابا لايغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان" الحديث أخرجه مسلم فثبت بهذا أن كلامه سبحانه ليس بحرف ولا يشبه الحروف . والكلام فى هذه المسألة يطول وتتميمها فى كتب الأصول، وقد بيناها فى «الكتاب الأسنى، فى شرح أسماء الله الحسنى» .

فصل ــ وقد طعن الرافضة ــ قبحهم الله تعالى ــ فى القرآن، وقالوا: إن الواحد يكفى فى نقل الآية والحرف كما فعلتم، فانكم اثبتم بقول رجل واحد وهو خزيمة بن ثابت وحده آخر سورة براءة، وقوله : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ فالجواب أن خزيمة رضى الله عنه لما جاء بهما تذكرهما كثير من الصحابة، وقد كان زيد يعرفهما، ولذلك قال: فقدت آيتين من آخر سورة التوبة ولو لم يعرفهما لم يدر هل فقد شيئا أو لا فالآية انما ثبتت بالإجماع لا بخزيمة وحده جواب ثان انما ثبتت بشهادة خزيمة وحده لقيام الدليل على صحتها فى صفة النبىّ صلى الله عليه وسلم، فهى قرينة تغنى عن طلب شاهد آخر بخلاف آية

الاحزاب فان تلك ثبتت بشهادة زيد وأبي خزيمة لسماعهما إياها من النبيّ صلى الله عليه وسلم. قال معناه المهلب، وذكر أن خزيمة غير أبي خزيمة، وأن أبا خزيمة الذى وجدت معه آية التوبة معروف من الأنصار، وقد عرفه أنس وقال: نحن ورثناه، والتى فى الأحزاب وجدت مع خزيمة بن ثابت فلا تعارض؛ والقصة غير القصة لا إشكال فيها ولا التباس. وقال ابن عبد البر: أبو خزيمة لا يوقف على صحة اسمه وهو مشهور بكنيته؛ وهو أبو خزيمة بن أوس بن يزيد بن أصرم بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، شهد بدرا وما بعدها من المشاهد، وتوفى فى خلافة عثمان بن عفان، وهو أخو مسعود بن أوس، قال ابن شهاب عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت: وجدت آخر التوبة مع أبي خزيمة الأنصارى وهو هذا، وليس بينه وبين الحارث بن خزيمة[1] نسب إلا اجتماعهما فى الأنصار، أحدهما أوسى والآخر خزرجى. وفى مسلم والبخارى عن أنس بن مالك قال: جمع القرآن على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار: أبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قلت لأنس: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتى. وفى البخارى أيضا عن أنس قال: مات النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد، وأبو زيد؛ ونحن ورثناه. وفى أخرى قال: مات أبو زيد ولم يترك عقبا، وكان بدريا، واسم أبي زيد سعد بن عبيد. قال ابن الطيب رضى الله عنه: لا تدل هذه الآثار على أن القرآن لم يحفظه فى حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك؛ فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعلى وتميم الدارىّ وعبادة بن الصامت وعبد الله ابن عمرو بن العاص، فقول أنس: لم يجمع القرآن غير أربعة يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير تلك الجماعة، فان أكثرهم أخذ بعضه عنه وبعضه عن غيره؛ وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم لأجل سبقهم الى الاسلام، وإعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم. قلت: لم يذكر القاضى، عبد الله بن

---

(١) فى الأصل الحارث بن خزيمة أبي خزيمة ولفظ أبى خزيمة مزيد والحارث بن خزيمة هذا قيل أنه هو الذى وجد معه آخر سورة التوبة. فلعله ذكرها للاشارة الى ذلك.

مسعود وسالما مولى أبى حذيفة رضى الله عنهما فيما رأيت، وهما ممن جمع القرآن . روى جرير عن عبد الله بن يزيد الصهبانى عن كميل قال :

قال عمر بن الخطاب: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر ومن شاء الله ، فمررنا بعبد الله بن مسعود وهو يصلى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من هذا الذى يقرؤ القرآن". فقيل له : هذا عبد الله بن أم عبد، فقال : " إن عبد الله يقرؤ القرآن غضا كما أنزل" . الحديث ، قال بعض العلماء: معنى قوله : «غضا كما أنزل» أى أنه كان يقرأ الحرف الأول الذى أنزل عليه القرآن دون الحروف السبعة التى رخص لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى قراءته عليها بعد معارضة جبريل عليه السلام القرآن إياه فى كل رمضان . وقد روى وكيع وجماعة معه عن الأعمش عن أبى ظبيان قال:

قال لى عبد الله بن عباس : أىّ القراءتين تقرأ؟ قلت : القراءة الأولى قراءة ابن أم عبد ؛ فقال لى : بل هى الآخرة ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرض القرآن على جبريل فى كل عام مرّة، فلما كان العام الذى قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضه عليه مرّتين، فحضر ذلك عبد الله فعلم ما نسخ من ذلك وما بدل . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «خذوا القرآن من أربعة من ابن أم عبد» . فبدأ به : «ومعاذ ابن جبل وأبىّ بن كعب وسالم مولى أبى حذيفة» . قلت : هذه الأخبار تدل على أن عبد الله جمع القرآن فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما تقدّم، والله أعلم .

وقد ذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الردّ: حدثنا محمد بن شهرياز حدثنا حسين بن الأسود حدثنا يحيى بن آدم عن أبى بكر عن أبى إسحاق قال : قال عبد الله بن مسعود : قرأت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنين وسبعين سورة أوثلاثا وسبعين سورة، وقرأت عليه من البقرة الى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ . قال أبو إسحاق : وتعلم عبد الله بقية القرآن من مُجَمِّع ابن جارية الأنصارى . قلت : فإن صح هذا صح الإجماع الذى ذكره يزيد بن هارون فلذلك لم يذكره القاضى أبو بكر بن الطيب مع من جمع القرآن وحفظه فى حياة النبىّ صلى الله عليه وسلم والله أعلم .

قال أبو بكر الأنبارى: حدثنى ابراهيم بن موسى الخوزى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا مالك بن اسماعيل حدثنا زهير عن أبى إسحاق قال : سألت الأسود ما كان عبد الله يصنع بسورة الأعراف ؟

فقال : ما كان يعلمها حتى قدم الكوفة؛ قال : وقد قال بعض أهل العلم : مات عبد الله بن مسعود رحمة الله عليه قبل أن يتعلم المعوذتين، فلهذه العلة لم توجدا فى مصحفه، وقيل : غير هذا على ما يأتى بيانه آخر الكتاب عند ذكر المعوذتين ان شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : والحديث الذى حدّثناه ابراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا عمر بن هارون الخراسانى عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن كعب القرظىّ قال : كان ممن ختم القرآن ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىّ عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود، حديث ليس بصحيح عند أهل العلم، إنما هو مقصور على محمد بن كعب فهو مقطوع لا يؤخذ به ولا يعوّل عليه . قلت : قوله عليه السلام : «خذوا القرآن من أربعة من ابن أم عبد» . يدل على صحته ومما يبين لك ذلك أن أصحاب القراءات من أهل الحجاز والشأم والعراق كل منهم عزا قراءته التى اختارها الى رجل من الصحابة قرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يستثن من جملة القرآن شيئا، فأسند عاصم قراءته إلى على وابن مسعود، وأسند ابن كثير قراءته الى أبىّ، وكذلك أبو عمرو ابن العلاء أسند قراءته الى أبىّ ، وأما عبد الله بن عامر فانه أسند قراءته الى عثمان؛ وهؤلاء كلهم يقولون : قرأنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسانيد هذه القراءات متصلة ورجالها ثقات قاله الخطابىّ .

باب ما جاء فى ترتيب سور القرآن وآياته وشكله ونقطه وتحزيبه وتعشيره وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه

قال ابن الطيب : إن قال قائل : قد اختلف السلف فى ترتيب سور القرآن ، فمنهم من كتب فى مصحفه السور على تاريخ نزولها، وقدّم المكىّ على المدنىّ، ومنهم من جعل فى أوّل مصحفه الحمد، ومنهم من جعل فى أوّله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ وهذا أوّل مصحف على رضى الله عنه؛ وأما مصحف ابن مسعود فإن أوّله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ثم البقرة ثم النساء على ترتيب مختلف ؛ ومصحف أُبىّ كان أوّله الحمد لله ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائدة ثم كذلك على اختلاف شديد . قال القاضى أبو بكر بن الطيب : فالجواب أنه يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هى عليه اليوم فى المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة . وذكر ذلك مكىّ رحمه الله فى تفسير سورة

براءة، وذكر أن ترتيب الآيات فى السور ووضع البسملة فى الأوائل هو من النبي صلى الله عليه وسلم، ولما لم يأمر بذلك فى أول سورة براءة تركت بلا بسملة، هذا أصح ما قيل فى ذلك وسيأتى .

وذكر ابن وهب فى جامعه قال : سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يُسأل : لم قدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة، وإنما نزلتا بالمدينة؟ فقال ربيعة: قد قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه ، وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما ينتهى إليه، ولا يسأل عنه . وقد ذكر سنيد قال حدثنا معتمر عن سلام بن مسكين عن قتادة قال : قال ابن مسعود : " من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هديا، وأحسنها حالا، اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم فى آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم" . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سور القرآن على ما هو عليه فى مصحفنا كان عن توقيف من النبي صلى الله عليه وسلم، وأما ما روى من اختلاف مصحف أُبيّ وعليّ وعبد الله فإنما كان قبل العرض الأخير، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رتب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك . روى يونس عن ابن وهب قال : سمعت مالكا يقول : إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد : أن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا، ثم فرق على النبي صلى الله عليه وسلم فى عشرين سنة، وكانت السورة تنزل فى أمر يحدث، والآية جوابا لمستخبر يسأل، ويوقف جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم على موضع السورة والآية، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف، فكله عن محمد خاتم النبيين، عليه السلام عن رب العالمين، فمن أخر سورة مقدمة أو قدم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات، وغيّر الحروف والكلمات ، ولا حجة على أهل الحق فى تقديم البقرة على الأنعام، والأنعام نزلت قبل البقرة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ عنه هذا الترتيب، وهو كان يقول : " ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن " . وكان جبريل عليه السلام يقفه على مكان الآيات .

حدثنا حسن بن الحباب حدثنا أبو هشام حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبى إسحاق عن البراء قال : آخر ما نزل من القرآن : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ . قال أبو بكر بن عياش :

وأخطأ أبو إسحاق لأن محمد بن السائب حدثنا عن أبي السائب عن ابن عباس قال : آخر مانزل من القرآن : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ . فقال جبريل للنبي عليهما السلام : يا محمد ضعها فى رأس ثمانين ومائتين من البقرة .

قال أبو الحسن بن بطال : ومن قال بهذا القول لا يقول : إن تلاوة القرآن فى الصلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقَّف عليه فى المصحف، بل إنما يجب تأليف سوره فى الرسم والخط خاصة ، ولا يُعلم أن أحدا منهم قال : إن ترتيب ذلك واجب فى الصلاة وفى قراءة القرآن ودرسه، وأنه لا يحل لأحد أن يتلقن الكهف قبل البقرة ولا الحج قبل الكهف، ألا ترى قول عائشة رضى الله عنها للذى سألها : لا يضرك أيّة قرأت قبل ؛ وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الصلاة السورة فى ركعة ، ثم يقرأ فى ركعة أخرى بغير السورة التى تليها ؛ وأما ماروى عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسا ؛ وقالا : ذلك منكوس القلب، فإنما عنيا بذلك من يقرأ السورة منكوسة ، ويبتدئ من آخرها الى أولها لأن ذلك حرام محظور ؛ ومن الناس من يتعاطى هذا فى القرآن والشعر ليذلل لسانه بذلك ويقدر على الحفظ ، وهذا حظره الله تعالى ومنعه فى القرآن، لأنه إفساد لسوره ومخالفة لما قصد بها .

ومما يدل على أنه لا يجب إثباته فى المصاحف على تاريخ نزوله ما صح وثبت أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فتوضع فى السورة المكية، ألا ترى قول عائشة رضى الله عنها : وما نزلت سورة البقرة والنساء الا وأنا عنده — تعنى بالمدينة — وقد قدّمتا فى المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة، ولو ألفوه على تاريخ النزول لوجب أن ينتقض ترتيب آيات السور .

قال أبو بكر الانبارى حدثنا اسماعيل بن إسحاق القاضى حدثنا حجاج بن منهال حدثنا همام عن قتادة قال : نزل بالمدينة من القرآن البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، و براءة، والرعد ، والنحل ، والحج ، والنور ، والاحزاب، ومحمد، والفتح ، والحجرات ، والرحمن ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر، والممتحنة ، والصف، والجمعة، والمنافقون ، والتغابن، والطلاق، ويأيها النبى لم تحرم إلى رأس العشر ، وإذا زلزلت ، وإذا جاء نصر الله . هؤلاء السور نزلن بالمدينة ؛ وسائر القرآن نزل بمكة .

قال أبو بكر : فمن عمل على ترك الأثر والإعراض عن الإجماع ونظم السور على منازلها بمكة والمدينة، لم يدر أين تقع الفاتحة، لاختلاف الناس فى موضع نزولها، ويضطر إلى تأخير الآية التى فى رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين ؛ ومن أفسد نظم القرآن فقد كفر به ، ورد على محمد صلى الله عليه وسلم ما حكاه عن ربه تعالى ؛ وقد قيل : إن علة تقديم المدنى على المكى هو أن الله تعالى خاطب العرب بلغتها ، وما يعرف من أفانين خطابها ومحاورتها ؛ فلما كان فن من كلامهم مبنيا على تقديم المؤخر وتأخير المقدّم خوطبوا بهذا المعنى فى كتاب الله تعالى الذى لو فقدوه من القرآن لقالوا ما باله عرى من هذا الباب الموجود فى كلامنا المستحلى من نظامنا . قال عَبيد ابن الأبرص :

أن بُدّلتْ منهمُ وحوشا * وغيّرتْ حالَها الخطوبُ
عيناكَ دمعهما سَرُوب * كأن شأنيهما شَعيب

أراد عيناك دمعهما سروب لأن تبدّلت من أهلها وحوشا ، فقدّم المؤخر وأخر المقدّم ؛ ومعنى سروب : منصبّ على وجه الأرض . ومنه السارب، قال الشاعر :

* أنّى سربتِ وكنتِ غير سَرُوب *

وقوله شأنيهما، الشأن : واحد الشؤون وهى مواصل قبائل الرأس وملتقاها، ومنها يجىء الدمع . شعيب : متفرق .

فصل ـــ وأما شكل المصحف ونقطه فروى أن عبد الملك بن مروان أمر به وعمله ، فتجرد لذلك الحجاج بواسط وجدّ فيه وزاد تحزيبه، وأمر وهو والى العراق الحسن ويحيى بن يَعْمُر بذلك ، وألف إثر ذلك بواسط كتابا فى القراءات جمع فيه ما روى من اختلاف الناس فيما وافق الخط ، ومشى الناس على ذلك زمانا طويلا، إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه فى القراءات .

وأسند الزبيدى فى كتاب الطبقات إلى المبرد أن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى ؛ وذكر أيضا أن ابن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر .

فصل ـــ وأما وضع الأعشار فقال ابن عطية : مرّ بى فى بعض التواريخ أن المأمون العباسى أمر بذلك ، وقيل إن الحجاج فعل ذلك . وذكر أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان له عن عبد الله

ابن مسعود أنه كره التعشير فى المصحف ، وأنه كان يحكه . وعن مجاهد أنه كره التعشير والطيب فى المصحف . وقال أشهب : سمعت مالكا وسئل عن العشور التى تكون فى المصحف بالحمرة وغيرها من الألوان، فكره ذلك، وقال : تعشير المصحف بالحبر لا بأس به ؛ وسئل عن المصاحف يكتب فيها خواتم السور فى كل سورة ما فيها من آية، قال : إنى أكره ذلك فى أمهات المصاحف أن يكتب فيها شىء أو يشكل ، فأما ما يتعلم به الغلمان من المصاحف فلا أرى بذلك بأسا . قال أشهب : ثم أخرج إلينا مصحفا لجده، كتبه إذ كتب عثمان المصاحف، فرأينا خواتمه من حبر على عمل السلسلة فى طول السطر، ورأيته معجوم الآى بالحبر . وقال قتادة : بدءوا فنقطوا ثم خمسوا ثم عشروا . وقال يحيى بن أبى كثير : كان القرآن مجردا فى المصاحف ، فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء والثاء ، وقالوا : لا بأس به ، هو نور له ، ثم أحدثوا نقطا عند منتهى الآى ، ثم أحدثوا الفواتح والخواتيم . وعن أبى حمزة قال : رأى إبراهيم النخعى فى مصحفى فاتحة سورة كذا وكذا، فقال لى : امحه فان عبد الله بن مسعود قال : لاتخلطوا فى كتاب الله ما ليس فيه . وعن أبى بكر السراج قال . قلت لأبى رزين : أأكتب فى مصحفى سورة كذا وكذا؟ قال : إنى أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفونه فيظنونه من القرآن .

قال الدانى رضى الله عنه : وهذه الأخبار كلها تؤذن بأن التعشير والتخميس وفواتح السور ورءوس الآى من عمل الصحابة رضى الله عنهم ، قادهم إلى عمله الاجتهاد؛ وأرى أن من كره ذلك منهم ومن غيرهم إنما كره أن يعمل بالألوان كالحمرة والصفرة وغيرهما ؛ على أن المسلمين فى سائر الآفاق قد أطبقوا على جواز ذلك واستعماله فى الأمهات وغيرها ، والحرج والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله .

فصل — وأما عدد حروفه وأحزابه فروى سلام أبو محمد الحمانى أن الحجاج بن يوسف جمع القراء والحفاظ والكتاب، فقال : أخبرونى عن القرآن كله كم من حرف هو . قال : وكنت فيهم فحسبنا فأجمعنا على أن القرآن ثلثمائة ألف حرف وأربعون ألف حرف وسبعمائة حرف وأربعون حرفا ؛ قال : فأخبرونى الى أى حرف ينتهى نصف القرآن، فاذا هو فى الكهف "وَلْيَتَلَطَّفْ" فى الفاء ؛ قال : فأخبرونى بأثلاثه فاذا الثلث الأول رأس مائة من براءة ، والثلث الثانى رأس مائة وإحدى

من طسم الشعراء، والثلث الثالث ما بقى من القرآن؛ قال : فأخبرونى بأسباعه على الحروف، فاذا أوّل سبع فى النساء ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ﴾ فى الدال، والسبع الثانى فى الأعراف ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ﴾ فى التاء، والسبع الثالث فى الرعد ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ فى الألف من آخر أكلها، والسبع الرابع فى الحج ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ فى الألف، والسبع الخامس فى الأحزاب ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ فى الهاء، والسبع السادس فى الفتح ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ فى الواو، والسبع السابع ما بقى من القرآن .

قال سلام أبو محمد : عملناه فى أربعة أشهر، وكان الحجاج يقرأ فى كل ليلة ربعا ، فأول ربعه خاتمة الأنعام، والربع الثانى فى الكهف "وَلْيَتَلَطَّفْ"، والربع الثالث خاتمة الزمر، والربع الرابع ما بقى من القرآن؛ وفى هذه الجملة خلاف مذكور فى كتاب البيان لأبى عمرو الدانى، من أراد الوقوف عليه وجده هناك .

فصل ــ وأما عدد آى القرآن فى المدنىّ الأوّل، فقال محمد بن عيسى : جميع عدد آى القرآن فى المدنى الأوّل ستة آلاف آية . قال أبو عمرو : وهو العدد الذى رواه أهل الكوفة عن أهل المدينة ولم يسموا فى ذلك أحدا بعينه يسندونه اليه .

وأما المدنى الأخير فهو فى قول اسماعيل بن جعفر : ستة آلاف آية ومائتا آية وأربع عشرة آية . وقال الفضل: عدد آى القرآن فى قول المكيين ستة آلاف آية ومائتا آية وتسع عشرة آية . قال محمد ابن عيسى : وجميع عدد آى القرآن فى قول الكوفيين ستة آلاف آية ومائتا آية وثلاثون وست آيات، وهو العدد الذى رواه مسلم والكسائى عن حمزة وأسنده الكسائى الى على رضى الله عنه . قال محمد: وجميع عدد آى القرآن فى عدد البصريين ستة آلاف ومائتان وأربع آيات، وهو العدد الذى مضى عليه سلفهم حتى الآن ؛ وأما عدد أهل الشام فقال يحيى بن الحارث الذّمارى : ستة آلاف ومائتان وست وعشرون، فى رواية ستة آلاف ومائتان وخمس وعشرون نقص آية . قال ابن ذكوان : فظننت أن يحيى لم يعدّ (بسم الله الرحمن الرحيم) . قال أبو عمرو : فهذه الأعداد التى يتداولها الناس تأليفا، ويعدّون بها فى سائر الآفاق قديما وحديثا .

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان : جميع كلمات القرآن فى قول عطاء بن يسار : سبعة وسبعون ألفا وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة ؛ وحروفه ثلثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا . قلت : هذا يخالف ما تقدم عن الحمانى قبل هذا . وقال عبد الله بن كثير عن مجاهد قال : هذا ما أحصينا من القرآن، وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا، وهذا يخالف ما ذكره قبل هذا عن الحمانى من عد حروفه .

باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف

معنى السورة فى كلام العرب الابانة لها من سورة أخرى وانفصالها عنها ، وسميت بذلك لأنه يرتفع فيها من منزلة الى منزلة . قال النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

أى منزلة شرف ارتفعت اليها عن منزل الملوك . وقيل : سميت بذلك لشرفها وارتفاعها كما يقال لما ارتفع من الأرض سور . وقيل : سميت بذلك لأن قارئها يشرف على ما لم يكن عنده، كسور البناء ، كله بغير همز . وقيل : سميت بذلك لأنها قطعت من القرآن على حدة ، من قول العرب للبقية : سؤر، وجاء فى أسآر الناس أى بقاياهم، فعلى هذا يكون الأصل سؤرة بالهمز ثم خففت فأبدلت واوا لانضمام ما قبلها . وقيل : سميت بذلك لتمامها وكمالها من قول العرب للناقة التامة : سورة، وجمع سورة سور بفتح الواو . وقال الشاعر :

* سُود المحاجر لا يقْرَأْنَ بالسور *

ويجوز أن يجمع على سُورات وسُوَرات .

وأما الآية فهى العلامة بمعنى أنها علامة لانقطاع الكلام الذى قبلها من الذى بعدها وانفصاله، أى هى بائنة من أختها ومنفردة، وتقول العرب : بينى وبين فلان آية، أى علامة؛ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ ﴾ وقال النابغة :

توهمت آيات لها فعرفتها * لستة أعوام وذا العام سابع

وقيل : سميت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه، كما يقال : خرج القوم بآيتهم أى بجماعتهم . قال برج بن مسهر الطائى :

خرجنا من النقبين لاحىّ مثلنا * بآيتنا نزجى اللقاح المطافلا

وقيل : سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها . واختلف النحويون فى أصل آية، فقال سيبويه أيية على فعلة مثل أكمة وشجرة، فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفا فصارت آية بهمزة بعدها مدة . وقال الكسائى : أصلها آيية على وزن فاعلة مثل آمنة فقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت لالتباسها بالجمع . وقال الفراء : أصلها أيّة بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفا كراهة للتشديد فصارت آية وجمعها آى وآياء وآيات . وأنشد أبو زيد :

لم يبق هذا الدهر من آيائه * غير أثافيه وأرمدائه

وأما الكلمة فهى الصورة القائمة بجميع ما يختلط بها من الشبهات[1] أى الحروف، وأطول الكلم فى كتاب الله عز وجل ما بلغ عشرة أحرف، نحو قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ . ﴿وَأَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ وشبههما؛ فأما قوله : ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾[2] فهو عشرة أحرف فى الرسم وأحد عشر فى اللفظ ؛ وأقصرهن ما كان على حرفين نحو ما ولا ولك وله وما أشبه ذلك . ومن حروف المعانى ما هو على كلمة واحدة، مثل همزة الاستفهام وواو العطف، إلا أنه لا ينطق به مفردا . وقد تكون الكلمة وحدها آية تامة نحو قوله تعالى: ﴿والفجر﴾ . ﴿والضحى﴾ . ﴿والعصر﴾ . وكذلك ﴿الم﴾ . و ﴿المص﴾ . و ﴿طه﴾ و ﴿يس﴾ . و ﴿حم﴾ فى قول الكوفيين ، وذلك فى فواتح السور ، فأما فى حشوهن فلا . قال أبو عمرو الدانى : ولا أعلم كلمة هى وحدها آية الا قوله فى الرحمن : ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ لا غير، وقد أتت كلمتان متصلتان وهما آيتان، وذلك فى قوله : ﴿حم عسق﴾ على قول الكوفيين لا غير . وقد تكون الكلمة فى غير هذا، الآية التامة، والكلام القائم بنفسه، وإن كان أكثر أو أقل، قال الله عز وجل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ قيل إنما يعنى بالكلمة هاهنا، قوله تبارك وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الى آخر الآيتين، وقال عز وجل : ﴿وَأَلْزَمَهُمْ

(١) لم أر هذا التعبير لغير المؤلف وحسبناه فى صفحة ١٣ غلطا فعلقنا عليه .

(٢) كأنه اعتبر هاء الضمير كلمة أخرى فى الرسم فقط .

كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ : قال مجاهد : لا إله إلا الله . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم" وقد تسمى العرب القصيدة بأسرها، والقصة كلها، كلمة فيقولون : قال قُسٌّ فى كلمته كذا، أى فى خطبته، وقال زهير فى كلمته كذا، أى فى قصيدته، وقال فلان فى كلمته يعنى فى رسالته، فتسمى جملة الكلام كلمة اذ كانت الكلمة منها، على عادتهم فى تسميتهم الشيء باسم ماهو منه وما قاربه وجاوره، وكان بسبب منه، مجازا واتساعا .

وأما الحرف فهـو الشبهة القائمة وحدها من الكلمة وقد يسمى الحرف كلمة والكلمة حرفا على ما بيناه من الاتساع والمجـاز — قال أبو عمرو الدانى : فإن قيل فكيف يسمى ما جاء من حروف الهجاء فى الفواتح على حرف واحد نحو . ﴿ص﴾ و ﴿ق﴾ و ﴿ن﴾ حرفا أو كلمة؟ قلت : كلمة لا حرفا، وذلك من جهة أن الحرف لا يسكت عليه، ولا ينفرد وحده فى الصورة، ولا ينفصل مما يختلط به؛ وهذه الحروف مسكوت عليها منفـردة منفصلة كانفراد الكلم وانفصالهـا ، فلذلك سميت كلمات لا حروفا . قال أبو عمرو : وقد يكون الحرف فى غير هذا، المذهبَ والوجه، قال الله عز وجل : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُـدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ أى على وجه ومذهب، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : «انزل القرآن على سبعة أحرف» أى سبعة أوجه من اللغات والله أعلم .

باب هل ورد فى القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا

لا خلاف بين الأئمة أنه ليس فى القرآن كلام مركب على أساليب غير العـرب، وأن فيه أسماء أعلاما لمن لسانه غير لسان العرب : كاسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط؛ واختلفوا هل وقع فيه ألفاظ غير أعلام مفـردة من غير كلام العرب ، فذهب القاضى أبو بكر بن الطيب والطبرى وغيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه، وأن القرآن عربى صريح، وما وجد فيه من الألفاظ التى تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة وغيرهم، وذهب بعضهم إلى وجودها فيه، وأن تلك الألفاظ لقلتها لا تخرج القرآن عن كونه عربيا مبينا، ولا رسول الله عن كونه متكلما بلسان قومه، فالمشكاة : الكوة، ونشأ : قام من الليل، ومنه ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ و ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ أى ضعفين . و ﴿ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ أى الأسد، كله بلسان الحبشة . والغساق :

البارد المنتن بلسان الترك . والقسطاس : الميزان بلغة الروم . والسجيل : الحجارة والطين بلسان الفرس . والطود : الجبل . واليم : البحر بالسريانية . والتنور : وجه الأرض بالعجمية .

قال ابن عطية لحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها فى الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب وعربتها فهى عربية بهذا الوجه، وقد كان للعرب العاربة التى نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، وبرحلتى قريش، وكسفر مسافر[1] بن أبى عمرو إلى الشام، وكسفر عمر بن الخطاب، وكسفر عمرو بن العاصى، وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة ، وكسفر الأعشى إلى الحيرة، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة فى اللغة ؛ فعلقت العرب بهذا كله ألفاظا أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها، وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة واستعملتها فى أشعارها ومحاوراتها ، حتى جرت مجرى العربى الصحيح ، ووقع بها البيان ، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن، فان جهلها عربى ما فكجهله الصريح بما فى لغة غيره ، كما لم يعرف ابن عباس معنى فاطر إلى غير ذلك .

قال ابن عطية : وما ذهب اليه الطبرى رحمه الله من أن اللغتين اتفقتا فى لفظة فذلك بعيد بل إحداهما أصل والأخرى فرع، لا أنا ندفع أيضا جواز الاتفاق قليلا شاذا؛ قال غيره : والأول أصح . وقوله : هى أصل فى كلام غيرهم دخيلة فى كلامهم، ليس بأولى من العكس، فان العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها أولا، فان كان الأول فهى من كلامهم إذ لا معنى للغتهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم، وقد قال ذلك الامام الكبير أبو عبيدة .

فان قيل : ليست هذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه ، قلنا : ومن سلم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها؛ فقد بحث القاضى عن أصول أوزان كلام العرب ورد هذه الأسماء اليها على الطريقة النحوية، وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون وحينئذ لا يكون القرآن عربيا مبينا ، ولا يكون الرسول مخاطبا لقومه بلسانهم والله أعلم .

---

(١) هو ابن عم أبى سفيان بن حرب بن أمية فانه مسافر بن أبى عمرو (ذكوان) بن أمية ..

باب ذكر نكت فى إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، وشرائطها خمسة، فان اختل منها شرط لا تكون معجزة .

فالشرط الأول من شروطها أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه، وإنما وجب حصول هذا الشرط للمعجزة لأنه لو أتى آت فى زمان يصح فيه مجئ الرسل وادعى الرسالة وجعل معجزته أن يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد لم يكن هذا الذى ادعاه معجزة له، ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجب أن تكون المعجزات كفلق البحر، وانشقاق القمر، وما شاكلها مما لا يقدر عليه البشر.

والشرط الثانى هو أن تخرق العادة، وانما وجب اشتراط ذلك لأنه لو قال المدعى للرسالة : آيتى مجئ الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها لم يكن فيما ادعاه معجزة، لأن هذه الأفعال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله، فلم تفعل من أجله، وقد كانت قبل دعواه على ما هى عليه فى حين دعواه، ودعواه فى دلالتها على نبوته كدعوى غيره، فبان أنه لا وجه له يدل على صدقه، والذى يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه، وذلك أن يقول الدليل على صدقى أن يخرق الله تعالى العادة من أجل دعواى عليه الرسالة، فيقلب هذه العصا ثعبانا، ويشق الحجر ويخرج من وسطه ناقة، أو ينبع الماء من بين أصابعى كما ينبعه من العين، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات، التى ينفرد بها جبار الأرض والسموات، فتقوم له هذه العلامات مقام قول الرب سبحانه، لو أسمعنا كلامه العزيز، وقال: صدق، أنا بعثته، ومثال هذه المسألة ولله ولرسوله المثل الأعلى، ما لو كانت جماعة بحضرة ملك من ملوك الأرض، وقال أحد رجاله وهو بمرأى ومسمع منه والملك يسمعه : الملك يأمركم أيها الجماعة بكذا وكذا، ودليل ذلك أن الملك يصدقنى بفعل من أفعاله، وهو أن يخرج خاتمه من يده قاصدا بذلك تصديقى، فاذا سمع الملك كلامه لهم ودعواه فيهم، ثم عمل ما استشهد به على صدقه، قام ذلك مقام قوله لوقال، صدق فيما ادعاه على؛ فكذلك إذا عمل الله عملا لا يقدر عليه إلا هو، وخرق به العادة على يدى الرسول، قام ذلك الفعل مقام كلامه تعالى لو أسمعناه، وقال : صدق عبدى فى دعوى الرسالة، وأنا أرسلته اليكم فاسمعوا له وأطيعوا .

والشرط الثالث هو أن يستشهد بهـا مدعى الرسالة على الله عز وجل؛ فيقول : آيتى أن يقلب الله سبحانه هذا المـاء زيتا أو يحرك الأرض عند قولى لها تزلزلى، فاذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدى به .

الشرط الرابع هو أن يقع على وفق دعوى المتحدى بها المستشهد بكونها معجزة له، وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدّعى للرسالة : آية نبوتى ودليل حجتى أن تنطق يدى أو هذه الدابة فنطقت يده أو الدابة، بأن قالت : كذب وليس هو نبى، فان هذا الكلام الذى خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدّعى للرسالة، لأن ما فعله الله لم يقع على وفق دعواه؛ وكذلك ما يروى أن مسيلمة الكذاب لعنـه الله تفل فى بئر ليكثر ماؤها فغارت البـئر وذهب ما كان فيها من المـاء، فا فعل الله سبحانه من هذا، كان من الآيات المكذبة لمن ظهرت على يديه ، لأنها وقعت على خلاف ما أراده المتنبئ الكذاب .

والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتى أحد بمثل ما أتى به المتحدى على وجه المعارضة، فان تم الأمر المتحدّى به المستشهد به على النبوة على هذا الشرط مع الشروط المتقدّمة، فهى معجزة دالة على نبوة من ظهرت على يده، فان أقام الله تعالى من يعارضه حتى يأتى بمثل ما أتى به ويعمل مثل ما عمل بطل كونه نبيا،وخرج عن كونه معجزا ولم يدل على صدقه، ولهذا قال المولى سبحانه : ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ كأنه يقول : إن ادعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وسلم وعمله فاعملوا عشر سـور من جنس نظمه، فاذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله .

لا يقال: إن المعجزات المقيدة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدى الصادقين،وهذا المسيخ الدجال فيما رويتم عن نبيكم صلى الله عليه وسلم يظهر على يديه من الآيات العظام ، والأمور الجسام ، ما هو معروف مشهور؛ فانا نقول : ذلك يدعى الرسالة، وهذا يدعى الربوبية وبينهما من الفرقان، ما بين البصراء والعميان ، وقد قام الدليـل العقلى على أن بعثة بعض الخلق إلى بعض غير ممتنعة ولا مستحيلة ، فلم يبعد أن يقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملة .

ودلت الأدلة العقليـة أيضا على أن المسيخ الدجال فيـه التصوير والتغيير من حال إلى حال ، وثبت أن هذه الصـفات لا تليق إلا بالمحدثات ، تعالى رب البريات عن أن يشـبه شيئا أو يشبهه شيء ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

فصل — إذا ثبت هذا فاعلم أن المعجزات على ضربين : الأول ما اشتهر نقله وانقرض عصره بموت النبي صلى الله عليه وسـلم، والثانى ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله ، واستفاضت بثبوته ووجوده، ووقع لسامعها العـلم بذلك ضرورة ؛ ومن شرطه أن يكون الناقلون له خلقا كثيرا وجما غفيرا، وأن يكونوا عالمين بما نقلوه علما ضروريا، وأن يستوى فى النقل أولهم وآخرهم ووسـطهم فى كثرة العدد ، حتى يسـتحيل عليهم التواطؤ على الكذب، وهذه صفة نقل القرآن، ونقـل وجود النبي عليه الصلاة والسـلام ، لأن الأمة رضى الله عنها لم تزل تنقل القرآن خلفا عن سلف والسلف عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبي عليه السلام المعلوم وجوده بالضرورة،وصدقه بالأدلة المعجزات، والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام عن ربه جل وعز، فنقل القرآن فى الأصـل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان،ونقله الينا بعدهم أهل التواتر الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما ينقلونه ويسمعونه، لكثرة العدد، ولذلك وقع لنا العلم الضرورى بصدقهم فيما نقلوه من وجود محمد صلى الله عليه وسلم ومن ظهور القرآن على يديه وتحديه به؛ ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما نقل اليه من وجود البلدان : كالبصرة والشام والعـراق وخراسان والمدينة ومكة ، واشـباه ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة المتواترة ، فالقرآن معجزة نبينا صلى الله عليه وسـلم الباقية بعده الى يوم القيامة ، ومعجزة كل نبى انقرضت بانقراضه، أو دخلها التبديل والتغيير، كالتوراة والانجيل .

ووجوه اعجاز القرآن الكريم عشرة .

منهـا : النظم البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب وفى غيرها، لأن نظمه ليس من نظم الشعر فى شيء ، وكذلك قال رب العزة الذى تولى نظمه : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ وفى صحيح مسلم أن أنيسا أخا أبى ذر، قال لأبى ذر : لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ؛ قلت : فمـا يقول الناس ؛ قال يقولون : شاعر، كاهن، ساحر ، وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة ، فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون؛ وكذلك أقر عتبة بن ربيعة أنه ليس بسحر

ولا شعر لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : «حم» فصلت، على ما يأتى بيانه هناك، فاذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة، بأنه ما سمع مثل القرآن قط كان فى هذا القول مقرا بإعجاز القرآن له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه .

ومنها : الاسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

ومنها : الجزالة التى لا تصح من مخلوق بحال ، وتأمل ذلك فى سورة ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ إلى آخرها، وقوله سبحانه : ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلى آخر السورة، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ إلى آخر السورة . قال ابن الحصار : فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح فى خطاب غيره؛ ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ»، ولا أن يقول: «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ» .

قال ابن الحصار : وهذه الثلاثة من النظم، والأسلوب، والجزالة، لازمة كل سورة ، بل هى لازمة كل آية؛ وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدى والتعجيز، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة، من غير أن ينضاف اليها أمر آخر من الوجوه العشرة؛ فهذه سورة «الكوثر» ثلاث آيات قصار، وهى أقصر سورة فى القرآن، وقد تضمنت الإخبار عن مغيبين، أحدهما : الإخبار عن الكوثر وعظمه وسعته وكثرة أوانيه ، وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من اتباع سائر الرسل؛ والثانى : الإخبار عن الوليد بن المغيرة ، وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد، على ما يقتضيه قوله الحق : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ ثم أهلك الله سبحانه، ماله وولده؛ وانقطع نسله .

ومنها : التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى ؛ حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على اصابته فى وضع كل كلمة وحرف موضعه .

ومنها : الإخبار عن الأمور التى تقدمت فى أول الدنيا الى وقت نزوله من أمى ما كان يتلو من قبله من كتاب، ولا يخطه بيمينه؛ فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها، والقرون الخالية فى دهرها؛

وذكر ماسأله أهل الكتاب عنه، وتحدّوه به، من قصة أهل الكهف ، وشأن موسى والخضر عليهما السلام، وحال ذى القرنين؛ بجاءهم — وهو امى من أمة أمية، ليس لها بذلك علم — بما عرفوا من الكتب السالفة صحته؛ فتحققوا صدقه .

قال القاضى ابن الطيب : — ونحن نعلم ضرورة — أن هذا مما لا سبيل اليه إلا عن تعلم؛ وإذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار ، وحملة الأخبار، ولا مترددا إلى المتعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع اليه كتاب فيأخذ منه؛ علم أنه لايصل الى علم ذلك الابتأييد من جهة الوحى.

ومنهـا : الوفاء بالوعد، المدرك بالحس فى العيان، فى كل ما وعد الله سبحانه ؛ وينقسم : إلى أخباره المطلقة، كوعده بنصر رسوله عليه السلام ، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه . وإلى وعـد مقيد بشرط، كقوله : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ و﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾، وشبه ذلك .

ومنها : الإخبار عن المغيبات فى المستقبل التى لا يُطّلع عليها إلا بالوحى؛ فمن ذلك : ما وعد الله نبيّه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الآية . ففعل ذلك ؛ وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أغزى جيوشه عرّفهم ما وعدهم الله فى إظهار دينه، ليثقوا بالنصر، وليستيقنوا بالنُّجح، وكان عمر يفعل ذلك ؛ فلم يزل الفتح يتوالى شرقا وغربا، برا وبحرا ، قال الله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وقال : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ . وقال : ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ . وقال : ﴿الم . غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ . فهذه كلها أخبار عن الغيوب التى لا يقف عليها إلا رب العالمين، أو من أوقفه عليها رب العالمين؛ فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه .

ومنهـا : ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام جميع الأنام، فى الحلال والحرام ، وفى سائر الأحكام .

ومنها : الحكم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمى .

ومنها : التناسب في جميع ما تضمنه ظاهرا وباطنا من غير اختلاف، قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ .

قلت : فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم، ووجه حادي عشر قاله النظام وبعض القَدَرية : أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته ، والصَّرْفَةُ عند التحدي بمثله ؛ وأن المنع والصرفة هو المعجزة ،دون ذات القرآن، وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحدّيهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، وهذا فاسد ،لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز ؛ فلو قلنا : إن المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا ، وذلك خلاف الإجماع، وإذا كان كذلك، عُلِمَ أن نفسَ القرآن هو المُعْجِز ، لأن فصاحتَهُ وبلاغتَهُ أمرٌ خارقٌ للعادة ، إذ لم يُوجَد قطّ كلامٌ على هذا الوجه ، فلمّا لم يكن ذلك الكلام مألوفا معتادًا منهم ، دلّ على أن المنعَ والصرفةَ لم يكن مُعجزا ، واختلف من قال بهذه الصرفة على قولين :

أحدهما : أنهم صُرِفوا عن القُدْرة عليه ، ولو تعرّضوا له لَعَجَزوا عنه .

الثاني : أنهم صرفوا عن التعرض له مع كونه في مقدورهم ، ولو تعرضوا له لجاز أن يقدروا عليه .

قال ابن عطية : وجه التحدي في القرآن إنما هو بنظمه ، وصحة معانيه ، وتوالي فصاحة ألفاظه ؛ ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأحاط بالكلام كله علما ، فعلم بإحاطته أيّ لفظة تصلح أن تلي الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك ، من أول القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أنّ بشرا لم يكن محيطا قط ، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة . وبهذا النظر يبطل قول من قال : إن العرب كان في قدرتها أن تأتي بمثل القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم صُرفوا عن ذلك ، وعجزوا عنه . والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين ، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم ، يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا ، ثم تعطى لآخر بعده فيأخذها بقريحة جامة فيبدل فيها وينقح ، ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل ، وكتاب الله تعالى ، لو نزعت منه لفظة ، ثم ادير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد .

ومن فصاحة القرآن أن الله تعالى جلّ ذكره، ذكر فى آية واحدة أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ الآية، وكذلك فاتحة سورة المائدة : أمر بالوفاء ونهى عن النكث، وحلل تحليلا عاما، ثم آستثنى آستثناء بعد آستثناء، ثم أخبر عن حكمته وقدرته، وذلك مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، وأنبأ سبحانه عن الموت : وحسرة الفوت، والدار الآخرة وثوابها وعقابها، وفوز الفائزين، وتردّى المجرمين، والتحذير من الاغترار بالدنيا، ووصفها بالقلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ الآية، وأنبأ أيضا عن قصص الأولين والآخرين، ومآل المترفين، وعواقب المهلكين، فى شطر آية، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ ؛ وأنبأ جل وعز عن أمر السفينة و إجرائها و إهلاك الكفرة، وآستقرار السفينة وآستوائها، وتوجيه أوامر التسخير الى الأرض والسماء بقوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ الى غير ذلك .

فلما عجزت قريش عن الإتيان بمثله، وقالت : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم تقوّله، أنزل الله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ . ثم أنزل تعجيزا أبلغ من ذلك فقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ . فلما عجزوا حطهم عن هذا المقدار، إلى مثل سورة من السور القصار، فقال جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ . فأفحموا عن الجواب ، وتقطعت بهم الأسباب ، وعدلوا إلى الحروب والعناد ، وآثروا سبى الحريم والأولاد ؛ ولو قدروا على المعارضة لكان أهون كثيرا ، وأبلغ فى الحجة وأشد تأثيرا . هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللحن ، وعنهم تؤخذ الفصاحة واللسن .

فبلاغة القرآن فى أعلى طبقات الإحسان ، وأرفع درجات الإيجاز والبيان ؛ بل تجاوزت حدّ الإحسان والإجادة ، إلى حيز الإرباء والزيادة . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أوتى من جوامع الكلم ، وآختص به من غرائب الحكم ؛ إذا تأملت قوله صلى الله عليه وسلم فى صفة الجنان ، وإن كان فى نهاية الإحسان ، وجدته منحطا عن رتبة القرآن ؛ وذلك فى قوله عليه السلام : " فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " فأين ذلك من قوله عز وجل :

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾. وقوله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾. هذا أعدل وزنا، وأحسن تركيبا ، وأعذب لفظا، وأقل حروفا؛ على أنه لا يعتبر إلا فى مقدار سورة أو أطول آية؛ لأن الكلام كلما طال اتسع فيه مجال المتصرف، وضاق المقال على القاصر المتكلف؛ وبهذا قامت الحجة على العرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة، ومظنة المعارضة؛ كما قامت الحجة فى معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء، ومعجزة موسى عليه السلام على السحرة ، فإن الله سبحانه إنما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون فى زمان النبي الذى أراد إظهاره ؛ فكان السحر فى زمان موسى عليه السلام قد انتهى إلى غايته ؛ وكذلك الطب فى زمن عيسى عليه السلام، والفصاحة فى زمن محمد صلى الله عليه وسلم .

باب التنبيه على أحاديث وضعت فى فضل سور القرآن وغيره

لا التفات لما وضعه الواضعون، واختلقه المختلقون، من الأحاديث الكاذبة، والأخبار الباطلة، فى فضل سور القرآن، وغير ذلك من فضائل الأعمال؛ قد ارتكبها جماعة كثيرة، اختلفت أغراضهم ومقاصدهم فى ارتكابها ؛ فمن قوم من الزنادقة؛ مثل : المغيرة بن سعيد الكوفى، ومحمد بن سعيد الشامى، المصلوب فى الزندقة، وغيرهما، وضعوا أحاديث وحدثوا بها ليوقعوا بذلك الشك فى قلوب الناس ؛ فما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك فى قوله صلى الله عليه وسلم : " أنا خاتم الأنبياء لا نبى بعدى إلا ما شاء الله "، فزاد هذا الاستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة . قلت : وقد ذكره ابن عبد البر فى كتاب (التمهيد) ولم يتكلم عليه؛ بل تأول الاستثناء على الرؤيا ؛ فالله أعلم .

ومنهم قوم وضعوا الحديث لهوى يدعون الناس إليه؛ قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب: إن هذه الأحاديث دين، فانظروا ممن تأخذون دينكم، فإنا كنا إذا هوينا أمرا صيرناه حديثا .

ومنهم جماعة وضعوا الحديث حسبة كما زعموا، يدعون الناس إلى فضائل الأعمال، كما روى عن أبى عصمة نوح بن أبى مريم المروزى ، ومحمد بن عكاشة الكرمانى ، وأحمد بن عبد الله الجويبارى[1]، وغيرهم . قيل لأبى عصمة : من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس فى فضل سور القرآن سورة سورة؟ فقال: إنى رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبى حنيفة، ومغازى محمد

(1) نسبة إلى جويبار.

ابن إسحاق، فوضعت هذا الحديث حسبة . قال أبو عمرو عثمان بن الصلاح فى كتاب (علوم الحديث) له : وهكذا الحديث الطويل الذى يروى عن أبى بن كعب ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى فضل القرآن سورة سورة، وقد بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه ، وإن أثر الوضع عليه لبين. وقد أخطأ الواحدى المفسر ومن ذكره من المفسرين فى إيداعه تفاسيرهم.

ومنهم قوم من السؤال والمكدين يقفون فى الأسواق والمساجد، فيضعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد ؛ قال جعفر ابن محمد الطيالسى : صلى أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، فى مسجد الرُّصَافَة، فقام بين أيديهما قاص فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا أنبأنا عبد الرزاق قال أنبأنا معمر عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال لا إله إلا الله يخلق من كل كلمة منها طائر، منقاره من ذهب وريشه مرجان؛ وأخذ فى قصة نحو من عشرين ورقة؛ فجعل أحمد ينظر إلى يحيى ويحيى ينظر إلى أحمد؛ فقال : أنت حدثته بهذا فقال : والله ما سمعت به إلا هذه الساعة؛ قال : فسكتا جميعا حتى فرغ من قصصه، فقال له يحيى : من حدثك بهذا الحديث؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين؛ فقال أنا ابن معين، وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كان ولا بد من الكذب فعلى غيرنا؛ فقال له :أنت يحيى بن معين؟ قال: نعم، قال: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، وما علمته إلا هذه الساعة؛ فقال له يحيى : وكيف علمت أنى أحمق؟ قال : كأنه ليس فى الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا؛ قال : فوضع أحمد كمه على وجهه وقال : دعه يقوم؛ فقام كالمستهزئ بهما؛ فهؤلاء الطوائف كذبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن يجرى مجراهم. يذكر : أن الرشيد كان يعجبه الحمام واللهو به ؛ فأهدى إليه حمام وعنده أبو البخترى القاضى، فقال : روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا سبق إلا فى خف أو حافر أو جناح" فزاد : "أو جناح"، وهى لفظة وضعها للرشيد، فأعطاه جائزة سنية ؛ فلما خرج قال الرشيد : والله لقد علمت أنه كذاب ، وأمر بالحمام أن يذبح؛ فقيل له :وما ذنب الحمام؟ قال: من أجله كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛

فترك العلماء حديثه لذلك، ولغيره من موضوعاته، فلا يكتب العلماء حديثه بحال .

قلت : فلو اقتصر الناس على ما ثبت فى الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التى تداولها العلماء، ورواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم فى ذلك غنية، وخرجوا عن تحذيره صلى الله عليه وسلم حيث قال: "اتقوا الحديث على(1) إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" — الحديث — ؛ فتخويفه صلى الله عليه وسلم أمته بالنار على الكذب، دليل على أنه كان يعلم أنه سيكذب عليه. فحذار مما وضعه أعداء الدين، وزنادقة المسلمين، فى باب الترغيب والترهيب وغير ذلك، وأعظمهم ضررا أقوام من المنسوبين إلى الزهد ، وضعوا الحديث حسبة فيما زعموا، فيقبل الناس موضوعاتهم، ثقة منهم بهم، وركونا اليهم، فضلوا وأضلوا .

باب ما جاء من الحجة فى الرد على من طعن فى القرآن وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان

لا خلاف بين الأمة، ولا بين الأئمة، أهل السنة، أن القرآن اسم لكلام الله تعالى الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم معجزة له ، على ما تقدم، وأنه محفوظ فى الصدور، مقروء بالألسنة، مكتوب فى المصاحف ؛ معلومة على الاضطرار سوره وآياته، مبرأة من الزيادة والنقصان حروفه وكلماته ؛ فلا يحتاج فى تعريفه بحد، ولا فى حصره بعد، فمن ادعى زيادة عليه، أو نقصانا منه، فقد أبطل الإجماع، وبهت الناس، ورد ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن المنزل عليه، ورد قوله تعالى : ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ وأبطل آية رسوله عليه السلام، لأنه إذ ذاك يصير القرآن مقدورا عليه، حين شيب بالباطل، ولما قدر عليه لم يكن حجة ولا آية، وخرج عن أن يكون معجزا .

فالقائل بأن القرآن فيه زيادة ونقصان راد لكتاب الله ولما جاء به الرسول، وكان كمن قال : الصلوات المفروضات خمسون صلاة، وتزوج تسع من النساء حلال، وفرض الله أياما مع شهر رمضان، الى غير ذلك مما لم يثبت فى الدين ، فإذا رد هذا بالإجماع ، كان الإجماع على القرآن أثبت وآكد وألزم وأوجب .

---

(1) فى الجامع الصغير : « عنى » .

قال الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارى : ولم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن ، وعلو منزلتـه ، ما يوجبه الحق والانصاف والديانة ، وينفون عنه قول المبطلين ، وتمويه الملحدين وتحريف الزائغين ، حتى نبع فى زماننا هذا زائغ زاغ عن الملة ، وهجم على الأمة بما يحاول به إبطال الشريعة التى لا يزال الله يؤيدها ، ويثبت أسها ، وينمى فرعها ، ويحرسها من معايب أولى الحيف والجور ، ومكايد أهل العداوة والكفر .

فزعم أن المصحف الذى جمعه عثمان رضى الله عنه ـ باتفاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تصويبه فيما فعل ـ لا يشتمل على جميع القرآن ، إذ كان قد سقط منه خمسمائة حرف ، قد قرأت ببعضها وسأقرأ ببقيتها ، فمنها : «والعصر ونوائب الدهر» فقد سقط من القرآن على جماعة المسلمين « ونوائب الدهر » ومنها : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ، فادعى هذا الإنسان أنه سقط على أهل الإسلام من القرآن : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ، وذكر مما يدعى حروفا كثيرة .

وادعى أن عثمان والصحابة رضى الله عنهم زادوا فى القرآن ما ليس فيه ، فقرأ فى صلاة الفرض والناس يسمعون : «الله الواحد الصمد» فأسقط من القرآن «قل هو» وغير لفظ «أحد» وادعى أن هذا هو الصواب والذى عليه الناس هو الباطل والمحال ، وقرأ فى صلاة الفرض : «قل للذين كفروا لا أعبد ما تعبدون » وطعن على قراءة المسلمين .

وادعى أن المصحف الذى فى أيدينا اشتمل على تصحيف حروف مفسدة مغيرة ، منها : ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فادعى أن الحكمة والعزة لا يشاكلان المغفرة ، وأن الصواب : «وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم» . وترامى به الغى فى هذا وأشكاله حتى ادعى أن المسلمين يصحفون : ﴿وكان عند الله وجيها﴾ والصواب الذى لم يغير عنده : «وكان عبد الله وجيها» ، وحتى قرأ فى صلاة مفترضة على ما أخبرنا جماعة سمعوه وشهدوه : « لا تحرك به لسانك إن علينا جمعه وقراءته فإذا قرأناه فاتبع قراءته ثم إن علينا نبأ به » ، وحكى لنا آخرون عن آخرين أنهم سمعوه يقرأ : « ولقد نصركم الله ببدر بسيف على وأنتم أذلة » ، وروى هؤلاء أيضا لنا عنه قال :

« هذا صراط علىّ مستقيم » ،وأخبرونا أنه أدخل فى آية من القرآن ما لا يضاهى فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يدخل فى لسان قومه الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ فقرأ : «أليس قلت للناس» فى موضع : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾ وهذا لا يعرف فى نحـو المعربين، ولا يحمل على مذاهب النحويين ؛ لأن العرب لم تقل : ليس قمت، فأما : لست قمت، بالتاء فشاذ قبيح خبيث ردىء ؛ لأن ليس لا تجحد الفعل الماضى، ولم يوجد مثل هذا إلا فى قولهم : أليس قد خلق الله مثلهم، وهو لغة شاذة لا يحمل كتاب الله عليها .

وادعى أن عثمان رضى الله عنه لما أسند جمع القرآن إلى زيد بن ثابت لم يصب لأن عبد الله ابن مسعود وأُبَىّ بن كعب كانا أولى بذلك من زيد لقول النبى صلى الله عليه وسلم: « أقرأ أمتى أُبَىّ ابن كعب» ولقوله عليه السلام : «من سره أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه بقراءة ابن أم عبد» ، وقال هذا القائل: لى أن أخالف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن العلاء، فقرأ : «إن هذين» ، «فأصدق وأكون » ، «وبشر عبادى الذين» بفتح الياء ، فما « آتانى الله » بفتح الياء، والذى فى المصحف: ﴿ إِنَّ هَٰذَانِ ﴾ بالألف ،﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن ﴾ بغير واو ،﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ ، ﴿ فَمَآ ءَاتَانِۦَ اللَّهُ ﴾ بغير ياءين، فى الموضعين . وكما خالف ابن كثير ونافع وحمزة والكسائى مصحف عثمان فقرءوا : ﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بإثبات نونين، يفتح الثانيـة بعضهم ويسكنها بعضهم، وفى المصحف نون واحدة، وكما خالف حمزة المصحف فقرأ : « أتمدونى بمال » بنون واحدة ووقف على الياء ، وفى المصحف نونان ولا ياء بعدهما ؛ وكما خالف حمزة أيضا المصحف فقرأ : «ألا إن ثمودا كفروا بربهم» بغير تنوين، وإثبات الألف يوجب التنوين؛ وكل هذا الذى شنع به على القراء ما يلزمهم به خلاف المصحف .

قلت : قد أشرنا إلى العد فيما تقدم مما اختلف فيه المصاحف، وسيأتى بيان هـذه المواضع فى مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر: وذكر هذا الإنسان أن أبىّ بن كعب هو الذى قرأ « كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » وذلك باطل ؛ لأن عبد الله بن كثير قرأ على مجاهد ، ومجاهد قرأ على ابن عباس، وابن عباس قرأ القرآن على أبىّ بن كعب ﴿ حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ

مُتَّصِلُ الآيَاتِ﴾، فى رواية وقرأ أبىّ القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وهذا الإسناد متصل بالرسول عليه السلام نقله أهل العدالة والصيانة ، وإذا صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر لم يؤخذ بحديث يخالفه ؛ وقال يحيى بن المبارك اليزيدى : قرأت القرآن على أبى عمرو بن العلاء ، وقرأ أبو عمرو على مجاهد، وقرأ مجاهد على ابن عباس ، وقرأ ابن عباس على أبىّ بن كعب ، وقرأ أبىّ على النبى صلى الله عليه وسلم ، وليس فيها « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » فمن جحد أن هذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيه عليه السلام فليس بكافر ولا آثم .

حدثنى أبى نبأنا نصر بن داود الصاغانى نبأنا أبو عبيد قال : ما يروى من الحروف التى تخالف المصحف الذى عليه الإجماع من الحروف التى يعرف أسانيدها الخاصة دون العامة فيما نقلوا فيه عن أبى : «وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها» ، وعن ابن عباس «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج » ، ومما يحكون عن عمر بن الخطاب أنه قرأ : « غير المغضوب عليهم وغير الضالين» مع نظائر لهذه الحروف كثيرة، لم ينقلها أهل العلم على أن الصلاة بها تحل، ولا على أنها معارض بها مصحف عثمان ؛ لأنها حروف لو جحدها جاحد أنها من القرآن لم يكن كافرا ؛ والقرآن الذى جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أنكر بعضه منكر كان كافرا ، حكمه حكم المرتد، يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه . وقال أبو عبيد : لم يزل صنيع عثمان رضى الله عنه فى جمعه القرآن يُعتد له بأنه من مناقبه العظام ؛ وقد طعن عليه فيه بعض أهل الزيغ فانكشف عواره ، ووضحت فضائحه ؛ وقال أبو عبيد : وقد حدثت عن يزيد بن زريع عن عمران بن جرير عن أبى مجلز قال : طعن قوم على عثمان رحمه الله بحمقهم جمع القرآن ، ثم قرءوا ما نسخ ؛ قال أبو عبيد : يذهب أبو مجلز إلى أن عثمان أسقط الذى أسقط بعلم كما أثبت الذى أثبت بعلم . قال أبو بكر : وفى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ دلالة على كفر هذا الانسان ؛ لأن الله عز وجل قد حفظ القرآن من التغيير والتبديل ، والزيادة والنقصان ؛ فاذا قرأ قارئ : «تبت يدى أبى لهب وقد تب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ومريته حمالة الحطب فى جيدها حبل من ليف» فقد كذب على الله جل وعلا وقوله ما لم يقل ، وبدل كتابه وحرفه ، وحاول ما قد حفظه منه ومنع من اختلاطه به ؛ وفى هذا الذى أتاه توطئة الطريق لأهل الإلحاد ، ليُدخلوا فى القرآن ما يحلون به عُرا الإسلام ، وينسبونه إلى قوم

كهؤلاء القوم الذين أحال هــذا بالأباطيل عليهم ؛ وفيه إبطال الإجمــاع الذى به يحرس الإسلام، وبثباته تقام الصلوات، وتؤدّى الزكوات، وتتحرّى المتعبّدات . وفى قول الله تعالى : ﴿ الۤر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ دلالةٌ على بدعة هــذا الانسان وخروجه إلى الكفر، لأن معنى « أحكمت آياته » : منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها، أو ينقصوا منها، أو يعارضوها بمثلها ، وقد وجدنا هذا الانسان زاد فيها وكفى الله المؤمنين القتال، بعلىّ وكان الله قويا عزيزا، فقال فى القرآن هجرا، وذكر عليا فى مكان لو سمعه يذكره فيه لأمضى عليه الحدّ، وحكم عليه بالقتل، وأسقط من كلام الله « قل هو» وغير أحد فقرأ الله الواحد الصمد وإسقاط ما أسقطه نفى له وكفر ، ومن كفر بحرف من القرآن فقد كفر به كلّه وأبطل معنى الآية؛ لأن أهل التفسير قالوا : نزلت الآية جوابا لأهل الشرك لمّا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صف لنا ربّك ؛ أمن ذهب أم من نحاس أم من صُفْر ؟ فقال الله جل وعز ردّا عليهم : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ففى هو دلالةٌ على موضع الردّ ومكان الجواب فإذا سقط بطل معنى الآية، ووضح الافتراء على الله عزّ وجلّ، والتكذيب لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ويقال لهذا الإنسان ومن ينتحل نصرته : أخبرونا عن القرآن الذى نقرؤه ولا نعرف نحن ولا مَن كان قبلنا من أسلافنا سواه؛ هل هو مشتمل على جميع القرآن من أوله إلى آخره ، صحيح الألفاظ والمعانى عارٍ من الفساد والخلل؟ أم هو واقع على بعض القرآن والبعض الآخر غائب عنا كما غاب عن أسلافنا والمتقدّمين من أهل ملتنا؟ فإن أجابوا بأن القرآن الذى معنا مشتمل على جميع القرآن لا يسقط منه شىء، صحيح اللفظ والمعانى، سليمها من كل زلل وخلل ؛ فقد قضوا على أنفسهم بالكفر حين زادوا فيه « فليس له اليوم ههنا حميم وليس له شراب إلا من غِسْلين من عين تجرى من تحت الجحيم» فأى زيادة فى القرآن أوضح من هذه، وكيف يخلط بالقرآن وقد حرسه الله منها ومنع كل مفتر ومبطل من أن يلحق به مثلها، وإذا تؤملت وبحث عن معناها وجدت فاسدة غير صحيحة، لا تشاكل كلام البارئ تعالى ولا تختلط به ، ولا توافق معناه، وذلك أن بعدها، «لا يأكله إلا الخاطئون» فكيف يؤكل الشراب والذى أتى به قبلها « فليس له اليــوم ههنا حميم وليس له شراب إلا من غسلين من عين تجرى من تحت الجحيم لا يأكله إلا الخاطئون» فهذا متناقض يفسد بعضه بعضا؛ لأن الشراب لا يؤكل، ولا تقول العرب : أكلت المــاء؛ لكنهم يقولون : شربته وذقتــه وطعمته؛ ومعناه فيما أنزل الله تبارك وتعالى على الصحة.

فى القرآن الذى من خالف حرفا منه كفر : ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ لا يأكل الغسلين إلا الخاطئون أو لا يأكل الطعام إلا الخاطئون . والغسلين : ما يخرج من أفواههم من الشحم وما يتعلق به من الصديد وغيره ؛ فهذا طعام يؤكل عند البلية والنقمة، والشراب محال أن يؤكل ، فإن ادّعى هذا الإنسان أن هذا الباطل الذى زاده من قوله «من عين تجرى من تحت الجحيم» ليس بعدها «ولا يأكله إلا الخاطئون» ونفى هذه الآية من القرآن لتصح له زيادته، فقد كفر لما جحد آية من القرآن . وحسبك بهذا كلّه ردّا لقوله، وخزيا لمقاله . وما يؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرءوا بكذا وكذا إنما ذلك على جهة البيان والتفسير لا أن ذلك قرآن يتلى، وكذلك ما نسخ لفظه وحكمه أو لفظه دون حكمه ليس بقرآن على ما يأتى بيانه عند قوله تعالى : ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ إن شاء الله تعالى .

القول فى الاستعاذة

وفيها اثنتا عشرة مسئلة :

الأولى — أمر الله تعالى بالاستعاذة عند أوّل كل قراءة فقال تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أى إذا أردت أن تقرأ؛ فأوقع الماضى موقعَ المستقبل كما قال الشاعر :

وإنى لآتيكم لذكرى الذى مضى * من الودّ واستئناف ما كان فى غد

أراد ما يكون فى غد ؛ وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، وأن كل فعلين تقاربا فى المعنى جاز تقديم أيهما شئت ، كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ المعنى فتدلى ثم دنا ؛ ومثله : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وهو كثير .

الثانية — هذا الأمر على الندب فى قول الجمهور وحكى النقّاش عن عطاء : إن الاستعاذة واجبة فى صدر كل قراءة فى غير الصلاة ؛ واختلفوا فيه فى الصلاة ، وكان ابن سيرين والنخَعِىّ وقوم يتعوّذون فى الصلاة فى كل ركعة ، ويمتثلون أمر الله فى الاستعاذة على العموم ؛ وأبو حنيفة والشافعى يتعوّذان فى الركعة الأولى من الصلاة ويريان قراءة الصلاة كلّها كقراءة واحدة ؛ ومالك لا يرى التعوّذ فى الصلاة المفروضة ويراه فى قيام رمضان .

الثالثة — أجمع العلماء على أن التعوّذ ليس من القرآن ولا آية منه ، وهو قول القارئ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ وهذا اللفظ هو الذى عليه الجمهور من العلماء فى التعوّذ لأنه لفظ كتاب الله

تعالى . وروى عن ابن مسعود أنه قال : قلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم؛ فقال لى النبيّ صلى الله عليه وسلم : « يابن أم عبد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأني جبريل عن اللوح عن القلم » .

الرابعة ــ روى أبو داود وابن ماجه في سننهما عن جبير بن مُطْعِم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة فقال عمرو[1] : لا أدرى أىّ صلاة هى ؟ فقال : الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا ، أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه؛ قال عمرو : همزه المُوتَة ، ونفثه الشعر ، ونفخه الكبر . وقال ابن ماجه : الموتة يعنى الجنون . والنفث : نفخ الرجل من فيه من غير أن يخرج ريقه . والكبر : التيه . وروى أبو داود عن أبى سعيد الخُدْرى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل كبّر ثم قال : «سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك» ثم يقول : «لا إله إلا الله ثلاثا» ؛ ثم يقول : «الله أكبر كبيرا ثلاثا أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» ؛ ثم يقرأ . وروى سليمان بن سالم عن ابن[2] القاسم رحمه الله : أن الاستعاذة أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم . قال ابن عطيّة : وأما المقرئون فأكثروا فى هذا من تبديل الصفة فى آسم الله تعالى ، وفى الجهة الأخرى ، كقول بعضهم : أعوذ بالله المجيد ، من الشيطان المريد ؛ ونحو هذا مما لا أقول فيه : نعمت البدعة ، ولا أقول : إنه لا يجوز .

الخامسة ــ قال المهدوىّ : أجمع القراء على إظهار الاستعاذة فى أول قراءة سورة "الحمد" إلا حمزة فإنه أسرّها . وروى السدىّ عن أهل المدينة : أنهم كانوا يفتتحون القراءة بالبسملة . وذكر أبو الليث السَّمَرْقَنْدىّ عن بعض المفسرين : أن التعوّذ فرض ، وإذا نسيه القارئ وذكره فى بعض الحزب قطع وتعوّذ ، ثم ابتدأ من أوله . وبعضهم يقول : يستعيذ ثم يرجع الى موضعه الذى وقف فيه ؛ وبالأول قال أسانيد الحجاز والعراق ؛ وبالثانى قال أسانيد الشام ومصر .

---

(١) لعله عمرو بن مرة المذكور فى سند هذا الحديث (انظر سنن بن ماجه ج ١ ص ١٣٩ وسنن أبى داود ج ١ ص ٧٧ طبع مصر) .

(٢) فى بعض النسخ : « أبى القاسم » .

السادسة — حكى الزهراوى قال : نزلت الآية فى الصلاة وندبنا إلى الاستعاذة فى غير الصلاة وليس بفرض؛ قال غيره : كانت فرضا على النبي صلى الله عليه وسلم وحده، ثم تأسينا به .

السابعة — رُوى عن أبى هُرَيْرة أن الاستعاذة بعد القراءة، وقاله داود . قال أبو بكر بن العربي انتهى العِيّ بقوم إلى أن قالوا : إذ افرغ القارئ من قراءة القرآن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . وقد روى أبو سعيد الخُدْرى : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يتعوّذ فى صلاته قبل القراءة، وهذا نصّ . فان قيل : فما الفائدة فى الاستعاذة من الشيطان الرجيم وقت القراءة؟ قلنا : فائدتها امتثال الأمر؛ وليس للشرعيّات فائدة إلا القيام بحقّ الوفاء لها بامتثالها أمرا واجتنابها نهيا؛ وقد قيل: فائدتها امتثال الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ . قال ابن العربي : ومن أغرب ما وجدناه قولُ مالك فى المجموعة فى تفسير هذه الآية : فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ قال : ذلك بعد قراءة أمّ القرآن لمن قرأ فى الصلاة . وهذا قول لم يرد به أثر، ولا يعضده نظر؛ فإن كان هذا كما قال بعض الناس : إن الاستعاذة بعد القراءة ، كان تخصيص ذلك بقراءة أمّ القرآن فى الصلاة دعوى عريضة، ولا يشبه أصل مالك ولا فهمه ؛ فالله أعلم بسرّ هذه الرواية .

الثامنة — فى فضل التعوّذ . رَوَى مُسلم عن سليمان بن صُرَد قال : استبّ رجلان عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فجعل أحدهما يغضب ويحمّر وجهه وتنتفخ أوداجُه ؛ فنظر إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" . فقام الى الرجل رجل سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال: هل تدرى ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم آنفا؟ قال "إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه ،أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". فقال له الرجل : أمجنونا ترانى ! أخرجه البخارى أيضا. وروى مسلم أيضا عن عثمان بن أبى العاص الثقفيّ : أنه أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتى ، وقراءتى يلبّسها علىّ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ذاك شيطان يقال له خنزب فاذا أحسسته فتعوّذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثا" قال : ففعلت فأذهبه الله عنى . وروى أبو داود عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سافر فأقبل عليه الليل قال : "يا أرض ربى وربك الله،

أعوذ بالله من شرك ومن شر ما خلق فيك ومن شر ما يدب عليك ومن أسد وأسود ومن الحية والعقرب ومن ساكني البلد ووالد وما ولد" . وروت خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من نزل منزلا ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرتحل " أخرجه في الموطأ ومسلم والترمذي وقال : حديث حسن غريب صحيح . وما يتعوذ منه كثير، ثابت في الأخبار، والله المستعان .

التاسعة ـ معنى الاستعاذة في كلام العرب الاستجارة، والتحيز الى الشيء، على معنى الامتناع به من المكروه، يقال : عذت بفلان واستعذت به ، أي لجأت اليه ، وهو عياذي ، أي ملجئي وأعذت غيري به وعوذته بمعنى، ويقال : عوذٌ بالله منك، أي أعوذ بالله منك، قال الراجز :

قالت وفيها حَيدةٌ وذُعرُ * عوذٌ بربي منكم وحُجْرُ

والعرب تقول عند الأمر [تنكره] (١) : حجرا له بالضم أي دفعا، وهو استعاذة من الأمر . والعوذة والمعاذة والتعويذ كله بمعنى، وأصل أعوذ : أعوذ نقلت الضمة الى العين لاستثقالها على الواو فسكنت .

العاشرة ـ الشيطان واحد الشياطين على التكسير والنون أصلية، لأنه من شطن إذا بعد عن الخير، وشيطنت داره أي بعدت، قال الشاعر (٢) :

نأت بسعادَ عنك نوًى شَطُونُ * فبانت والفؤادُ بها رهينُ

وبئر شطون أي بعيدة القعر . والشطن : الحبل، سمي به لبعد طرفيه وامتداده . ووصف أعرابي فرسا [لا يحفى] (٣) فقال : كأنه شيطان في أشطان . وسمي الشيطان شيطانا لبعده عن الحق وتمرده، وذلك أن كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان، قال جرير :

أيام يدعونني الشيطانَ من غزلٍ * وهنّ يهوينني إذ كنت شيطانا

وقيل : إن شيطانا مأخوذ من شاط يشيط إذا بطل فالنون زائدة . وشاط اذا احترق . وشيّطت اللحم، اذا دخنته ولم تُنضجه ، واشتاط الرجل ، إذا احتد غضبا . وناقة مِشياط التي يطير فيها السِّمَن . واشتاط، إذا هلك، قال الأعشى :

(١) الزيادة عن لسان العرب مادة (حجر) . (٢) هو النابغة الذبياني كما في لسان العرب مادة (شطن) .
(٣) الزيادة عن لسان العرب مادة (شطن) .

قد تخضب العير فى مكنون فائله (١) * وقد يشيط على أرماحنا البطل

أى يهلك .

ويُرَدّ على هذه الفرقة ، أن سيبويه حكى أن العرب تقول : تشيطن فلان اذا فعل أفعال الشياطين ، فهذا بيّن أنه تفيعل من شطن ولو كان من شاط لقالوا : تشيط ويرد عليهم أيضا بيت أمية ابن أبى الصلت :

أيما شاطن عصاه عكاه (٢) * ورماه فى السجن والأغلال

فهذا شاطن من شطن لاشك فيه .

الحادية عشرة — الرجيم أى المبعد من الخير المهان . وأصل الرجم : الرمى بالحجارة ، وقد رجمته أرجمه ، فهو رجيم ومرجوم . والرجم : القتل واللعن والطرد والشتم ، وقد قيل هذا كله فى قوله تعالى : ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ وقول أبى ابراهيم : ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ ، وسيأتى إن شاء الله تعالى .

الثانية عشرة — روى الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله قال : قال علىّ بن أبى طالب عليه السلام : رأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم عند الصفا وهو مقبل على شخص فى صورة الفيل وهو يلعنه ، قلت : ومن هذا الذى تلعنه يا رسول الله؟ قال : " هذا الشيطان الرجيم " فقلت : يا عدوّ الله والله لأقتلنك ولأريحنّ الأمة منك ؛ قال : ما هذا جزائى منك ؛ قلت : وما جزاؤك منى ياعدوّ الله؟ قال : والله ما أبغضك أحد قط إلا شركت أباه فى رحم أمه .

البسملة

وفيها سبع وعشرون مسئلة :

الأولى — قال العلماء : بسم الله الرحمن الرحيم ، قسم من ربنا أنزله عند رأس كل سورة ، يقسم لعباده : إن هذا الذى وضعت لكم ياعبادى فى هذه السورة حق ، وإنى أوفى لكم بجميع ما ضمنت فى هذه السورة من وعدى ولطفى وبرى . و" بسم الله الرحمن الرحيم " مما أنزله الله تعالى فى كتابنا وعلى

(١) الفائل : عرق فى الفخذين يكون فى خربة الورك . (٢) عكاه فى الحديد والوثاق إذا شده .

هذه الأمة خصوصا، بعد سليمان عليه السلام، وقال بعض العلماء: إن بسم الله الرحمن الرحيم تضمنت جميع الشرع، لأنها تدل على الذات وعلى الصفات، وهذا صحيح .

الثـانية ـــ قال سعيد بن أبي سكينة : بلغني أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه نظر الى رجل يكتب "بسم الله الرحمن الرحيم" فقال له : جوّدها فإن رجلا جوّدها فغفر له، قال سـعيد : وبلغني أن رجلا نظر إلى قرطاس فيه "بسم الله الرحمن الرحيم" فقبله ووضعه على عينيه فغفر له . ومن هذا المعنى قصة بِشْر الحافي فإنه لمـا رفع الرقعة التي فيها اسم الله وطيبها . طيب ٱسمه، ذكره القشيريّ . وروى النسائيّ عن أبي المليح عن ردف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تعس الشيطان فانه يتعاظم حتى يصير مثل البيت ويقول بقوّتي صنعته، ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم، فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب" . وقال علي ابن الحسين في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ قال معناه : إذا قلت "بسم الله الرحمن الرحيم" وروى وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله ابن مسعود قال : من أراد أن ينجيه الله من الزبانيـة التسعة عشر فليقرأ " بسم الله الرحمن الرحيم " ليجعل الله تعالى له بكل حرف منها جنة من كل واحد . فالبسملة تسعة عشر حرفا على عدد ملائكة أهل النار الذين قال الله فيهم : ﴿ عليها تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ وهم يقولون في كل أفعالهم : " بسم الله الرحمن الرحيم " فمن هنا لك هي قوتهم، و ببسم الله استضلعوا . قال ابن عطية : ونظير هـذا قولهم في ليلة القدر : إنها ليلة سبع وعشرين مراعاة للفظة هي من كلمات سورة إنا انزلناه . ونظيره أيضا قولهم في عدد الملائكة الذين ابتدروا قول القائل : ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، فإنها بضعة وثلاثون حرفا، فلذلك قال النبي صلى الله عليـه وسلم: " لقد رأيت بضعا وثلاثين ملكا يبتدرونهـا أيهم يكتبها أول" . قال ابن عطية : وهذا من ملح التفسير وليس من متين العلم .

الثالثة ـــ روى الشعبي والأعمش : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب "باسمك اللهم" حتى أمر أن يكتب " بسم الله " فكتبها، فلمـا نزلت : ﴿ قل آدعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ : كتب " بسم الله الرحمن " فلمـا نزلت : ﴿ إنه من سليمان وإنه بِسم اللهِ الرحمنِ الرحيم ﴾ كتبهـا . وفي مصنف أبي داود : قال الشعبي وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمارة : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة « النمل » .

الرابعة — روى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال : البسملة تيجان السور قلت : وهذا يدل على أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها .

وقد اختلف العلماء فى هذا المعنى على ثلاثة أقوال :

(الأول) ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها، وهو قول مالك .

(الثانى) أنها آية من كل سورة، وهو قول عبد الله بن المبارك .

(الثالث) قال الشافعى : هى آية فى الفاتحة ؛ وتردّد قوله فى سائر السور ؛ فمرّة قال : هى آية من كل سورة ، ومرّة قال : ليست بآية إلا فى الفاتحة وحدها . ولا خلاف بينهم فى أنها آية من القرآن فى سورة النمل .

واحتج الشافعى بما رواه الدارقطنى من حديث أبى بكر عبد الحميد بن جعفر الحنفى عن نوح ابن أبى بلال عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين، فاقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم ، إنها أم القرآن ، وأم الكتاب ، والسبع المثانى ، و بسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها » . رفع هذا الحديث عبد الحميد بن جعفر ، وعبد الحميد هذا وثقه أحمد بن حنبل ، ويحيى بن سعيد ، ويحيى بن معين ؛ وأبو حاتم يقول فيه : محله الصدق ؛ وكان سفيان الثورى يضعّفه ويحمل عليه . ونوح بن أبى بلال ثقة مشهور .

وحجة ابن المبارك وأحد قولى الشافعى ما رواه مسلم عن أنس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما ؛ فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله؟ قال : « نزلت علىّ آنفا سورة فقرأ » ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ . وذكر الحديث ؛ وسيأتى بكماله فى سورة الكوثر إن شاء الله تعالى .

الخامسة — الصحيح من هذه الأقوال قول مالك ؛ لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد وإنما طريقه التواتر القطعى الذى لا يختلف فيه . قال ابن العربى : ويكفيك أنها ليست من القرآن اختلاف الناس فيها ، والقرآن لا يختلف الناس فيه . والأخبار الصحاح التى لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها ، إلا فى النمل وحدها . روى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله عز وجل قسمت الصلاة بينى وبين عبدى

نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . قال الله تعالى حمدنى عبدى، و إذا قال العبد ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ . قال الله أثنى علىّ عبدى، و إذا قال العبد ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال مجدنى عبدى — وقال مرة فوّض إلىّ عبدى — و إذا قال ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . قال هذا بينى و بين عبدى، ولعبدى ما سأل، فاذا قال ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ . قال هؤلاء لعبدى، ولعبدى ما سأل » . فقوله سبحانه : قسمت الصلاة؛ يريد الفاتحة، وسماها صلاة، لأن الصلاة لا تصح إلا بها ؛ فجعل الثلاث الآيات الأول لنفسه؛ واختص بها تبارك آسمه، ولم يختلف المسلمون فيها . ثم الآية الرابعة جعلها بينه و بين عبده؛ لأنها تضمنت تذلل العبد وطلب الاستعانة منه؛ وذلك يتضمن تعظيم الله تعالى، ثم ثلاث آيات تتمة سبع آيات . ومما يدل على أنها ثلاث قوله : "هؤلاء لعبدى" أخرجه مالك؛ ولم يقل : "هاتان" فهـذا يدل على أن ﴿ أنعمت عليهم ﴾ آية . قال ابن بكير قال مالك :﴿ أنعمت عليهم﴾ آية، ثم الآية السابعة إلى آخرها . فثبت بهذه القسمة التى قسمها الله تعالى . وبقوله عليه السلام لأبى : « كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة » قال : فقرأت ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ حتى أتيت على آخرها : أن البسملة ليست بآية منها، وكذا عدّ أهل المدينة وأهل الشام وأهل البصرة ؛ وأكثر القرّاء عدّوا ﴿ أنعمت عليهم ﴾ آية ، وكذا روى قتادة عن أبى نضرة عن أبى هريرة قال : الآية السادسة ﴿ أنعمت عليهم ﴾ وأمّا أهل الكوفة من القرّاء والفقهاء فإنهم عدّوا فيها " بسم الله الرحمن الرحيم " ولم يعدّوا ﴿ أنعمت عليهم ﴾ .

فإن قيل : فانها ثبتت فى المصحف وهى مكتوبة بخطه ونقلت نقله، كما نقلت فى النمل؛ وذلك متواتر عنهم .

قلنا : ماذ كرتموه صحيح، ولكن لكونها قرآنا؟ أو لكونها فاصلة بين السور، كما روى عن الصحابة كنا لا نعرف انقضاء السورة حتى تنزل "بسم الله الرحمن الرحيم" أخرجه أبو داود . أو تبركا بها، كما قد اتفقت الأمة على كتبها فى أوائل الكتب والرسائل، كل ذلك محتمل. وقد قال الجريرى : سئل الحسن عن « بسم الله الرحمن الرحيم » قال : فى صدور الرسائل . وقال الحسن أيضا : لم تنزل « بسم الله الرحمن الرحيم » فى شىء من القرآن إلا فى طس ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ والفيصل

أن القرآن لا يثبت بالنظر والاستدلال ، و إنما يثبت بالنقل المتواتر القطعى الاضطرارى . ثم قد اضطرب قول الشافعى فيها فى أوّل كل سورة فدل على أنها ليست بآية من كل سورة، والحمد لله .

فإن قيل : فقد روى جماعة قرآنيتها، وقد تولى الدارقطنى جمع ذلك فى جزء صححه .

قلنا : لسنا ننكر الرواية بذلك وقد أشرنا اليها، ولنا أخبار ثابتة فى مقابلتها، رواها الأئمة الثقات والفقهاء الأثبات . روت عائشة فى صحيح مسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين، الحديث ، وسيأتى بكماله . وروى مسلم أيضا عن أنس بن مالك قال : صليت خلف النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر ، وعمر فكانوا يستفتحون بالحمد لله رَب العالمين؛ لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم لا فى أوّل قراءة ولا فى آخرها .

ثم إن مذهبنا يترجح فى ذلك بوجه عظيم ، وهو المعقول، وذلك أن مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة انقرضت عليه العصور، ومرت عليه الأزمنة والدهور، من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زمان مالك، ولم يقرأ أحد فيه قط « بسم الله الرحمن الرحيم » اتباعا للسنة . وهذا يردّ أحاديثكم؛

بيد أن أصحابنا استحبوا قراءتها فى النفل : وعليه تحمل الآثار الواردة فى قراءتها أو على السعة فى ذلك . قال مالك : ولا بأس أن يقرأ بها فى النافلة ومن يعرض القرآن عرضا .

وجملة مذهب مالك وأصحابه : أنها ليست عندهم آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها، ولا يقرأ بها المصلى فى المكتوبة ولا فى غيرها لا سرا ولا جهرا؛ ويجوز أن يقرأها فى النوافل . هذا هو المشهور من مذهبه عند أصحابه . وعنه رواية أخرى : أنها تقرأ أوّل السورة فى النوافل، ولا تقرأ أول أمّ القرآن . وروى عنه ابن نافع : ابتداء القراءة بها فى الصلاة الفرض والنفل ولا تترك بحال . ومن أهل المدينة من يقول : إنه لابدّ فيها من «بسم الله الرحمن الرحيم» منهم ابن عمر، وابن شهاب؛ وبه قال الشافعى، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور، وأبو عبيد . وهذا يدل على أن المسئلة مسئلة اجتهادية ، لا قطعية، كما ظنه بعض الجهال من المتفقهة الذى يلزم على قوله تكفير المسلمين؛ وليس كما ظنّ لوجود الاختلاف المذكور؛ والحمد لله .

وقد ذهب جمع من العلماء الى الإسرار بها مع الفاتحة، منهم: أبو حنيفة، والثورى؛ وروى ذلك عن عمر، وعلى، وابن مسعود، وعمار، وابن الزبير؛ وهو قول الحكم، وحماد؛ وبه قال أحمد بن حنبل

وأبو عبيد؛ وروى عن الأوزاعيّ مثل ذلك؛ حكاه أبو عمر بن عبد البرّ في «الاستذكار» . واحتجوا من الأثر في ذلك بما رواه منصور بن زاذان عن أنس بن مالك قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمعنا قراءة «بسم الله الرحمن الرحيم» . وما رواه عمار بن رزيق[(١)] عن الأعمش عن شعبة عن ثابت عن أنس قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وخلف أبي بكر، وعمر، فلم أسمع أحدا منهم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم .

قلت : هذا قول حسن وعليه تتفق الآثار عن أنس ولا تتضادّ، ويخرج به من الخلاف في قراءة البسملة . وقد روى عن سعيد بن جبير قال : كان المشركون يحضرون المسجد ، فاذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم » قالوا : هذا محمد يذكر رحمان اليمامة ـ يعنون مسيلمة ـ فأمر أن يخافت ببسم الله الرحمن الرحيم، ونزل : ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ . قال الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله : فبقى ذلك الى يومنا هذا على ذلك الرسم وإن زالت العلة، كما بقى الرَّمَل في الطواف وإن زالت العلة، وبقيت المخافتة في صلاة النهار وإن زالت العلة .

السادسة ـ اتفقت الأمة على جواز كتبها في أوّل كل كتاب من كتب العلم والرسائل، فإن كان الكتاب ديوان شعر ، فروى مجالد عن الشعبيّ قال : أجمعوا ألا يكتبوا أمام الشعر « بسم الله الرحمن الرحيم» وقال الزهريّ : مضت السنة ألا يكتبوا في الشعر « بسم الله الرحمن الرحيم » . وذهب الى رسم التسمية في أوّل كتب الشعر سعيد بن جبير، وتابعه على ذلك أكثر المتأخرين . قال أبو بكر الخطيب : وهو الذى نختاره ونستحبه .

السابعة ـ قال الماورديّ ويقال لمن قال : بسم الله مبسمل، وهى لغة مولدة . وقد جاءت في الشعر، قال عمر بن أبي ربيعة :

لقد بسملت ليلى غداة لقيتها * فيا حبذا ذاك الحبيب المبسمل

قلت : المشهور عن أهل اللغة بسمل . قال يعقوب بن السكيت والمطرز والثعالبيّ وغيرهم من أهل اللغة : بسمل الرجل، إذا قال : بسم الله . يقال : قد أكثرت من البسملة، أى من قول بسم الله . ومثله حوقل الرجل ، إذا قال : لا حول ولا قوّة إلا بالله . وهلل، إذا قال : لا إله

(١) كذا في تهذيب التهذيب . ورزيق بتقديم الراء على الزاى مصغرا . وفي الأصول : « عمار عن زريق وهو خطأ .

إلا الله . وسبحل، إذا قال: سبحان الله . وحمدل، إذا قال : الحمد لله . وحيصل، إذا قال: حيّ على الصلاة . وجعفل، إذا قال : جعلت فداك . وطبقل، إذا قال : أطال الله بقاءك . ودمعز، إذا قال : أدام الله عزك . وحيفل، إذا قال : حيّ على الفلاح . ولم يذكر المطرز : الحيصلة، إذا قال : حيّ على الصلاة .

الثامنة — ندب الشرع إلى ذكر البسملة فى أوّل كل فعل ، كالأكل والشرب والنحر والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال، قال الله تعالى : ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أغلق بابك واذكر اسم الله ، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وخمر إناءك واذكر اسم الله ، وأوك سقاءك واذكر اسم الله" وقال: "لو أنّ أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره شيطان أبدا" وقال لعمر بن أبى سلمة: "يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك" وقال : "إنّ الشيطان ليستحل الطعام إلا أن يذكر اسم الله عليه" وقال : "من لم يذبح فليذبح باسم الله" وشكا إليه عثمان بن أبى العاص وجعا يجده فى جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ضع يدك على الذى يألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر" . هذا كله ثابت فى الصحيح . وروى ابن ماجه والترمذى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ستر ما بين [أعين][1] الجن وعورات بنى آدم إذا دخل [أحدهم][1] الكنيف أن يقول بسم الله" . وروى الدرقطنى عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مس طهوره سمى الله تعالى، ثم يفرغ الماء على يديه .

التاسعة — قال علماؤنا : وفيها ردّ على القَدَرِيَّة وغيرهم ممن يقول : إن أفعالهم مقدورة لهم . وموضع الاحتجاج عليهم من ذلك : أن الله سبحانه أمرنا عند الابتداء بكل فعل أن نفتتح بذلك، كما ذكرنا .

فمعنى بسم الله أى بالله، ومعنى بالله أى بخلقه وتقديره يوصل إلى ما يوصل إليه . وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : معنى قوله، بسم الله يعنى بدأت بعون الله وتوفيقه

(١) الزيادة عن الجامع الصغير .

وبركته ؛ وهـذا تعليم من الله تعالى عباده ، ليذكروا اسمـه عند افتتاح القراءة وغيرها ، حتى يكون الافتتاح ببركة الله جل وعز .

العاشرة — ذهب أبو عبيدة معمر بن المثنى إلى أن « اسم » صلة زائدة، واستشهد بقول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السـلام عليكما * ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

فذكر اسم زيادة، وإنما أراد ثم السلام عليكما

وقد استدل علماؤنا بقول لبيد هذا على أن الاسم هو المسمى . وسيأتى الكلام فيه فى هذا الباب وغيره، إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة — اختلف فى معنى زيادة « اسم » ؛ فقـال قطرب : زيدت لإجلال ذكره تعالى وتعظيمه . وقال الأخفش : زيدت ليخرج بذكرها من حكم القسم إلى قصد التبرك ؛ لأن أصل الكلام بالله .

الثـانية عشرة — اختلفوا أيضـا فى معنى دخول الباء عليـه، هل دخلت على معنى الأمر؟ ؛ والتقدير: ابدأ بسم الله، أو معنى الخبر؟ والتقدير: ابتدأت بسم الله، قولان : الأول للفراء، والثانى للزجاج . فبسم فى موضع نصب على التأويلين . وقيل : المعنى ابتدائى بسم الله؛ فبسم الله فى موضع رفع خبر الابتداء . وقيل : الخبر محـذوف، أى ابتدائى مستقر أو ثابت بسم الله؛فاذا أظهرته كان بسم الله فى موضع نصب بثابت أو مستقر، وكان بمنزلة قولك: زيد فى الدار . وفى التنزيل :﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ فعنده فى موضع نصب،روى هذا عن نحاة أهل البصرة. وقيل التقدير، ابتدائى بسم الله موجود أو ثابت، فبسم فى موضع نصب بالمصدر الذى هو ابتدائى.

الثالثة عشرة — بسم الله، تكتب بغير ألف استغناء عنهـا بباء الإلصاق فى اللفظ والخط لكثرة الاستعمال ؛ بخلاف قوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ فانها لم تحذف لقلة الاستعمال . واختلفوا فى حذفها مع الرحمن والقاهر؛ فقال الكسائى وسعيد الأخفش ، تحذف الألف . وقال يحيى بن وثاب : لا تحذف إلا مع بسم الله فقط، لأن الاستعمال إنما كثر فيه .

الرابعـة عشرة — واختلف فى تخصيص باء الجر بالكسر على ثلاثة معان ؛ فقيل : ليناسب لفظها عملها . وقيل : لمـا كانت البـاء لا تدخل إلا على الأسمـاء خصت بالخفض الذى لا يكون

إلا فى الأسماء . الثالث : ليفرق بينها و بين ما قد يكون من الحروف اسما ، نحو الكاف فى قول الشاعر :

* ورحنا بكا بن الماء تجنب وسطنا *

أى بمثل ابن الماء أو ما كان مثله .

الخامسة عشرة — اسم، وزنه افع، والذاهب منه الواو، لأنه من سموت و جمعه أسماء وتصغيره سمى . واختلف فى تقدير أصله ، فقيل : فِعل، وقيل : فُعل . قال الجوهرى : وأسماء يكون جمعا لهذا الوزن، وهو مثل جذع وأجذاع، وقفل وأقفال، وهذا لاتدرك صيغته إلا بالسماع . وفيه أربع لغات : اسم بالكسر، واسم بالضم، قال أحمد بن يحيى : من ضم الألف أخذه من سموت أسمو ، ومن كسر أخذه من سميت أسمى . ويقال : سِمٌ وسُمٌ وينشد :

والله أسماك سما مباركا * آثرك الله به إيثاركا

وقال آخر :

وعامنا أعجبنا مُقَدَّمُه * يدعى أبا السمح وقِرضاب سُمه

* مبتركا[1] لكل عظم يلحمه *

قَرضَبَ الرجل : إذا أكل شيئا يابسا فهو قرضاب . سمه بالضم والكسر جميعا .

ومنه قول الآخر :

* باسم الذى فى كل سورة سِمه *

وسكنت السين من بسم اعتلالا[2] على غير قياس، وألفه ألف وصل، وربما جعلها الشاعر ألف قطع للضرورة، كقول الأحوص :

وما أنا بالمخسوس فى جِذم مالك * ولامن تسمى ثم يلتزم الإسما

السادسة عشرة — تقول العرب فى النسب إلى الاسم : سُمَوِىٌّ، و إن شئت : اسمى تركته على حاله ، وجمعه أسماء، و جمع الأسماء أسام . وحكى الفراء : أعيذك بأسماوات الله .

---

(١) التصويب عن اللسان مادة « برك، سما » . ورجل مبترك : معتمد على الشىء ملح و يلحمه : ينزع عنه اللحم .

(٢) كان الأصل اسم نقلت حركة الهمزة الى السين ثم حذفت الهمزة ولما وصلت الباء به سكنت السين تخفيفا .

السابعة عشرة ــ اختلفوا فى اشتقاق الاسم على وجهين؛ فقال البصريون : هو مشتق من السمو وهو العلو والرفعة، فقيل اسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به . وقيل لأن الاسم يسمو بالمسمى فيرفعه عن غيره . وقيل انما سمى الاسم اسما لأنه علا بقوته على قسمى الكلام : الحرف والفعل؛ والاسم أقوى منهما بالاجماع لأنه الأصل؛ فلعلوه عليهما سمي اسما؛ فهذه ثلاثة أقوال .

وقال الكوفيون : إنه مشتق من السِّمَة وهى العلامة ، لأن الاسم علامة لمن وضع له ؛ فأصل اسم على هذا «وسم» والأوّل أصح، لأنه يقال فى التصغير سمى وفى الجمع أسماء؛ والجمع والتصغير يردّان الأشياءَ إلى أصولها ؛ فلا يقال : : وسيم ولا أوسام . ويدل على صحته أيضا فائدة الخلاف وهى :

الثامنة عشرة ــ فإن من قال الاسم مشتق من العلوّ يقول : لم يزل الله سبحانه موصُوفا قبل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فنائهم، ولا تأثير لهم فى أسمائه ولا صفاته؛ وهذا قول أهل السنة. ومن قال الاسم مشتق من السمة يقول : كان الله فى الأزل بلا اسم ولا صفة ، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات، فاذا أفناهم بقى بلا اسم ولا صفة؛ وهذا قول المعتزلة وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة؛ وهو أعظم فى الخطإ من قولهم : إن كلامه مخلوق ، تعالى الله عن ذلك ، وعلى هذا الخلاف وقع الكلام فى الاسم والمسمى وهى :

التاسعة عشرة ــ فذهب أهل الحق فيما نقل القاضى أبو بكر بن الطيب : إلى أن الاسم هو المسمى وارتضاه ابن فورك؛ وهو قول أبى عبيدة وسيبويه . فإذا قال قائل : الله عالم، فقوله دال على الذات الموصوفة بكونه عالما ، فالاسم كونه عالما وهو المسمى بعينه . وكذلك إذا قال : الله خالق، فالخالق هو الرب، وهو بعينه الاسم . فالاسم عندهم هو المسمى بعينه من غير تفصيل .

قال ابن الحصار : من ينفى الصفات من المبتدعة يزعم أن لامدلول للتسميات إلا الذات . ولذلك يقولون : الاسم غير المسمى، ومن يثبت الصفات يثبت للتسميات مدلولات هى أوصاف الذات وهى غير العبارات وهى الأسماء عندهم . وسيأتى لهذه مزيد بيان فى البقرة والأعراف إن شاء الله تعالى .

الموفية عشرين ــ قوله : ﴿الله﴾ هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها، حتى قال بعض العلماء : إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره؛ ولذلك لم يثن ولم يجمع؛ وهو أحد تأويلى قوله تعالى:

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أى من تسمى باسمه الذى هو "الله" . فالله اسم للوجود الحق الجامع لصفات الإلهية ، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيق، لا إله الا هو سبحانه . وقيل: معناه الذى يستحق أن يعبد . وقيل : معناه واجب الوجود الذى لم يزل ولا يزال؛ والمعنى واحد .

الحادية والعشرون — واختلفوا فى هذا الاسم ،هل هو مشتق؟ أو موضوع للذات، علم . فذهب إلى الأول كثير من أهل العلم . واختلفوا فى اشتقاقه وأصله . فروى سيبويه عن الخليل : أن أصله إلاه، مثل فِعال فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة . قال سيبويه : مثل الناس أصله أناس . وقيل : أصل الكلمة "لاه" وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم، وهذا اختيار سيبويه . وأنشد :

لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب * عنى ولا أنت ديانى فتخزونى

كذا الرواية : فتخزونى، بالخاء المعجمة ومعناه : تسوسنى .

وقال الكسائى والفراء : معنى بسم الله؛ بسم الاله ؛ فحذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى فى الثانية فصارتا لاما مشددة كما قال عز وجل : ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى﴾ ومعناه : لكن أنا ، كذلك قرأها الحسن . ثم قيل هو مشتق من « وله » إذا تحير، والوله : ذهاب العقل . يقال: رجل واله وامرأة والهة ووالهِ ، وماء موله : أرسل فى الصحارى . فالله سبحانه تتحير الألباب وتذهب فى حقائق صفاته والفكر فى معرفته . فعلى هذا أصل " إلاه " « وِلاه » . وأن الهمزة مبدلة من واو كما أبدلت فى إشاح ووشاح، وإسادة ووسادة . وروى عن الخليل، وروى عن الضحاك أنه قال : إنما سمى "الله" إلها ، لأن الخلق يتألهون إليه فى حوائجهم، ويتضرعون اليه عند شدائدهم . وذكر عن الخليل بن أحمد أنه قال : لأن الخلق يأَلهون اليه بنصب اللام ويأْلِهون أيضا بكسرها وهما لغتان . وقيل : إنه مشتق من الارتفاع ، فكانت العرب تقول لكل شىء مرتفع : لاها ، فكانوا يقولون إذا طلعت الشمس : لاهت . وقيل : هو مشتق من أله الرجل إذا تعبد . وتأله إذا تنسك . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ﴾ : على هذه القراءة ؛ فان ابن عباس وغيره قالوا : وعبادتك .

قالوا : فاسم الله مشتق من هذا، فالله سبحانه معناه : المقصود بالعبادة، ومنه قول الموحدين : لا إله الا الله، معناه : لا معبود غير الله . وإلا فى الكلمة بمعنى غير، لا بمعنى الاستثناء . وزعم

بعضهم أن الأصل فيه «الهاء» التي هي الكناية عن الغائب، وذلك أنهم أثبتوه موجودا في فطر عقولهم فأشاروا إليه بحرف الكناية ثم زيدت فيه لام الملك إذ قد علموا أنه خالق الأشياء ومالكها فصار «له» ثم زيدت فيه الألف واللام تعظيما وتفخيما .

القول الثاني : ذهب إليه جماعة من العلماء أيضا منهم الشافعيّ، وأبو المعالي، والخطابي، والغزالي، والمفضل، وغيرهم . وروى عن الخليل وسيبويه : أن الألف واللام لازمة له لايجوز حذفهما منه . قال الخطابي : والدليل على أن الألف واللام من بنية هذا الاسم، ولم يدخلا للتعريف : دخول حرف النداء عليه، كقولك : يا ألله، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام للتعريف ؛ ألا ترى أنك لا تقول : يا الرحمن ولا يا الرحيم، كما تقول : يا ألله فدل على أنهما من بنية الاسم . والله أعلم .

الثانية والعشرون — واختلفوا أيضا في اشتقاق اسم الرحمن . فقال بعضهم : لا اشتقاق له، لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه، ولأنه لو كان مشتقا من الرحمة لاتصل بذكر المرحوم، فجاز أن يقال : الله رحمن بعباده، كما يقال : رحيم بعباده . وأيضا لو كان مشتقا من الرحمة لم تنكره العرب حين سمعوه، إذ كانوا لاينكرون رحمة ربهم، وقد قال الله عز وجل : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ الآية . ولما كتب عليّ رضي الله عنه في صلح الحديبية بأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم، قال سهيل بن عمرو : ما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم ! ولكن اكتب ما نعرف : باسمك اللهم، الحديث . قال ابن العربي : إنما جهلوا الصفة دون الموصوف، واستدل على ذلك بقوله : وما الرحمن؟ ولم يقولوا : ومن الرحمن؟ قال ابن الحصار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الآية الأخرى : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ . وذهب الجمهور من الناس الى أن الرحمن مشتق من الرحمة مبنيّ على المبالغة؛ ومعناه ذو الرحمة الذي لانظير له فيها، فلذلك لا يثنى ولا يجمع كما يثنى الرحيم ويجمع . قال ابن الحصار : ومما يدل على الاشتقاق ما خرّجه الترمذيّ وصححه عن عبد الرحمن بن عوف، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله عز وجل أنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها اسما من اسمي ؛ فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته" وهذا نص في الاشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق، وإنكار العرب له لجهلهم بالله وما وجب له .

الثالثة والعشرون — زعم المبرّد فيما ذكر ابن الأنبارى فى كتاب « الزاهر » له : أن الرحمن اسم عبرانىّ فجاء معه بالرحيم . وأنشد :

لن تُدرِكوا المجدَ أو تشروا عباءكم * بالخزّ أو تجعلوا اليَنْبوتَ ضَمْرانا

أو تتركون الى القسَّين هِجْرتكم * ومَسْحكم صُلْبهم رَحْمان قُربانا

قال أبو اسحاق الزجاج فى معانى القرآن : وقال أحمد بن يحيى : الرحيم عربىّ والرحمن عبرانىّ، فلهذا جمع بينهما . وهذا القول مرغوب عنه .

وقال أبو العباس : النعت قد يقع للمدح كما تقول : قال جرير الشاعر . وروى مطرّف عن قتادة . فى قول الله عز وجل : بسم الله الرحمن الرحيم قال : مدح نفسه . قال أبو إسحاق : وهذا قول حسن . وقال قطرب : يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد . قال أبو اسحاق : وهذا قول حسن ، وفى التوكيد أعظم الفائدة . وهو كثير فى كلام العرب، ويستغنى عن الاستشهاد ، والفائدة فى ذلك ما قاله محمد بن يزيد : إنه تفضل بعد تفضل، وإنعام بعد إنعام، وتقوية لمطامع الراغبين، ووعد لا يخيب آمله .

الرابعة والعشرون — واختلفوا هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين؟ فقيل : هما بمعنى واحد كندْمان ونديم . قاله أبو عبيدة : وقيل : ليس بناء فَعلان كفَعيل ، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك : رجل غضبان، للممتلئ غضبا. وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول . قال عملس[(1)] :

فأما إذا عضت بك الحرب عضة * فإنك معطوف عليك رحيم

فالرحمن خاص الاسم عام الفعل . والرحيم عام الاسم خاص الفعل . هذا قول الجمهور .

قال أبو علىّ الفارسىّ : الرحمن اسم عام فى جميع أنواع الرحمة ، يختص به الله ، والرحيم إنما هو فى جهة المؤمنين كما قال تعالى : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾[(2)] . وقال العرزمىّ : الرحمن لجميع خلقه فى الأمطار ونعم الحواس والنعم العامة . والرحيم بالمؤمنين فى الهداية لهم ، واللطف بهم . وقال ابن المبارك : الرحمن إذا سئل أعطى ، والرحيم إذا لم يسئل غضب . وروى ابن ماجه فى سننه والترمذىّ فى جامعه

---

(1) هو عملس بن عقيل كما فى لسان العرب مادة رحم .

(2) هو عبد الملك بن أبى سليمان العرزمىّ كما فى الخلاصة .

عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لم يسأل الله يغضب عليه». لفظ الترمذي. وقال ابن ماجه: «من لم يدع الله غضب عليه» وقال: سألت أبا زرعة عن أبي صالح هذا، فقال: هو الذي يقال له: الفارسي وهو خوزي(١) ولا أعرف اسمه. وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

الله يغضب إن تركت سؤاله * وبني آدم حين يسئل يغضب

وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر أي أكثر رحمة.

قال الخطابي: وهذا مشكل، لأن الرقة لا مدخل لها في شيء من صفات الله تعالى. وقال الحسين بن الفضل البجلي: هذا وهم من الراوي، لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى في شيء، وإنما هما اسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر، والرفق من صفات الله عز وجل قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف».

الخامسة والعشرون ــ أكثر العلماء على أن الرحمن مختص بالله عز وجل، لا يجوز أن يسمى به غيره، ألا تراه قال: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ فعادل الاسمَ الذي لا يشركه فيه غيره. وقال: ﴿ وَٱسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ فأخبر أن الرحمن هو المستحق للعبادة جل وعز. وقد تجاسر مسيلمة الكذاب لعنه الله، فتسمى برحمان اليمامة وما قرع مسامعه، حتى ألزمه الله تعالى نعت الكذاب لذلك، وإن كان كل كافر كاذبا، فقد صار هذا الوصف لمسيلمة علما يعرف به، ألزمه الله اياه. وقد قيل في اسمه الرحمن: إنه اسم الله الأعظم، ذكره ابن العربي.

السادسة والعشرون ــ الرحيم صفة مطلقة للمخلوقين، ولما في الرحمن من العموم، قدم في كلامنا على الرحيم، مع موافقة التنزيل، قاله المهدوي. وقيل: إن معنى الرحيم أي بالرحيم وصلتم إلى الله وإلى الرحمن، فالرحيم نعت محمد صلى الله عليه وسلم، وقد نعته تعالى بذلك فقال: ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فكأن المعنى أن يقول: بسم الله الرحمن وبالرحيم، أي وبمحمد صلى الله عليه وسلم وصلتم إلي، أي باتباعه وبما جاء به وصلتم إلى ثوابي وكرامتي والنظر إلى وجهي والله أعلم.

---

(١) نسبة الى خوزستان بلاد بين فارس والبصرة وفي بعض النسخ خوري بالراء المهملة نسبة الى خور قرية ببلخ.

السابعة والعشرون — روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال فى قوله : بسم الله شفاء من كل داء، وعون على كل دواء، وأما الرحمن، فهو عون لكل من آمن به، وهو اسم لم يسم به غيره، وأما الرحيم، فهو لمن تاب وآمن وعمل صالحا .

وقد فسره بعضهم على الحروف ؛ فروى عن عثمان ابن عفان : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير بسم الله الرحمن الرحيم، فقال : أما الباء فبلاء الله وروحه ونصره وبهاؤه، وأما السين فسناء الله . وأما الميم فملك الله ، وأما الله ، فلا إله غيره وأما الرحمن ، فالعاطف على البرّ والفاجر من خلقه ، وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة . وروى عن كعب الأحبار أنه قال : الباء بهاؤه ، والسين سناؤه فلا شىء أعلى منه، والميم ملكه، وهو على كل شىء قدير، فلا شىء يعازّه . وقد قيل : إن كل حرف هو افتتاح اسم من أسمائه ، فالباء مفتاح اسمه بصير، والسين مفتاح اسمه سميع، والميم مفتاح اسمه مليك ، والألف مفتاح اسمه الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والهاء مفتاح اسمه هادى، والراء مفتاح اسمه رازق ، والحاء مفتاح اسمه حليم، والنون مفتاح اسمه نور ، ومعنى هذا كله دعاء الله تعالى عند افتتاح كل شىء .

الثامنة والعشرون — واختلف فى وصل الرحيم بالحمد لله، فروى عن أم سلمة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، الرحيم بتسكين الميم ويقف عليها ؛ ويبتدئ بألف مقطوعة، وقرأ به قوم من الكوفيين، وقرأ جمهور الناس الرحيم الحمد، يعرب الرحيم بالخفض ويوصل الألف من الحمد . وحكى الكسائىّ عن بعض العرب أنها تقرأ الرحيم الحمد ، بفتح الميم وصلة الألف كأنها سكنت الميم وقطعت الألف ثم ألقيت حركتها على الميم وحذفت . قال ابن عطية : ولم ترو هذه قراءةً عن أحد فيما علمت . وهذا نظر يحيى بن زياد فى قوله تعالى الم الله .

تفسير سورة الفاتحة

بحول الله وكرمه، وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

فى فضائلها وأسمائها وفيه سبع مسائل

الأولى — روى الترمذى عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أمّ القرآن، وهى السبع المثانى، وهى مقسومة[1] بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل" أخرج مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب: أن أبا سعيد مولى [ابن] عامر بن كريز أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى أُبَىَّ بن كعب وهو يصلى، فذكر الحديث. قال ابن عبد البر: أبو سعيد لا يوقف له على اسم وهو معدود فى أهل المدينة، روايته عن أبى هريرة وحديثه هذا مرسل؛ وقد روى هذا الحديث عن أبى سعيد بن المعلى رجل من الصحابة لا يوقف على اسمه أيضا، رواه عنه حفص بن عاصم، وعبيد بن حنين.

قلت: كذا قال فى التمهيد: لا يوقف له على اسم. وذكر فى كتاب الصحابة الاختلاف فى اسمه. والحديث خرجه البخارى عن أبى سعيد بن المعلى قال: كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله إنى كنت أصلى؛ فقال: ألم يقل الله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ ثم قال: "إنى لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد" ثم أخذ بيدى فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن؛ قال: "الحمد لله رب العالمين، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته". قال ابن عبد البر وغيره: أبو سعيد بن المعلى من جلة الأنصار، وسادات الأنصار، تفرد به البخارى، واسمه رافع ويقال: الحارث بن نفيع بن المعلى، ويقال: أوس بن المعلى، ويقال: أبو سعيد بن أوس بن المعلى؛ توفى سنة أربع وسبعين وهو ابن أربع وستين [سنة][2]، وهو أوّل من صلى إلى القبلة

---

(١) لعل هنا سقطا بينه ما رواه مسلم عن أبى هريرة «يقول الله تعالى قسمت الصلاة (أى الفاتحة) بينى وبين عبدى».

(٢) قال فى الاصابة وهو خطأ فانه يستلزم أن تكون قصته مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو صغير وسياق الحديث يأبى ذلك.

كتاب الشعب

تفسير القرطبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

خيركم من علم القرآن وعلمه

حديث شريف

٢

دار الشعب

٩٢ شارع قصر العيني القاهرة ت: ٢١٨١٠

اذا كان ((**القرطبي**)) سيجلد فى مجلد واحد فتنزع هذه الورقة

حين حولت . وسيأتى . وقد أسند حديث أُبَىّ يزيد بن زريع قال : حدثنا رَوْحُ بن القاسم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أُبَىّ وهو يصلى، فذكر الحديث بمعناه .

وذكر ابن الأنبارى فى كتاب الرد له : حدثنى أبى حدثنى أبو عبيد الله الوراق حدثنا أبو داود، حدثنا شيبان عن منصور عن مجاهد قال : إن إبليس لعنه الله رنّ أربع رنات، حين لعن ، وحين أهبط من الجنة، وحين بعث محمد صلى الله عليه وسلم، وحين نزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة.

الثانية — اختلف العلماء فى تفضيل بعض السور والآى على بعض،وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض . فقال قوم : لافضل لبعض على بعض، لأن الكلام كلام الله ، وكذلك أسماؤه لامفاضلة بينها؛ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعرى، والقاضى أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حبان البستى، وجماعة من الفقهاء . وروى معناه عن مالك قال يحيى بن يحيى : تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ، وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردّد دون غيرها . وقال عن مالك فى قول الله تعالى : ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾. قال: محكمة مكان منسوخة . وروى ابن كنانة مثل ذلك كله عن مالك . واحتج هؤلاء بأن قالوا : إن الأفضل يشعر بنقص المفضول، والذاتية فى الكل واحدة، وهى كلام الله ، وكلام الله تعالى لا نقص فيه . قال البستى : ومعنى هذه اللفظة (ما فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن) ، أن الله تعالى لا يعطى لقارئ التوراة والانجيل مثل ما يعطى لقارئ أم القرآن، إذ الله بفضله فضل هذه الأمة على غيرها من الأمم، وأعطاها من الفضل على قراءة القرآن كلامه، أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضل منه لهذه الأمة . قال : ومعنى قوله : أعظم سورة، أراد به فى الأجر لا أن بعض القرآن أفضل من بعض. وقال قوم بالتفضيل، وأن ما تضمنه قوله تعالى : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ وآية الكرسى، وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيته وصفاته ليس موجودا مثلا فى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ وما كان مثلها .

والتفضيل إنما هو بالمعانى العجيبة وكثرتها، لا من حيث الصفة، وهذا هو الحق . وممن قال بالتفضيل اسحاق بن راهويه ،وغيره من العلماء والمتكلمين،وهو اختيار القاضى أبى بكر بن العربى،وابن

الحصار لحديث أبي سعيد بن المعلى وحديث أبيّ بن كعب أنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أبيّ أيّ آية معك في كتاب الله أعظم" قال : فقلت : ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قال : فضرب في صدري وقال : "ليهنك العلم يا أبا المنذر" أخرجه البخاري ومسلم .

قال ابن الحصار : عجبي ممن يذكر الخلاف مع هـذه النصوص .

وقال ابن العربي : قوله : "ما أنزل الله في التوراة ولا في الانجيل ولا في القرآن مثلها" وسكت عن سائر الكتب، كالصحف المنزلة والزبور وغيرها؛ لأن هذه المذكورة أفضلها، وإذا كان الشيء أفضل الأفضل، صار أفضل الكل، كقولك زيد أفضل العلماء، فهو أفضل الناس .

وفي الفاتحـة من الصفات ما ليس لغيرها حتى قيـل : إن جميع القـرآن فيها . وهي خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن . ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبـده، ولا تصح القربة إلا بها، ولا يلحق عمل بثوابها، وبهذا المعنى صارت أم القرآن العظيم، كما صارت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، إذ القرآن توحيد وأحكام، ووعظ، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها التوحيـد كله، وبهذا المعنى وقع البيان في قوله عليه السـلام لأبيّ : "أي آية في القرآن أعظم" قال : ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ . وإنمـا كانت أعظم آية لأنها توحيد كلها كما صار قوله : "أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له" أفضل الذكر، لأنها كلمات حوت جميع العلوم في التوحيـد، والفاتحة تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتـذكير ولا يستبعد ذلك في قدرة الله تعالى .

الثالثـة ـــ روى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فاتحة الكتاب، وآية الكرسي، وشَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ، وقُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ، هذه الآيات معلقات بالعرش، ليس بينهن وبين الله حجاب" . أسنده أبو عمرو الداني في كتاب (البيان) له .

الرابعة ـــ في أسمائها وهي اثنا عشر اسما :

(الأول) الصلاة، قال الله[(1)] تعالى : "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين" الحديث وقد تقدم .

---

(1) أي في الحديث القدسي .

(الثـانى) الحمد، لأن فيها ذكر الحمد كما يقال : سورة الأعراف، والأنفال، والتوبة، ونحوها.

(الثالث) فاتحة الكتاب، من غير خلاف بين العلمـاء، وسميت بذلك لأنه تفتتح قراءة القرآن بها لفظا، وتفتتح بها الكتابة فى المصحف خطا، وتفتتح بها الصلوات .

(الرابع) أم الكتاب ، و فى هذا الاسم خلاف، جوّزه الجمهور ، وكرهه أنس ، والحسن ، وابن سيرين، قال الحسن : أم الكتاب الحلال والحرام، قال الله تعالى : ﴿ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ . وقال أنس، وابن سيرين : أم الكتاب اسم اللوح المحفوظ . قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ .

(الخامس) أم القرآن، واختلف فيه أيضا، فجوّزه الجمهور، وكرهه أنس، وابن سيرين، والأحاديث الثابتة تردّ هذين القولين . روى الترمذى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الحمد لله أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثانى» قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى البخارى قال : وسميت أم الكتاب لأنه يبتدأ بكتابتها فى المصاحف، ويبـدأ بقراءتها فى الصلاة . وقال يحيى ابن يعمر : أم القـرى مكة . وأم خراسان : مَرْوُ . وأم القرآن : سورة الحمد . وقيل : سميت أم القرآن لأنها أوّله ومتضمنة لجميع علومه، وبه سميت مكة أم القرى لأنها أوّل الأرض ومنها دحيت، ومنه سميت الأم أمّا لأنها أصل النسل، والأرض أمّا، فى قول أمية بن أبى الصّلت :

فالأرض معقلنا وكانت أمنا * فيهـا مقابرنا وفيهـا نولد

ويقال لراية الحرب : أم، لتقدمها واتباع الجيش لها . وأصل أم أمهة، ولذلك يجمع على أمهات قال الله تعالى : ﴿وأمهاتكم﴾ . ويقال : أمات بغير هاء . قال :

* فرجت الظلام بأماتكا *

وقيل : إن أمهات فى الناس، وأمات فى البهائم، حكاه ابن فارس فى المجمل .

(السادس) المثانى ، سميت بذلك لأنها تثنى فى كل ركعة . وقيل : سميت بذلك لأنها استثنيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذخرا لها .

(السابع) القرآن العظيم، سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن، وذلك أنها تشتمل على الثناء على الله عز وجل بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها، والاعتراف بالعجز

عن القيام بشيء منها إلا بإعانته تعالى ، وعلى الابتهال اليه ، فى الهداية الى الصراط المستقيم ، وكفاية أحوال الناكثين ، وعلى بيان عاقبة الجاحدين .

(الثامن) الشفاء ، روى الدارمى (١) عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فاتحة الكتاب شفاء من كل سم » .

(التاسع) الرقية ، ثبت ذلك من حديث أبى سعيد الخدرى وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للرجل الذى رقى سيد الحى : « ما أدراك أنها رقية » فقال : يا رسول الله شيء ألقى فى رُوعى . الحديث خرجه الأئمة وسيأتى بتمامه .

(العاشر) الأساس ، شكا رجل الى الشعبى وجع الخاصرة ، فقال : عليك بأساس القرآن فاتحة الكتاب . سمعت ابن عباس يقول : لكل شيء أساس ، وأساس الدنيا مكة ، لأنها منها دحيت ، وأساس السموات غريب ، وهى السماء السابعة ، وأساس الأرض عجيب ، وهى الأرض السابعة السفلى ، وأساس الجنان جنة عدن ، وهى سرة الجنان عليها أسست الجنة ، وأساس النار جهنم ، وهى الدركة السابعة السفلى عليها أسست الدركات ، وأساس الخلق آدم ، وأساس الأنبياء نوح ، وأساس بنى إسرائيل يعقوب ، وأساس الكتب القرآن ، وأساس القرآن الفاتحة ، وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم ، فإذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة تشفى .

(الحادى عشر) الوافية قاله سفيان بن عيينة : لأنها لا تتنصف ولا تحتمل الاختزال ، ولو قرأ من سائر السور نصفها فى ركعة ، ونصفها الآخر فى ركعة ، لأجزأ ، ولو نصفت الفاتحة فى ركعتين لم يجز .

(الثانى عشر) الكافية ، قال يحيى بن أبى كثير : لأنها تكفى عن سواها ولا يكفى سواها عنها . يدل عليه ماروى محمد بن خلاد الاسكندرانى قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : "أم القرآن عوض من غيرها وليس غيرها منها عوضا " .

الخامسة – قال المهلب : إن موضع الرقية منها إنما هو ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وقيل : السورة كلها رقية ، لقوله عليه السلام للرجل لما أخبره : "وما أدراك أنها رقية" ولم يقل : إن فيها رقية . فدل هذا على أن السورة بأجمعها رقية ، لأنها فاتحة الكتاب ومبدؤه ، ومتضمنة لجميع علومه ، كما تقدم والله أعلم .

(١) فى بعض الأصول : «الدارقطنى» .

السادسة — ليس فى تسميتها بالمثانى وأم الكتاب، ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، قال الله عز وجل : ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ﴾ فأطلق على كتابه : مثانى، لأن الأخبار تثنى فيه . وقد سميت السبع الطوال أيضا مثانى، لأن الفرائض والقصص تثنى فيها . قال ابن عباس : أوتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعا من المثانى . قال : السبع الطوال . ذكره النسائى، وهى من البقرة إلى الأعراف ست واختلفوا فى السابعة، فقيل : يونس، وقيل الأنفال والتوبة ، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير . وقال أعشى همدان :

فلجوا المسجد وادعوا ربكم * وادرسوا هذى المثانى والطول

وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة الحجر، إن شاء الله تعالى .

السابعة — المثانى جمع مثنى، وهى التى جاءت بعد الأولى، والطول جمع أطول . وقد سميت الأنفال من المثانى لأنها تتلو الطول فى القدر . وقيل : هى التى تزيد آياتها على المفصل وتنقص عن المئين . والمئون : هى السور التى تزيد كل واحدة منها على مائة آية .

الباب الثانى

فى نزولها وأحكامها ، وفيه عشرون مسألة

الأولى — أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات، إلا ما روى عن حسين الجعفى : أنها ست، وهذا شاذ. وإلا ما روى عن عمرو بن عبيد . أنه جعل ﴿ إياك نعبد ﴾ آية، وهى على هذا ثمان آيات وهذا شاذ . وقوله تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثانى ﴾ وقوله : " قسمت الصلاة " الحديث يرد هذين القولين . وأجمعت الأمة أيضا على أنها من القرآن . فإن قيل : لو كانت قرآنا لأثبتها عبد الله بن مسعود فى مصحفه . ولما لم يثبتها دل على أنها ليست من القرآن، كالمعوذتين عنده .

الجواب ما ذكره أبو بكر الأنبارى قال : حدثنا الحسن بن الحباب حدثنا سليمان بن الأشعث حدثنا ابن أبى قدامة حدثنا جرير عن الأعمش قال : أظنه عن ابراهيم قال : قيل لعبد الله بن مسعود : لم لم تكتب فاتحة الكتاب فى مصحفك؟ قال : لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة . قال أبو بكر : يعنى أن كل ركعة سبيلها أن تفتتح بأم القرآن قبل السورة المتلوة بعدها، فقال : اختصرت باسقاطها، ووثقت بحفظ المسلمين لها، ولم أثبتها فى موضع فيلزمنى أن أكتبها مع كل سورة، إذ كانت تتقدمها فى الصلاة .

الثانية ــ اختلفوا أهى مكية أم مدنية ؟ . فقال ابن عباس، وقتادة، وأبو العالية الرياحى ــ واسمه رفيع ــ وغيرهم : هى مكية . وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهرى وغيرهم : هى مدنية . ويقال : نزل نصفها بمكة، ونصفها بالمدينة . حكاه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندى فى تفسيره . والأول أصح لقوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ والحجر مكية بإجماع . ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة . وما حفظ أنه كان فى الإسلام قط صلاة بغير الحمد لله رب العالمين، يدل على هذا قوله عليه السلام : " لاصلاة إلا بفاتحة الكتاب " وهذا خبر عن الحكم، لا عن الابتداء والله أعلم .

وقد ذكر القاضى ابن الطيب اختلافَ الناس فى أول ما نزل من القرآن ، فقيل : المدثر ، وقيل : إقرأ، وقيل : الفاتحة . وذكر البيهقى فى دلائل النبوة : عن أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : " إنى اذا خلوت وحدى سمعت نداء، وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا " قالت : معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة، وتصل الرحم، وتَصْدُقُ الحديث . فلما دخل أبو بكر، وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثَمَّ ، ذكرت خديجة حديثه له ، قالت : يا عتيق، اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل . فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده، فقال : انطلق بنا الى ورقة، فقال : ومن أخبرك . قال خديجة، فانطلقا اليه ، فقصا عليه ، فقال : " اذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى يا محمد يا محمد ، فأنطلق هاربا فى الأرض " فقال : لا تفعل، إذا أتاك فأثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتنى فأخبرنى . فلما خلا، ناداه : يا محمد قل بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين حتى بلغ ولا الضالين قل : لا إله إلا الله . فأتى ورقة، فذكر ذلك له ، فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذى بشر به عيسى ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبى مرسل، وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ، وإن يدركنى ذلك لأجاهدن معك . فلما توفى ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد رأيت القَسّ فى الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بى وصدّقنى" يعنى ورقة . قال البيهقىّ رضى الله عنه : هذا منقطع يعنى هذا الحديث، فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعد ما نزل عليه ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ و﴿ يا أيها المدثر ﴾ .

الثالثة — قال ابن عطية : ظن بعض العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بسورة الحمد ؛ لما رواه مسلم عن ابن عباس قال : بينما جبريل قاعد عند النبيّ صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً[1] من فوقه، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل إلا اليوم؛ فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبيّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أوتيته . قال ابن عطية : وليس كما ظن، فان هذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام تقدم الملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم مُعْلِماً به و بما ينزل معه؛ وعلى هذا يكون جبريل شارك فى نزولها والله أعلم .

قلت : الظاهر من الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبيّ صلى الله عليه وسلم بشيء من ذلك . وقد بينا أن نزولها كان بمكة، نزل بها جبريل عليه السلام، لقوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ وهذا يقتضى جميع القرآن، فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة، ونزل الملك بثوابها بالمدينة . والله أعلم . وقد قيل : إنها مكية مدنية، نزل بها جبريل مرتين، حكاه الثعلبي . وما ذكرناه أولى، فإنه جمع بين القرآن والسنة، ولله الحمد والمنة .

الرابعة — قد تقدم أن البسملة ليست بآية منها على القول الصحيح، و إذا ثبت ذلك فحكم المصلى إذا كبر أن يصله بالفاتحة ولا يسكت، ولا يذكر توجيها، ولا تسبيحا، لحديث عائشة، وأنس المتقدمين وغيرهما، وقد جاءت أحاديث بالتوجيه، والتسبيح، والسكوت، قال بها جماعة من العلماء، فروى عن عمر ابن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، رضى الله عنهما : أنهما كانا يقولان إذا افتتحا الصلاة: سبحانك اللهم و بحمدك ، تبارك اسمك ، وتعالى جدك، ولا إله غيرك؛ و به قال سفيان ، وأحمد ، و إسحاق وأصحاب الرأى . وكان الشافعيّ يقول بالذى روى عن على عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان إذا افتتح الصلاة كبر ثم قال : " وَجَّهْتُ وَجْهِى " الحديث، ذكره مسلم، وسيأتى بتمامه فى آخر سورة الأنعام، وهناك يأتى القول فى هذه المسألة مستوفى . إن شاء الله .

قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبر فى الصلاة سكت هنيهة قبل أن يقرأ يقول : " اللهم باعد بينى و بين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقنى من

---

(١) النقيض : الصوت الخفى .

خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد " واستعمل ذلك أبو هريرة . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : للإمام سكتتان فاغتنموا فيهما القراءة . وكان الأوزاعى، وسعيد بن عبد العزيز، وأحمد بن حنبل ، يميلون الى حديث النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب .

الخامسة ـ واختلف العلماء فى وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة، فقال مالك وأصحابه : هى متعينة للإمام والمنفرد فى كل ركعة . قال ابن خواز منداذ البصرى المالكى : لم يختلف قول مالك انه من نسيها فى صلاة ركعة من صلاة ركعتين أن صلاته تبطل ولا تجزيه . واختلف قوله ، فيمن تركها ناسيا فى ركعة من صلاة رباعية أو ثلاثية ؛ فقال مرة : يعيد الصلاة، وقال مرة أخرى : يسجد سجدتى السهو؛ وهى رواية ابن عبد الحكم، وغيره، عن مالك . قال ابن خواز منداذ وقد قيل: إنه يعيد تلك الركعة ويسجد للسهو بعد السلام . قال ابن عبد البرّ : الصحيح من القول إلغاء تلك الركعة ويأتى بركعة بدلا منها، كمن أسقط سجدة سهوا . وهو اختيار ابن القاسم . وقال الحسن البصرى وأكثر أهل البصرة، والمغيرة بن عبد الرحمن المخزومى المدنى: إذا قرأ بأم القرآن مرة واحدة فى الصلاة أجزأه ولم يكن عليه إعادة؛ لأنها صلاة قد قرأ فيها بأم القرآن؛ وهى تامة لقوله عليه السلام : " لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن " وهذا قد قرأ بها .

قلت : ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها فى كل ركعة، وهو الصحيح، على ما يأتى. ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها فى أكثر عدد الركعات، وهذا هو سبب الخلاف والله أعلم .

وقال أبو حنيفة، والثورى، والأوزاعىّ : إن تركها عامدا فى صلاته كلها وقرأ غيرها أجزأه، على اختلاف عن الأوزاعىّ فى ذلك . وقال أبو يوسف، ومحمد بن الحسن : أقله ثلاث آيات أو آية طويلة كآية الدين . وعن محمد بن الحسن أيضا ؛ قال : أسوغ الاجتهاد فى مقدار آية ومقدار كلمة مفهومة؛ نحو : ﴿ الحمد لله ﴾ . ولا أسوغه فى حرف لا يكون كلاما .

وقال الطبرىّ : يقرأ المصلى بأمّ القرآن فى كل ركعة، فإن لم يقرأ بها لم يجزه إلا مثلها من القرآن فى عدد آيها، وحروفها . قال ابن عبد البرّ : وهذا لا معنى له ؛ لأن التعيين لها والنص عليها قد خصها

بهذا الحكم دون غيرها ؛ ومحال أن يجيء بالبدل منها من وجبت عليه فتركها وهو قادر عليها، وإنما عليه أن يجيء بها و يعود اليها، كسائر المفروضات المتعينات فى العبادات .

السادسة — وأما المأموم فإن أدرك الإمام راكعا فالإمام يحمل عنه القراءة؛ لإجماعهم على أنه إذا أدركه راكعا أنه يكبر ويركع ولا يقرأ شيئا، وإن أدركه قائما فإنه يقرأ وهى المسئلة

السابعة — ولا ينبغى لأحد أن يدع القراءة خلف إمامه فى صلاة السرّ ؛ فإن فعل فقد أساء ولا شيء عليه عند مالك، وأصحابه . وأما إذا جهر الإمام وهى المسئلة

الثامنة — فلا قراءة بفاتحة الكتاب ولا غيرها فى المشهور من مذهب مالك، لقول الله تعالى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ القُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مالى أنازع القرآن" وقوله فى الإمام : "إذا قرأ فأنصتوا" وقوله : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة".

وقال الشافعى فيما حكى عنه البويطىّ، وأحمد بن حنبل: لا تجزئ أحدا صلاة حتى يقرأ بفاتحة الكتاب فى كل ركعة، إماما كان أو مأموما، جهر إمامه أو أسرّ . وكان الشافعىّ بالعراق يقول فى المأموم : يقرأ إذا أسر ولا يقرأ إذا جهر ؛ كمشهور مذهب مالك . وقال بمصر فيما يجهر فيه الإمام بالقراءة قولان : أحدهما أن يقرأ ، والآخر يجزئه ألا يقرأ و يكتفى بقراءة الإمام . حكاه ابن المنذر . وقال ابن وهب، وأشهب، وابن عبد الحكم، وابن حبيب ، والكوفيون : لا يقرأ المأموم شيئا، جهر إمامه أو أسر؛ لقوله عليه السلام: " فقراءة الامام له قراءة " وهذا عام؛ ولقول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فلم يصل، إلا وراء الإمام .

التاسعة — الصحيح من هذه الأقوال: قول الشافعىّ، وأحمد، ومالك، فى القول الآخر، وأن الفاتحة متعينة فى كل ركعة لكل أحد على العموم لقوله صلى الله عليه وسلم: « لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب » وقوله : « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهى خداج ثلاثا وقال أبو هريرة : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادى أنه : " لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد " أخرجه أبو داود . كما لا ينوب سجود ركعة ولا ركوعها عن ركعة أخرى ؛ فكذلك لا تنوب قراءة ركعة عن غيرها؛ وبه قال عبد الله بن عون، وأيوب السختيانى، وأبو ثور، وغيره من أصحاب الشافعىّ، وداود بن على . وروى مثله عن الأوزاعىّ ؛ وبه قال مكحول .

وروى عن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، وأبى هريرة، وأبىّ بن كعب، وأبى أيوب الأنصارى ، وعبد الله بن عمرو بن العاصى ، وعبادة بن الصامت، وأبى سعيد الخدرى، وعثمان بن أبى العاصى، وخوات بن جبير، أنهم قالوا: لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب . وهو قول ابن عمر والمشهور من مذهب الأوزاعىّ؛ فهؤلاء الصحابة بهم القدوة، وفيهم الأسوة، كلهم يوجبون الفاتحة فى كل ركعة .

وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزوينىّ فى سننه ما يرفع الخلاف ويزيل كل احتمال؛ فقال: حدّثنا أبو كريب حدّثنا محمد بن فضيل، وحدّثنا سويد بن سعيد حدّثنا على بن مسهر جميعا عن أبى سفيان[1] السعدىّ عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة لمن لم يقرأ فى كل ركعة الحمد وسورة فى فريضة أو غيرها » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أنه عليه السلام قال للذى علمه الصلاة : « وافعل ذلك فى صلاتك كلها » وسيأتى . ومن الحجة فى ذلك أيضا : ما رواه أبو داود عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصارى قال: أبطأ عبادة بن الصامت عن صلاة الصبح ؛ فأقام أبو نعيم المؤذن الصلاة فصلى أبو نعيم بالناس، وأقبل عبادة بن الصامت وأنا معه حتى صففنا خلف أبى نعيم ؛ وأبو نعيم يجهر بالقراءة ؛ فجعل عبادة يقرأ بأمّ القرآن ؛ فلما انصرف قلت لعبادة : سمعتك تقرأ بأمّ القرآن وأبو نعيم يجهر ؛ قال : أجل ! صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الصلوات التى يجهر فيها بالقراءة فالتبست عليه؛ فلما انصرف أقبل علينا بوجهه فقال : « وهل تقرءون إذا جهرت بالقراءة » فقال بعض : إنا نصنع ذلك ، قال : « فلا وأنا أقول مالى ينازعنى القرآن فلا تقرءوا بشىء من القرآن إذا جهرت إلا بأمّ القرآن » . وهذا نص صريح فى المأموم . وأخرجه أبو عيسى الترمذىّ من حديث محمد بن إسحاق بمعناه؛ وقال حديث حسن . والعمل على هذا الحديث فى القراءة خلف الإمام عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم والتابعين؛ وهو قول مالك بن أنس، وابن المبارك، والشافعى، وأحمد وإسحاق، يرون القراءة خلف الإمام. وأخرجه أيضا الدارقطنى وقال : هذا إسناد حسن، ورجاله كلهم ثقات ؛ وذكر : أن محمود بن الربيع كان يسكن ايلياء، وأن أبا نعيم أول من أذن فى بيت المقدس . وقال أبو محمد عبد الحق : ونافع بن محمود لم يذكره البخارىّ فى تاريخه ولا ابن أبى حاتم ولا أخرج له

(١) اسمه طريف بن شهاب .

البخارى ومسلم شيئا . وقال فيه أبو عمر : مجهول . وذكر الدارقطنيّ عن يزيد بن شريك قال : سألت عمر عن القراءة خلف الإمام . فأمرنى أن أقرأ، قلت : وإن كنت أنت؟ قال : وإن كنت أنا ؛ قلت : وإن جهرت ؟ قال : وإن جهرت . قال الدارقطنى : هذا إسناد صحيح . وروى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الإمام ضامن فما صنع فاصنعوا" قال أبو حاتم : هذا يصح لمن قال بالقراءة خلف الإمام ؛ وبهذا أفتى أبو هريرة الفارسىّ أن يقرأ بها فى نفسه حين قال له : إنى أحيانا أكون وراء الإمام، ثم استدل بقوله تعالى[1] : " قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل". قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إقرءوا يقول العبد الحمد لله رب العالمين" الحديث .

العاشرة — أمّا ما استدل به الأولون بقوله عليه السلام : "وإذا قرأ فأنصتوا" أخرجه مسلم من حديث أبى موسى الأشعرىّ؛ وقال : وفى حديث جرير عن سليمان عن قتادة من الزيادة " وإذا قرأ فأنصتوا " قال الدارقطنى : هذه اللفظة لم يتابع سليمان التيمىّ فيها عن قتادة ؛ وخالفه الحفاظ من أصحاب قتادة فلم يذكروها؛ منهم شعبة، وهشام، وسعيد بن أبى عروبة، وهمام، وأبو عوانة، ومعمر، وعدىّ بن أبى عمارة. قال الدارقطنى: فإجماعهم يدل على وَهْمه . وقد روى عن عبد الله بن عامر عن قتادة متابعة التيمى؛ ولكن ليس هو بالقوىّ . تركه القطان . وأخرج أيضا هذه الزيادة أبو داود من حديث أبى هريرة وقال هذه الزيادة " إذا قرأ فأنصتوا " ليست بمحفوظة . وذكر أبو محمد عبد الحق : أن مسلما صحح حديث أبى هريرة، وقال : هو عندى صحيح .

قلت : ومما يدل على صحتها عنده إدخالها فى كتابه من حديث أبى موسى وإن كانت مما لم يجمعوا عليها . وقد صححها الإمام أحمد بن حنبل وابن المنذر .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ فإنه نزل بمكة ، وتحريم الكلام فى الصلاة نزل بالمدينة ، كما قال زيد بن أرقم ، فلا حجة فيها ؛ فإن المقصود كان المشركين، على ما قال سعيد بن المسيب . وقد روى الدارقطنى عن أبى هريرة : أنها نزلت فى رفع الصوت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة . وقال : عبد الله بن عامر ضعيف . وأما قوله عليه السلام: "مالى أنازع القرآن" فأخرجه مالك عن ابن شهاب عن ابن أكيمة الليثى ، واسمه فيما قال مالك : عمرو

(١) أى فى الحديث القدسى .

وغيره يقول : عامر، وقيل : يزيد، وقيل : عمارة، وقيل : عباد، يكنى أبا الوليد توفى سنة إحدى ومائة وهو ابن تسع وسبعين سنة، لم يرو عنه الزهرى إلا هذا الحديث الواحد، وهو ثقة، وروى عنه محمد بن عمرو[1] وغيره ، والمعنى فى حديثه : لا تجهروا إذا جهرت فإن ذلك تنازع وتجاذب وتخالج ، اقرءوا فى أنفسكم . يبينه حديث عبادة، وفتيا الفاروق، وأبى هريرة الراوى للحديثين . فلو فهم المنع جملة من قوله : "مالى أنازع القرآن" لما أفتى بخلافه ؛ وقول الزهرى فى حديث ابن أكيمة : فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جهر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقراءة، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يريد بالجهر على ما بينا ؛ و بالله توفيقنا .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" فحديث ضعيف أسنده الحسن بن عمارة وهو متروك، وأبو حنيفة[2] وهو ضعيف ؛ كلاهما عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر. أخرجه الدارقطنى ؛ وقال : رواه سفيان الثورى، وشعبة، وإسرائيل بن يونس وشريك، وأبو خالد الدالانى، وأبو الأحوص، وسفيان بن عيينة، وجرير بن عبد الحميد، وغيرهم عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شداد مرسلا عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو الصواب . وأما قول جابر : من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يصل إلا وراء امام ؛ فرواه مالك عن وهب بن كيسان عن جابر قوله ، قال ابن عبد البر ورواه يحيى بن سلام صاحب التفسير عن مالك عن أبى نعيم وهب ابن كيسان عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم . وصوابه موقوف على جابر، كما فى الموطأ . وفيه من الفقه إبطال الركعة التى لا يقرأ فيها بأم القرآن ؛ وهو يشهد لصحة ما ذهب اليه ابن القاسم، ورواه عن مالك فى إلغاء الركعة والبناء على غيرها ولا يعتد المصلى بركعة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب . وفيه أيضا أن الإمام قراءته لمن خلفه قراءة ؛ وهذا مذهب جابر وقد خالفه فيه غيره .

الحادية عشرة — قال ابن العربى لما قال صلى الله عليه وسلم : " لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب" واختلف الناس فى هذا الأصل هل يحمل هذا النفى على التمام والكمال ؛ أو على الإجزاء ؟

---

(١) فى نسخة : « محمد بن عمر »

(٢) قد ترجمه ابن حجر فى التهذيب وابن خلكان فى الوفيات ولم يذكرا عنه ضعفا فى الحديث ولكن ابن سعد فى الطبقات له وصفه بذلك .

اختلفت الفتوى بحسب اختلاف حال الناظر . ولما كان الأشهر فى هذا الأصل والأقوى أن النفى على العموم، كان الأقوى من رواية مالك أن من لم يقرأ الفاتحة فى صلاته بطلت . ثم نظرنا فى تكرارها فى كل ركعة ؛ فمن تأوّل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "افعل ذلك فى صلاتك كلها" لزمه أن يعيد القراءة كما يعيد الركوع والسجود . والله أعلم .

الثانية عشرة — ما ذكرناه فى هذا الباب من الأحاديث والمعانى فى تعيين الفاتحة، يردّ على الكوفيين قولهم : فى أن الفاتحة لا تتعين، وأنها وغيرها من آى القرآن سواء، وقد عينها النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله، كما ذكرنا، وهو المبيِّن عن الله تعالى مراده فى قوله : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ . وقد روى أبو داود عن أبى سعيد الخدرى قال : أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر . فدل هذا الحديث على أن قوله عليه السلام للأعرابيّ : "اقرأ ما تيسر معك من القرآن" مازاد على الفاتحة، وهو تفسير قوله تعالى : ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ . وقد روى مسلم عن عبادة بن الصامت : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرءان" زاد فى رواية "فصاعدا" . وقوله عليه السلام : "هى خداج ثلاثا غير تمام" أى غير مجزئة بالأدلة المذكورة . والخداج : النقص والفساد . قال الاخفش : خدجت الناقة ، اذا ألقت ولدها لغير تمام، وأخدجت إذا قذفت به قبل وقت الولادة وان كان تام الخلق .

والنظر يوجب فى النقصان ألا تجوز معه الصلاة، لأنها صلاة لم تتم، ومن خرج من صلاته وهى لم تتم فعليه إعادتها كما أمر، على حسب حكمها . ومن ادعى أنها تجوز مع اقراره بنقصها فعليه الدليل، ولا سبيل اليه من وجه يلزم، والله أعلم .

الثالثة عشرة — روى عن مالك أن القراءة لا تجب فى شىء من الصلاة، وكذلك كان الشافعيّ يقول بالعراق فيمن نسيها، ثم رجع عن هذا بمصر فقال : لا تجزئ صلاة من يحسن فاتحة الكتاب إلا بها، ولا يجزئه أن ينقص حرفا منها، فإن لم يقرأها أو نقص منها حرفا أعاد صلاته، وإن قرأ بغيرها . وهذا هو الصحيح فى المسئلة . وأما ما روى عن عمر رحمه الله أنه صلى المغرب فلم يقرأ فيها، فذكر ذلك له، فقال : كيف كان الركوع والسجود؟ قالوا : حسن، قال : لا بأس إذًا ، فحديث منكر اللفظ منقطع الإسناد، لأنه يرويه إبراهيم بن الحارث التيمى عن عمر، ومرة يرويه إبراهيم عن أبى سلمة

ابن عبد الرحمن بن عمر، وكلاهما منقطع لا حجة فيه؛ وقد ذكره مالك في الموطأ؛ وهو عند بعض الرواة، وليس عند يحيى وطائفة معه، لأنه رماه مالك من كتابه بأخرة[(1)]: وقال ليس عليه العمل لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج" وقد روى بن عمر أنه أعاد تلك الصلاة؛ وهو الصحيح عنه. روى يحيى بن يحيى النيسابوري قال: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم النخعي عن همام بن الحارث: أن عمر نسي القراءة في المغرب فأعاد بهم الصلاة. قال ابن عبد البر: وهذا حديث متصل شهده همام من عمر روى ذلك من وجوه. وروى أشهب عن مالك قال: سئل مالك عن الذي نسي القراءة: أيعجبك ما قال عمر؟ فقال: أنا أنكر أن يكون عمر فعله — وأنكر الحديث — وقال: يرى الناس عمر يصنع هذا في المغرب ولا يسبحون به! أرى أن يعيد الصلاة من فعل هذا.

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أن لا صلاة إلا بقراءة، على ما تقدم من أصولهم في ذلك، وأجمعوا على أن لا توقيت في ذلك بعد فاتحة الكتاب، إلا أنهم يستحبون ألا يقرأ مع فاتحة الكتاب إلا سورة واحدة لأنه الأكثر مما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال مالك: وسنة القراءة أن يقرأ في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورة، وفي الأخريين بفاتحة الكتاب. وقال الأوزاعي: يقرأ بأم القرآن فان لم يقرأ بأم القرآن وقرأ بغيرها أجزأه، وقال: وإن نسي أن يقرأ في ثلاث ركعات أعاد. وقال الثوري: يقرأ في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة ويسبح في الأخريين إن شاء وإن شاء قرأ، وإن لم يقرأ ولم يسبح جازت صلاته، وهو قول أبي حنيفة وسائر الكوفيين. قال ابن المنذر: وقد روينا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: اقرأ في الأوليين، وسبح في الأخريين، وبه قال النخعي. قال سفيان: فان لم يقرأ في ثلاث ركعات أعاد الصلاة لأنه لا تجزئه قراءة ركعة. قال: وكذلك إن نسي أن يقرأ في ركعة من صلاة الفجر. وقال أبو ثور: لا تجزئ صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب في كل ركعة، كقول الشافعي المصري، وعليه جماعة أصحاب الشافعي. وكذلك قال ابن خواز منداذ المالكي: قراءة الفاتحة واجبة عندنا في كل ركعة، وهذا هو الصحيح في المسألة. روى مسلم عن أبي قتادة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بنا فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين، ويسمعنا الآية أحيانا، وكان يطول

(1) أي بتأخر وبعد عن الخبر.

فى الركعة الأولى من الظهر ويقصر الثانية ، وكذلك فى الصبح . وفى رواية : ويقرأ فى الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب ؛ وهذا نص صريح وحديث صحيح لما ذهب إليه مالك، ونص فى تعيين الفاتحة فى كل ركعة؛ خلافا لمن أبى ذلك، والحجة فى السنة، لا فيما خالفها .

الخامسة عشرة — ذهب الجمهور الى أن ما زاد على الفاتحة من القراءة ليس بواجب ؛ لما رواه مسلم عن أبى هريرة قال : فى كل صلاة قراءة؛ فما أسمعنا النبي صلى الله عليه وسلم أسمعناكم، وما أخفى منا أخفينا منكم؛ فمن قرأ بأم القرآن فقد أجزأت عنه، ومن زاد أفضل . وفى البخارى : «وإن زدت فهو خير» . وقد أبى كثير من أهل العلم ترك السورة لضرورة أو لغير ضرورة؛ منهم عمران بن حصين، وأبو سعيد الخدرى، وخوّات بن جبير، ومجاهد، وأبو وائل، وابن عمر، وابن عباس، وغيرهم قالوا : لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها من القرآن؛ فمنهم من حدّ آيتين، ومنهم من حدّ آية، ومنهم من لم يحدّ، وقال : شيء من القرآن معها ؛ وكل هذا موجب لتعلّم ما تيسر من القرآن على كل حال مع فاتحة الكتاب؛ لحديث عبادة، وأبى سعيد الخدرى، وغيرهما . وفى المدوّنة : وكيع عن الأعمش عن خيثمة قال : حدّثنى من سمع عمر بن الخطاب يقول : لا تجزئ صلاة من لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها . واختلف المذهب فى قراءة السورة على ثلاثة أقوال : سنة، فضيلة، واجبة .

السادسة عشرة — من تعذر ذلك عليه بعد بلوغ مجهوده فلم يقدر على تعلم الفاتحة أو شيء من القرآن ولا علق منه بشيء، لزمه أن يذكر الله فى موضع القراءة بما أمكنه، من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا صلى وحده، أو مع إمام فيما أسرّ فيه الإمام؛ فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن أبى أوفى قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنى لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئا، فعلمنى ما يجزئنى منه ؛ قال : قل "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله"؛ قال : يا رسول الله، هذا لله، فمالى ؟ قال: قل "اللهم ارحمنى وعافنى واهدنى وارزقنى" .

السابعة عشرة — فإن عجز عن إصابة شيء من هذا اللفظ فلا يدع الصلاة مع الإمام جهده ؛ فالامام يحمل ذلك عنه إن شاء الله ؛ وعليه أبدا أن يجهد نفسه فى تعلم فاتحة الكتاب فما زاد، إلى أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيعذره الله .

الثامنة عشرة ـ من لم يؤاته لسانه إلى التكلم بالعربيــة من الأعجميين وغيرهم ترجم له الدعاء العربيّ بلسانه الذي يفقه لإقامة صلاته ؛ فإن ذلك يجزئه إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة ـ لا تجزئ صلاة من قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية في قول الجمهور . وقال أبو حنيفة : تجزئه القراءة بالفارسيــة وإن أحسن العربية، لأن المقصود إصابة المعنى . قال ابن المنذر : لا يجزئه ذلك ؛ لأنه خلاف ما أمر الله به، وخلاف ما علم النبيّ صلى الله عليه وسلم، وخلاف جماعات المسلمين . ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال .

الموفية العشرين ـ من افتتح الصلاة كما أمر وهو غير عالم بالقراءة ؛ فطرأ عليه العلم بها في أثناء الصلاة ، ويتصور ذلك بأن يكون سمع من قرأها فعلقت بحفظه من مجرد السماع فلا يستأنف الصلاة؛ لأنه أدّى ما مضى على حسب ما أمر به ؛ فلا وجه لإبطاله . قاله في كتاب ابن سحنون .

الباب الثالث

في التأمين ، وفيه ثمان مسائل

الأولى ـ ويسنّ لقارئ القرآن أن يقول بعد الفراغ من الفاتحة بعد سكتة على نون ﴿ولا الضالين﴾ آمين، ليتميز ما هو قرآن مما ليس بقرآن .

الثانية ـ ثبت في الأمهات من حديث أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أمّن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه" قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فترتبت المغفرة للذنب على مقدمات أربع، تضمنها هذا الحديث، الأولى : تأمين الإمام، الثانية : تأمين من خلفه ، الثالثة : تأمين الملائكة، الرابعة : موافقة التأمين؛ قيل : في الإجابة ، وقيل : في الزمن، وقيل : في الصفة، من إخلاص الدعاء، لقوله عليه السلام : " ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه " .

الثالثة ـ روى أبو داود عن أبي مصبح المقرائي قال : كنا نجلس إلى أبي زهير النميري وكان من الصحابة ، فيحدث أحسن الحديث ، فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال : اختمه بآمين، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة؛ قال أبو زهير : ألا أخبركم عن ذلك، خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذات ليلة ، فأتينا على رجل قد ألح فى المسئلة ، فوقف النبي صلى الله عليه وسلم يسمع منه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أوجب إن ختم" فقال له رجل من القوم : بأى شيء يختم ؟ قال : "بآمين فانه إن ختم بآمين فقد أوجب" فانصرف الرجل الذى سأل النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتى الرجل فقال له : اختم يافلان وأبشر. قال ابن عبد البر : أبو زهير النميرى اسمه يحيى بن نفير روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : "لا تقتلوا الجراد فانه جند الله الأعظم" وقال وهب بن منبه : آمين أربعة أحرف يخلق الله من كل حرف ملكا يقول : اللهم اغفر لكل من قال آمين . وفى الخبر : "لقننى جبريل آمين عند فراغى من فاتحة الكتاب ، وقال : إنه كالخاتم على الكتاب" وفى حديث آخر : "آمين ،خاتم رب العالمين". قال الهروى : قال أبو بكر : معناه أنه طابع الله على عباده ؛ لأنه يدفع [به عنهم][1] الآفات، والبلايا ؛ فكان كخاتم الكتاب الذى يصونه ، ويمنع من إفساده ، وإظهار ما فيه . وفى حديث آخر : "آمين درجة فى الجنة"؛ قال أبو بكر : معناه أنه حرف يكتسب به قائله درجة فى الجنة .

الرابعة — معنى آمين عند أكثر أهل العلم : اللهم استجب لنا، وضع موضع الدعاء . وقال قوم : هو اسم من أسماء الله، روى عن جعفر بن محمد، ومجاهد، وهلال بن يساف، ورواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصح ؛ قاله ابن العربى . وقيل : معنى آمين : كذلك فليكن ؛ قاله الجوهرى : و روى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما معنى آمين؟ قال : "رب افعل" وقال مقاتل: هو قوة للدعاء، واستنزال للبركة . وقال الترمذى: معناه لا تخيب رجاءنا .

الخامسة — وفى آمين لغتان : المد على وزن فاعيل كياسين . والقصر على وزن يمين . قال الشاعر فى المد :

يارب لا تسلبنى حبها أبدا * ويرحم الله عبدا قال آمينا

وقال آخر :

آمين آمين لا أرضى بواحدة * حتى أبلغها ألفين آمينا

---

(١) الزيادة عن اللسان مادة (أمن) .

وقال آخر فى القصر :

تباعد منى فطحل إذ سألته • آمين فزاد الله ما بيننا بعدا

وتشديد الميم خطأ؛ قاله الجوهرى . وقد روى عن الحسن، وجعفر الصادق ، التشديد؛ وهو قول الحسين بن الفضل؛ من أمّ إذا قصد أى نحن قاصدون نحوك؛ ومنه قوله : ﴿ وَلَآ آمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ . حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيرى .

قال الجوهرى : وهو مبنى على الفتح مثل أين وكيف لاجتماع الساكنين . وتقول منه : أمّن فلان تأمينا .

السادسة ــ واختلف العلماء : هل يقولها الإمام وهل يجهر بها ؟ فذهب الشافعى ومالك فى رواية المدنيين إلى ذلك . وقال الكوفيون و بعض المدنيين : لا يجهر بها . وهو قول الطبرى ؛ وبه قال ابن حبيب من علمائنا . وقال ابن بكير : هو مخير . وروى ابن القاسم عن مالك : أن الإمام لا يقول آمين و إنما يقول ذلك من خلفه ؛ وهو قول ابن القاسم والمصريين من أصحاب مالك؛ وحجتهم : حديث أبى موسى الأشعرى،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا فبين لنا سنتنا وعلمنا صلاتنا فقال : «إذا صليتم فأقيموا صفوفكم، ثم ليؤمكم أحدكم، فإذا كبر فكبروا، وإذا قال: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فقولوا آمين يجبكم الله » وذكر الحديث، أخرجه مسلم . ومثله حديث سُمَىّ عن أبى هريرة ؛ وأخرجه مالك . والصحيح الأول لحديث وائل بن حجر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ : ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ . قال : « آمين» يرفع بها صوته؛ أخرجه أبو داود والدار قطنى .

قال أبو بكر : هذه سنة تفرد بها أهل الكوفة ــ هذا صحيح ــ والذى بعده؛ ترجم له البخارى باب جهر الإمام بالتأمين .

وقال عطاء : آمين دعاء؛ أمّن ابن الزبير ومن وراءه حتى إن للمسجد للجة . قال الترمذى : وبه يقول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، ومن بعدهم، يرون أن يرفع الرجل صوته بالتأمين لايخفيها . وبه يقول الشافعى، وأحمد، وإسحاق . وفى الموطأ، والصحيحين، قال ابن شهاب وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « آمين » . وفى سنن ابن ماجه عن أبى هريرة قال : ترك الناس آمين؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

قال : « آمين » حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرتج بها المسجد . وأما حديث أبي موسى وسُمَيّ فمعناهما التعريف بالموضع الذى يقال فيه آمين ، وهو إذا قال الإمام : ﴿ ولا الضالين ﴾ — ليكون قولهما معا ولا يتقدموه بقول : آمين ، لما ذكرناه ، والله أعلم . ولقوله عليه السلام : « إذا أمّن الإمام فأمنوا » وقال ابن نافع فى كتاب ابن الحارث : لا يقولها المأموم إلا أن يسمع الإمام يقول : ﴿ ولا الضالين ﴾ . وإذا كان يبعد لا يسمعه فلا يقل .

وقال ابن عبدوس : يتحرى قدر القراءة ويقول : آمين .

السابعة — قال أصحاب أبي حنيفة : الإخفاء بآمين أولى من الجهر بها لأنه دعاء ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ . قالوا : والدليل عليه ما روى فى تأويل قوله تعالى : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ . قال : كان موسى يدعو وهارون يؤمن ؛ فسماهما الله داعيين .

والجواب : أن إخفاء الدعاء إنما كان أفضل لما يدخله من الرياء . وأما ما يتعلق بصلاة الجماعة فشهودها إشهار شعار ظاهر ، وإظهار حق يندب العباد إلى إظهاره . وقد ندب الإمام إلى إشهار قراءة الفاتحة المشتملة على الدعاء ، والتأمين فى آخرها ؛ فإذا كان الدعاء مما يسن الجهر فيه فالتأمين على الدعاء تابع له وجار مجراه وهذا بين .

الثامنة — كلمة آمين لم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون عليهما السلام . ذكر الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصول) : حدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قال حدثنا أبى قال حدثنا رزين مؤذن مسجد هشام بن حسان قال حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله أعطى أمتى ثلاثا لم تعط أحدا قبلهم السلام ، وهو تحية أهل الجنة ، وصفوف الملائكة ، وآمين إلا ما كان من موسى وهارون " قال أبو عبدالله : معناه أن موسى دعا على فرعون ، وأمن هارون ، فقال الله تبارك اسمه عند ما ذكر دعاء موسى فى تنزيله : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ ولم يذكر مقالة هارون ؛ وقال موسى ربنا ، فكان من هارون التأمين ، فسماه داعيا فى تنزيله ، إذ صير ذلك منه دعوة . وقد قيل : إن آمين خاص لهذه الأمة ، لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما حسدتكم اليهود على شىء ما حسدتكم على السلام والتأمين " أخرجه ابن ماجه من حديث حماد بن سلمة عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال الحديث . وأخرج أيضا من حديث ابن

عياض عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على آمين، فأ كثروا من قول آمين " . قال علماؤنا[1] رحمة الله عليهم : إنما حسدنا أهل الكتاب لأن أولها حمد الله وثناء عليه ثم خضوع له واستكانة، ثم دعاء لنا بالهداية والصراط المستقيم، ثم الدعاء عليهم مع قولنا آمين .

الباب الرابع

فيما تضمنته الفاتحة من المعانى والقراءات والإعراب وفضل الحامدين، وفيه ست وثلاثون مسئلة

الأولى – قوله سبحانه وتعالى : ﴿الحمد لله﴾ . روى أبو محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ من حديث أبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدى الحمد لى " وروى مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله ليرضى عن العبد أن يأ كل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها " وقال الحسن : ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها . وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ" . وفى (نوادر الأصول) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضل من ذلك قال أبو عبد الله : معناه عندنا أنه قد أُعطى الدنيا، ثم أُعطى على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها، لأن الدنيا فانية، والكلمة باقية، من الباقيات الصالحات . وقال : هو «خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً» . وقيل فى بعض الروايات : لكان ما أُعطى أكثر مما أَخذ . فضمير الكلمة أعطى من العبد والدنيا أخذ من الله فهذا فى التذكير، كذلك يجرى فى الكلام أن هذه الكلمة من العبد، والدنيا من الله، وكليهما من الله ؛ فى الأصل الدنيا منه، والكلمة منه، أعطاه

(١) هذا حمل منهم الحديث على الفاتحة مع آمين فى آخرها .

الدنيا فأغناه، وأعطاه الكلمة فشرفه بها في الآخرة . وروى ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم : "أن عبدا من عباد الله قال: يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فَعَضَّلَتْ بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا الى السماء فقالا يا ربنا إن عبدا قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها، قال الله — وهو أعلم بما قال عبده — ماذا قال عبدى، فقالا يا رب إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها" .

قال أهل اللغة : أعضل الأمر : اشتد واستغلق ؛ والمعضلات بتشديد الضاد ، الشدائد . وعضلت المرأة والشاة، إذا نشب ولدها فلم يسهل مخرجه؛ بتشديد الضاد أيضا ؛ فعلى هذا يكون: أعضلت الملكين أو عضلت الملكين بغير باء . والله أعلم . وروى عن مسلم عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض" وذكر الحديث .

الثانية — اختلف العلماء : أيما أفضل ؛ قول العبد: الحمد لله رب العالمين ، أو قول: لا إله إلا الله ؟ فقالت طائفة : قوله الحمد لله رب العالمين أفضل؛ لأن فى ضمنه التوحيد الذى هو لا إله إلا الله ؛ ففى قوله توحيد وحمد ؛ وفى قوله لا إله إلا الله توحيد فقط . وقالت طائفة : لا إله إلا الله أفضل ؛ لأنها تدفع الكفر والإشراك، وعليها يقاتل الخلق ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله" واختار هذا القول ابن عطية؛ قال : والحاكم بذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : "أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له" .

الثالثة — أجمع المسلمون على أن الله محمود على سائر نعمه ،وأن مما أنعم الله به الإيمان ؛ فدل على أن الإيمان فعله وخلقه ؛ والدليل على ذلك قوله : ﴿ رب العالمين ﴾ . والعالمون جملة المخلوقات ؛ ومن جملتها الإيمان . لا كما قال القَدَرِيَّةُ : إنه خَلْقٌ لهم على ما يأتى بيانه .

الرابعة — الحمد في كلام العرب معناه الثناء الكامل؛ والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد؛ فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا؛ وقد جمع لفظ الحمد جمع القلة في قول الشاعر :

وأبلج محمود الثناء خصصته * بأفضل أقوالي وأفضل أَحْمُدِي

فالحمد : نقيض الذم؛ تقول : حمدت الرجل أحمده حمدا فهو حميد ومحمود؛ والتحميد أبلغ من الحمد : والحمد أعم من الشكر، والمحمد : الذي كثرت خصاله المحمودة . قال الشاعر :

* إلى الماجد القرم الجواد المحمد *

وبذلك سمي رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الشاعر :

فشق له من اسمه ليجله * فذو العرش محمود وهذا محمد

والمحمدة : خلاف المذمة؛ وأحمد الرجل : صار أمره إلى الحمد؛ وأحمدته : وجدته محمودا؛ تقول : أتيت موضع كذا فأحمدته، أي صادفته محمودا موافقا، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه؛ ورجل حُمَدَةٌ — مثل همزة — يكثر حمد الأشياء ويقول فيها أكثر مما فيها . وحَمَدَةُ النار — بالتحريك — : صوت التهابها .

الخامسة — ذهب أبو جعفر الطبري وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء . وليس بمرضي . وحكاه أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب "الحقائق" له عن جعفر الصادق وابن عطاء . قال ابن عطاء : معناه الشكر لله إذ كان منه الامتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه، واستدل الطبري على أنهما بمعنى بصحة قولك : الحمد لله شكرا . قال ابن عطية : وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه؛ لأن قولك شكرا؛ إنما خصصت به الحمد لأنه على نعمة من النعم؛ وقال بعض العلماء : إن الشكر أعم من الحمد، لأنه باللسان وبالجوارح والقلب؛ والحمد إنما يكون باللسان خاصة . وقيل : الحمد أعم لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح؛ وهو أعم من الشكر لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد . وروي عن ابن عباس أنه قال : الحمد لله كلمة كل شاكر، وإن آدم عليه السلام قال حين عطس : الحمد لله . وقال الله لنوح عليه السلام :

﴿ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾. وقال فى قصة داود وسليمان : ﴿ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ . وقال أهل الجنة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ . ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . فهى كلمة كل شاكر .

قلت : الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان . وعلى هذا الحد قال علماؤنا[1] : الحمد أعم من الشكر، لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد، وعلى الشكر؛ والجزاء مخصوص، إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفا؛ فصار الحمد أعم فى الآية، لأنه يزيد على الشكر . ويذكر الحمد بمعنى الرضا ؛ يقال : بلوته فحمدته، أى رضيته . ومنه قوله تعالى : ﴿ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ وقال عليه السلام : "أحمد إليكم غسل الإحليل" أى أرضاه لكم . ويذكر عن جعفر الصادق فى قوله : ﴿ الحمد لله ﴾ من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد ؛ لأن الحمد حاء وميم ودال؛ فالحاء من الوحدانية، والميم من الملك، والدال من الديمومية ؛ فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والملك فقد عرفه، وهذا هو حقيقة الحمد لله . وقال شقيق بن ابراهيم فى تفسير ﴿ الحمد لله ﴾ قال : هو على ثلاثة أوجه : أولها إذا أعطاك الله شيئا تعرف من أعطاك . والثانى أن ترضى بما أعطاك . والثالث مادامت قوته فى جسدك ألا تعصيه؛ فهذه شرائط الحمد .

السادسة ــ أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه، وافتتح كتابه بحمده، ولم يأذن فى ذلك لغيره؛ بل نهاهم عن ذلك فى كتابه، وعلى لسان نبيه عليه السلام، فقال : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ وقال عليه السلام : "احثوا فى وجوه المداحين التراب" رواه المقداد وسيأتى القول فيه فى النساء ان شاء الله تعالى .

فمعنى الحمد لله رب العالمين : أى سبق الحمد منى لنفسى قبل أن يحمدنى أحد من العالمين ، وحمدى نفسى لنفسى فى الأزل لم يكن بعلة؛ وحمد الخلق مشوب بالعلل . قال علماؤنا : فيستقبح من المخلوق الذى لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستجلب لها المنافع ويدفع عنها المضار . وقيل : لما

(١) عقب ذلك ابن عطية فى تفسيره بقوله: فالحامد من الناس قسمان الشاكر والمثنى بالصفات وبه يتضح كلام المؤلف .

علم سبحانه عجز عباده عن حمده، حمد نفسه بنفسه لنفسه فى الأزل؛ فاستفراغ طوق عباده، هو محل العجز عن حمده. ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله: "لا أحصى ثناء عليك" وأنشدوا:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح * فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى

وقيل: حمد نفسه فى الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده فحمد نفسه عنهم، لتكون النعمة أهنأ لديهم، حيث أسقط عنهم به ثقل المنة.

السابعة ــ وأجمع القراء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من ﴿ الحمد لله ﴾. وروى عن سفيان بن عيينة، ورؤبة بن العجاج. الحمد لله؛ بنصب الدال وهذا على إضمار فعل. ويقال: الحمد لله بالرفع مبتدأ وخبر، وسبيل الخبر أن يفيد؛ فما الفائدة فى هذا؟ فالجواب أن سيبويه قال: إذا قال الرجل الحمد لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما فى قولك: حمدت الله حمدا؛ إلا أن الذى يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله؛ والذى ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله. وقال غير سيبويه. إنما يتكلم بهذا تعرضا لعفو الله ومغفرته وتعظيما له وتمجيدا؛ فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال. وفى الحديث: "من شغل بذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين". وقيل: إن مدحه عز وجل لنفسه، وثناءه عليها، ليعلم ذلك عباده؛ فالمعنى على هذا: قولوا الحمد لله. قال الطبرى: الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه؛ فكأنه قال: قولوا الحمد لله؛ وعلى هذا يجيء قولوا إياك. وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه؛ كما قال الشاعر:

وأعلم أننى سأكون رمسا * إذا سار النواعج لا يسير

فقال السائلون لمن حفرتم * فقال القائلون لهم وزير

المعنى المحفور له وزير فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه، وهذا كثير. وروى عن ابن أبى عبلة[1] الحمدُ لُله، بضم الدال واللام على اتباع الثانى الأول؛ وليتجانس اللفظ، وطلب التجانس فى اللفظ كثير فى كلامهم، نحو أخوك وهو منحدر من الجبل، بضم الدال والجيم[2]. قال:

* اضرب الساقينُ أُمك هابل *

(١) اسمه ابراهيم. (٢) لعله اتباعا للميم.

بضم النون لأجل ضم الهمزة . وفى قراءة لأهل مكة "مردفين" بضم الراء اتباعا للميم ، وعلى ذلك «مقتلين» بضم القاف . وقالوا : لأمك فكسروا الهمزة اتباعا للام، وأنشد النعمان بن بشـ

ويل آمها فى هـــواء الجو طالبـة * ولا كهذا الذى فى الأرض مطلوب

الأصل : ويل لأمها، فحذفت اللام الأولى واستثقل ضم الهمزة بعد الكسرة فنقلها للام ثم اتبع اللام الميم . وروى عن الحسن بن أبى الحسن، وزيد بن على : الحمد لله ، بكسر الدال على اتبـاع الأول الثـانى .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . أى مالكهم وكل من ملك شيئا فهو ربه، فالرب: المـالك . وفى الصحاح : والرب اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال فى غيره إلا بالإضافة، وقد قالوه فى الجاهلية للملك، قال الحارث بن حِلِّزة :

وهو الرب والشهيـد على يو * م الحِيارينِ والبـلاء بلاء

والرب : السيد، ومنه قوله تعالى : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ . وفى الحديث: "أن تلد الأمة ربتها" أى سيدتها، وقد بيناه فى كتاب (التذكرة) . والرب: المصلح، والمدبر، والجابر، والقائم. قال الهروى وغيره : يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه، قد ربه يربه فهو رب له وراب، ومنه سمى الربانيون لقيامهم بالكتب . وفى الحديث : "هل لك من نعمة تربها عليه" أى تقوم بها وتصلحها . والرب: المعبود، ومنه قول الشاعر :

أرب يبول الثُّعْلُبَانُ برأسه * لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ويقال على التكثير: رباه وربيه وربته، حكاه النحاس . وفى الصحاح : ورب فلان ولده يربه ربا وربيه وتربيه بمعنى، أى رباه . والمربوب : المربَّى .

التاسعة — قال بعض العلماء : إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم ، لكثرة دعوة الداعين به ، وتأمل ذلك فى القرآن، كما فى آخر آل عمران، وسورة ابراهيم، وغيرهما، ولمـا يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب، مع ما يتضمنه من العطف والرحمـة والافتقار فى كل حال . واختلف فى اشتقاقه، فقيل: إنه مشتق من التربية، فالله سبحانه وتعالى مدبر لخلقه، ومربيهم ومنه قوله تعالى: ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ ﴾ . فسمى بنت الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها .

فعلى أنه مدبر لخلقه ومربيهم يكون صفة فعل ؛ وعلى أن الرب بمعنى المالك والسيد ، يكون صفة ذات .

العاشرة — متى أدخلت الألف واللام على رب، اختص الله تعالى به لأنها للعهد؛ وإن حذفتا منه صار مشتركا بين الله وبين عباده، فيقال : الله رب العباد، وزيد رب الدار؛ فالله سبحانه رب الأرباب ؛ يملك المالك والمملوك، وهو خالق ذلك ورازقه ، وكل رب سواه غير خالق ولا رازق، وكل مملوك فمملك بعد أن لم يكن، ومنتزع ذلك من يده، وإنما يملك شيئا دون شيء ؛ وصفة الله تعالى مخالفة لهذه المعانى، فهذا الفرق بين صفة الخالق والمخلوقين .

الحادية عشرة— قوله تعالى: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ . اختلف أهل التأويل فى العالمين اختلافا كثيرا؛ فقال قتادة : العالمون جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى ، ولا واحد له من لفظه مثل رهط وقوم . وقيل : أهل كل زمان عالم؛ قاله الحسين بن الفضل لقوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أى من الناس . وقال العجاج :

* فَخِنْدِفٌ هامة هذا العالم *

وقال جرير بن الخَطَفَى :

تنصفه البرية وهو سام * ويضحى العالمون له عيالا

وقال ابن عباس : العالمون الجن والإنس . دليله قوله تعالى ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ولم يكن نذيرا للبهائم . وقال الفراء، وأبو عبيدة : العالم ، عبارة عمن يعقل ؛ وهم أربعة أمم : الإنس ، والجن، والملائكة، والشياطين . ولا يقال للبهائم عالم لأن هذا الجمع إنما هو جمع من يعقل خاصة. قال الأعشى :

* ما إن سمعت بمثلهم فى العالمينا *

وقال زيد بن أسلم: هم المرتزقون؛ ونحوه قول أبى عمرو بن العلاء : هم الروحانيون، وهو معنى قول ابن عباس أيضا: كل ذى روح دب على وجه الأرض . وقال وهب بن منبه : إن الله عز وجل ثمانية عشر ألف عالم ؛ الدنيا عالم منها . وقال أبو سعيد الخدرى : إن لله أربعين ألف عالم ؛

الدنيا من شرقها إلى غربها عالم واحد . وقال مقاتل : العالمون ثمانون ألف عالم، أربعون ألف عالم في البر ، وأربعون ألف عالم في البحر . وروى الربيع بن أنس عن أبي العالية قال : الجن عالم، والإنس عالم، وسوى ذلك للأرض أربع زوايا في كل زاوية ألف وخمسمائة عالم، خلقهم لعبادته .

قلت والقول الأول أصح هذه الأقوال ، لأنه شامل لكل مخلوق وموجود دليله قوله تعالى : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ثم هو مأخوذ من العَلَم والعلامة، لأنه يدل على موجده كذا قال الزجاج قال: العالم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة . وقال الخليل: العلم، والعلامة، والمعلم: ما دل على الشيء، فالعالم دال على أن له خالقا ومدبرا، وهذا واضح . وقد ذكر أن رجلا قال بين يدي الجنيد : الحمد لله، فقال له : أتمها كما قال الله، قل: رب العالمين، فقال الرجل : ومن العالمين حتى تذكر مع الحق ؟ قال قل يا أخي، فإن المحدث إذا قرن مع القديم لا يبقى له أثر .

الثانية عشرة — يجوز الرفع والنصب في رب، والنصب على المدح، والرفع على القطع، أي هو رب العالمين .

الثالثة عشرة — قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين، بأنه الرحمن الرحيم، لأنه لما كان في اتصافه برب العالمين ترهيب، قرنه بالرحمن الرحيم، لما تضمن من الترغيب ليجمع في صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمنع، كما قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ . وقال: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد" وقد تقدم ما في هذين الاسمين من المعاني، فلا معنى لإعادته .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ . قرأ محمد بن السميقع : بنصب مالك ، وفيه أربع لغات : مَالِك ومَلِك ومَلْك — مخففة من مَلِك — ومَليك، وقال الشاعر[1] :

وأيام لنا غر طوال * عصينا الملك فيها أن ندينا

(١) هو عمرو بن كلثوم .

وقال آخـــر[1] :

فاقنع بمـا قسم المليك فإنما * قسم الخلائق بيننا علامها

الخـلائق : الطبائع التى جبل الإنسان عليها . وروى عن نافع إشباع الكسرة فى ملك؛ فيقرأ ملكى على لغـة من يشبع الحركات ، وهى لغة للعرب ذكرها المهدوى وغيره .

الخامسة عشرة ــ اختلف العلماء أيما أبلغ : ملك أو مالك ؟ والقراءتان مرويتان عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر ، وعمر ، ذكرهما الترمذى ؛ فقيل : ملك أعم وأبلغ من مالك ؛ إذ كل ملك مالك ، وليس كل مالك ملكا ، ولأن أمر الملك نافذ على المـالك فى ملكه ، حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك ؛ قاله أبو عبيدة والمبرد . وقيـل : مالك أبلغ ؛ لأنه يكون مالكا للنـاس وغيرهم ؛ فالمـالك أبلغ تصرفا وأعظم ، إذ اليه إجراء قوانين الشرع ، ثم عنده زيادة التملك .

وقال أبو على حكى أبو بكر بن السراج عن بعض من اختار القراءة بملك : أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كل شىء بقوله : ﴿ رب العالمين ﴾ فلا فائدة فى قراءة من قرأ مالك لأنها تكرار . قال أبو على : ولا حجة فى هذا لأن فى التنزيل أشياء على هذه الصورة ، تقدّم العام ثم ذكر الخاص كقوله : ﴿ هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ ﴾ فالخالق يعم ، وذكر المصور ، لمـا فيه من التنبيه على الصنعة ، ووجود الحكمة ؛ وكما قال تعالى : ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ بعد قوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ والغيب يعم الآخرة وغيرها ؛ ولكن ذكرها لعظمها ، والتنبيه على وجوب اعتقادها ، والرد على الكفرة الجاحدين لها ؛ وكما قال : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ فذكر الرحمن الذى هو عام وذكر الرحيم بعده ، لتخصيص المؤمنين به فى قوله : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾ . وقال أبو حاتم : إن مالكا أبلغ فى مدح الخـالق من ملك ، وملك أبلغ فى مدح المخلوقين من مالك ، والفرق بينهما أن المـالك من المخلوقين قـد يكون غير ملك وإذا كان الله تعـالى مالكا كان ملكا ، واختار هذا القول القاضى أبو بكر بن العربى ؛ وذكر ثلاثة أوجه ؛ الأول : أنك تضيفه إلى الخاص والعام فتقول : مالك الدار والأرض والثوب ، كما تقول : مالك الملوك . الثانى : أنه يطلق على مالك القليل والكثير ؛ وإذا تأملت هـذين القولين وجدتهما واحدا . والثالث : أنك تقول : مالك المُلك ؛ ولا تقول : ملك المُلك . قال ابن الحصار : إنمـا كان

---

(١) هو لبيد بن ربيعة العامرى .

ذلك، لأن المراد من مالك الدلالة على الملك بكسر الميم وهو لا يتضمن الملك بضم الميم، وملك يتضمن الأمرين جميعا، فهو أولى بالمبالغة؛ ويتضمن أيضا الكمال، ولذلك آستحق الملك على من دونه؛ ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾، ولهذا قال عليه السلام: "الإمامة فى قريش" وقريش أفضل قبائل العرب؛ والعرب أفضل من العجم وأشرف؛ ويتضمن الاقتدار، والاختيار، وذلك أمر ضرورى فى الملك إن لم يكن قادرا مختارا نافذا حكمه وأمره، قهره عدوه، وغلبه غيره، وازدرته رعيته؛ ويتضمن البطش والأمر والنهى والوعد والوعيد؛ ألا ترى إلى قول سليمان عليه السلام: ﴿مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ. لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إلى غير ذلك من الأمور العجيبة، والمعانى الشريفة، التى لا توجد فى المالك.

قلت: وقد احتج بعضهم على أن مالكا أبلغ لأن فيه زيادة حرف؛ فلقارئه عشر حسنات زيادة عمن قرأ ملك. قلت: هذا نظر الى الصيغة لا إلى المعنى، وقد ثبتت القراءة بملك، وفيه من المعنى ما ليس فى مالك، على ما بينا والله أعلم.

السادسة عشرة — لا يجوز أن يتسمى أحد بهذا الاسم ولا يدعى به إلا الله تعالى؛ روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟" وعنه أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم: "إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك" زاد مسلم: «لا مالك إلا الله عز وجل» قال سفيان: مثل: شاهان شاه. وقال أحمد بن حنبل: سألت أبا عمرو الشيبانى عن أخنع؛ فقال: أوضع. وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل تسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله سبحانه". قال ابن الحصار: وكذلك ملك يوم الدين، ومالك الملك؛ لا ينبغى أن يختلف فى أن هذا محرم على جميع المخلوقين كتحريم ملك الأملاك سواء، وأما الوصف بمالك وملك وهى:

السابعة عشرة — فيجوز أن يوصف بهما من آتصف بمفهومهما؛ قال الله العظيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾. وقال صلى الله عليه وسلم: "ناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة".

الثامنة عشرة ــ إن قال قائل : كيف قال « مالك يوم الدين» ويوم الدين لم يوجد بعد ، فكيف وصف نفسه بملك ما لم يوجده ؟ قيل له : اعلم أن مالكا اسم فاعل من ملك يملك، واسم الفاعل في كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده وهو بمعنى الفعل المستقبل ويكون ذلك عندهم كلاما سديدا معقولا صحيحا، كقولك: هذا ضارب زيد غدا ؛ أى سيضرب زيدا . وكذلك: هذا حاج بيت الله في العام المقبل، تأويله سيحج في العام المقبل؛ أفلا ترى أن الفعل قد ينسب اليه وهو لم يفعله بعد، وإنما أريد به الاستقبال ؛ فكذلك قوله عز وجل : ﴿مالك يوم الدين﴾ على تأويل الاستقبال، أى سيملك يوم الدين أو في يوم الدين إذا حضر .

ووجه ثان : أن يكون تأويل المالك راجعا إلى القدرة ؛ أى أنه قادر في يوم الدين، أو على يوم الدين وأحداثه، لأن المالك للشيء هو المتصرف في الشيء والقادر عليه؛ والله عز وجل مالك الأشياء كلها ومصرفها على إرادته، لا يمتنع عليه منها شيء .

والوجه الأول أمس بالعربية وأنفذ في طريقها؛ قاله أبو القاسم الزجاجي .

ووجه ثالث : فيقال لم خصص يوم الدين وهو مالك يوم الدين وغيره ؟ قيل له : لأن في الدنيا كانوا منازعين في الملك، مثل: فرعون، ونمروذ، وغيرهما، وفي ذلك اليوم لا ينازعه أحد في ملكه، وكلهم خضعوا له ، كما قال تعالى: ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فأجاب جميع الخلق: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ فلذلك قال: مالك يوم الدين؛ أى في ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاض ولا مجاز غيره؛ سبحانه لا إله إلا هو .

التاسعة عشرة ــ إنْ وُصف الله سبحانه بأنه ملك كان ذلك من صفات ذاته، وإنْ وُصف بأنه مالك كان ذلك من صفات فعله .

الموفية العشرين ــ اليوم : عبارة عن وقت طلوع الفجر الى وقت غروب الشمس ، فاستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الدارين فيهما، وقد يطلق اليوم على الساعة منه؛ قال الله تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وجمع يوم أيام؛ وأصله أيوام فأدغم؛ وربما عبروا عن الشدة باليوم، يقال : يوم أيوم، كما يقال : ليلة ليلاء . قال الراجز[1] :

* نعم أخو الهيجاء في اليوم اليمي *

---

(١) هو أبو الأخزر الحماني كما في اللسان مادة «يوم» .

وهو[1] مقلوب منه، أخر الواو وقدّم الميم ثم قلبت الواو ياء حيث صارت طرفا ؛ كما قالوا : أدل فى جمع دلو .

الحادية والعشرون — الدّين : الجزاء على الأعمال والحساب بها، كذلك قال ابن عباس، وابن مسعود، وابن جريج، وقتادة، وغيرهم . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ . أى حسابهم . وقال : ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ و﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ . وقال : ﴿أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ . أى مجزيون محاسبون . وقال لبيد :

حصادك يوما ما زرعت وإنما * يدان الفتى يوما كما هو دائن

آخر :

إذا ما رمونا رميناهم * ودناهم مثل ما يقرضونا

آخر :

وأعلم يقينا[2] أن ملكك زائل * وأعلم بأنّ كما تدين تدان

وحكى أهل اللغة : دنته بفعله دينا بفتح الدال ودينا بكسرها جزيته ؛ ومنه الديّان فى صفة الرب تعالى أى المجازى؛ وفى الحديث : "الكيّس من دان نفسه" أى حاسب؛ وقيل : القضاء . روى عن ابن عباس أيضا، ومنه قول طرفة :

لعمرك ما كانت حكومة معبد * على جدّها حربا لدينك من مضر

ومعانى هذه الثلاثة متقاربة . والدين أيضا : الطاعة ؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم :

وأيام لنا غرٌّ طوال * عصينا الملْك فيها أن ندينا

فعلى هذا هو لفظ مشترك وهى

---

(١) وهو أى اليمى .

(٢) فى اللسان مادة (دين) : « قال خويلد بن نوفل الكلابى، للحارث بن أبى شمر الغسانى وكان قد اغتصبه ابنته :

يا سار أيقن أن ملكك زائل * ... ... الخ

الثانية والعشرون ــ قال ثعلب : دان الرجل إذا أطاع ، ودان إذا عصى ، ودان إذا عز ، ودان إذا ذل ، ودان إذا قهر ، فهو من الأضداد . ويطلق الدّين على العادة والشأن ، كما قال :

* كدينك من أم الحُوَيْرِث قبلها *

وقال المثقّب :

تقول إذا درأت لها وضينى * أهــذا دينه أبدا ودينى

والدين : سيرة الملك . قال زهير :

لئن حللت بجو فى بنى أســد * فى دين عمرو وحالت بيننا فدك

أراد فى موضع طاعة عمرو ، والدين : الداء ، عن اللحيانى وأنشد :

* يادين قلبك من سلمى وقد دينا *

الثالثــة والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ . رجع من الغيبة الى الخطاب على التلوين ؛ لأن من أول السورة إلى هاهنا خبرا عن الله تعالى وثناء عليه كقوله : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ . ثم قال : ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ﴾ . وعكسه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ على ما يأتى . و « نعبد » : معناه نطيع ، والعبادة : الطاعة والتذلل ، وطريق مُعَبَّد ، إذا كان مذللا للسالكين ، قاله الهروىّ . ونطق المكلف به إقرار بالربوبية ، وتحقيق لعبادة الله تعالى ؛ إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . أى نطلب العون والتأييد والتوفيق .

قال السلمىّ فى حقائقه : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص الفرغانىّ يقول : من أقرّ بإياك نعبد وإياك نستعين ، فقد برئ من الجبر والقَدَر .

الرابعة والعشرون ــ إن قيل : لم قدّم المفعول على الفعل؟ قيل له : قدّم اهتماما ، وشأن العرب تقــديم الأهم . يذكر أن أعرابيا سب آخر فأعرض المسبوب عنه ، فقال له الساب : إياك أعنى فقال له الآخر : وعنك أعرض ، فقدّما الأهم ؛ وأيضا لئلا يتقدّم ذكر العبد والعبادة على المعبود ؛ فلا يجوز نعبدك ونستعينك ، ولا نعبد إياك ونستعين إياك فيقدّم الفعل على كناية المفعول ، وانما يتبع لفظ القرآن . وقال العجاج :

إياك أدعـــو فتقبــل ملقى * واغفر خطاياى وكثر ورقى

ويروى وثمر . وأما قول الشاعر :

* اليك حتى بلغت إياكا *

فشاذ لا يقاس عليه . والورق بكسر الراء من الدراهم وبفتحها : المال، وكرر الاسم لئلا يتوهم إياك نعبد ونستعين غيرك .

الخامسة والعشرون — الجمهور من القرّاء والعلماء على شدّ الياء من إياك فى الموضعين، وقرأ عمرو ابن واقد : إياك بكسر الهمزة وتخفيف الياء وذلك أنه كره تضعيف الياء لثقلها وكون الكسرة قبلها؛ وهذه قراءة مرغوب عنها، فإن المعنى يصير شمسك نعبد أو ضوءك؛ وإياة الشمس بكسر الهمزة : ضوءها وقد تفتح . وقال[1] :

سقته إياةُ الشمس إلا لثاته * أُسِفَّ فلم تَكْدِمْ عليه بإثْمِد

فان أسقطت الهاء مددت . ويقال : الإياة للشمس، كالهالة للقمر، وهى الدارة حولها . وقرأ الفضل الرقاشىّ : أياك بفتح الهمزة وهى لغة مشهورة، وقرأ أبو السوّار الغنوى : هياك فى الموضعين وهى لغة؛ قال :

فَهِيَّاكَ والأمرَ الذى إن توسعت * موارده ضاقت عليك مصادره

السادسة والعشرون — ﴿وإيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عطف جملة على جملة ؛ وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش: نِستعين بكسر النون، وهى لغة تميم، وأسد، وقيس، وربيعة، ليدل على أنه من استعان، فكسرت النون كما تكسر ألف الوصل . وأصل نستعين نستعون، قلبت حركة الواو إلى العين، فصارت ياء، والمصدر استعانة؛ والأصل استعوان ؛ قلبت حركة الواو إلى العين فانقلبت ألفا ولا يلتقى ساكنان فحذفت الألف الثانية، لأنها زائدة، وقيل الأولى، لأن الثانية للمعنى، ولزمت الهاء عوضا .

السابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ المستقيمَ﴾ . اهدنا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب ؛ والمعنى دلنا على الصراط المستقيم، وأرشدنا اليه، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقربك . قال بعض العلماء : فجعل الله جل وعز عظم الدعاء وجملته موضوعا فى هذه السورة، نصفها فيه مجمع الثناء، ونصفها فيه مجمع الحاجات، وجعل هذا الدعاء الذى فى هذه السورة أفضل من

(١) قائله طرفة بن العبد .

الذى يدعو به [الداعى] لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين، فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذى تكلم به؛ وفى الحديث : "ليس شىء أكرم على الله من الدعاء" وقيل المعنى أرشدنا باستعمال السنن فى أداء فرائضك ؛ وقيل الأصل فيه الإمالة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ . أى ملنا؛ وخرج عليه السلام فى مرضه يتهادى بين آثنين : أى يتمايل؛ ومنه الهدية لأنها تمال(١) من ملك إلى ملك . ومنه الهدى للحيوان الذى يساق إلى الحرم ؛ فالمعنى مل بقلوبنا الى الحق . وقال الفضيل بن عياض : الصراط المستقيم طريق الحج وهذا خاص، والعموم أولى ؛ قال محمد بن الحنفية فى قوله عز وجل : إهدنا الصراط المستقيم : هو دين الله الذى لا يقبل من العباد غيره . وقال عاصم الأحول عن أبى العالية : الصراط المستقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصاحباه من بعده ؛ قال عاصم : فقلت للحسن : إن أبا العالية يقول : الصراط المستقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه ؛ قال : صدق ونصح .

الثامنة والعشرون ــ أصل الصراط فى كلام العرب : الطريق؛ قال عامر بن الطفيل :

شحنا أرضهم بالخيل حتى * تركناهم أذل من الصراط

وقال جرير :

أمير المؤمنين على صراط * إذا آعوج الموارد مستقيم

وقال آخر :

* فصدّ عن نهج الصراط الواضح *

وحكى النقاش : الصراط : الطريق بلغة الروم؛ قال ابن عطية : وهذا ضعيف جدًّا، وقرئ : السراط بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع ؛ كأن الطريق يسترط من يسلكه . وقرئ بين الزاى والصاد؛ وقرئ بزاى خالصة والسين الأصل؛ وحكى سلمة(٢) عن الفراء قال : الزراط بإخلاص الزاى : لغة لعذرة، وكلب، وبنى القين قال : وهؤلاء يقولون [فى أصدق] : أزدق . وقد قالوا : الأَزْد فى الأسد والأُزْد [فى الأُسد]، ولزق به فى لصق به . والصراط نصب على المفعول الثانى لأن الفعل من الهداية يتعدّى إلى المفعول الثانى بحرف جر؛ قال الله تعالى : ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ . وبغير حرف كما

(١) فى نسخة : « تهاد » . (٢) فى نسخة : « مسلمة » .

فى هذه الآية . المستقيم صفة للصراط، وهو الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ . وأصله مستقوم، نقلت الحركة إلى القاف وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها .

التاسعة والعشرون — ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ . صراط بدل من الأول بدل الشيء من الشيء؛ كقولك : جاءنى زيد أبوك ؛ ومعناه[1] : أدم هدايتنا، فإن الإنسان قد يهدى إلى الطريق ثم يقطع به ، وقيل : هو صراط آخر ومعناه العلم بالله جلّ وعزّ والفهم عنه ؛ قاله جعفر بن محمد . ولغة القرآن الذين فى الرفع والنصب والجر؛ وهذيل تقول: اللذون فى الرفع، ومن العرب من يقول: اللذون، ومنهم من يقول : الذى[2] وسيأتى .

وفى عليهم عشر لغات: قرئ بعامتها عليهُمْ بضم الهاء وإسكان الميم، وعليهِمْ بكسر الهاء وإسكان الميم ، وعليهِمِى بكسر الهاء والميم وإلحاق ياء بعد الكسرة، وعليهِمُو بكسر الهاء وضم الميم وزيادة واو بعد الضمة، وعليهُمُو بضم الهاء والميم كلتيهما وإدخال واو بعد الميم، وعليهُمُ بضم الهاء والميم من غير زيادة واو ؛ وهذه الأوجه الستة مأثورة عن الأئمة من القراء . وأوجه أربعة منقولة عن العرب، غير محكية عن القراء : عليهُمِى بضم الهاء وكسر الميم وإدخال ياء بعد الميم، حكاها الحسن[3] البصرى عن العرب؛ وعليهُمِ بضم الهاء وكسر الميم من غير زيادة ياء، وعليهِمُ بكسر الهاء وضم الميم من غير إلحاق واو، وعليهِمِ بكسر الهاء والميم ولا ياء بعد الميم؛ وكلها صواب قاله ابن الأنبارى .

الموفية الثلاثين — قرأ عمر بن الخطاب، وابن الزبير رضى الله عنهما صراط من أنعمت عليهم، واختلف الناس فى المنعم عليهم ؛ فقال الجمهور من المفسرين : إنه أراد صراط النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ؛ وانتزعوا ذلك من قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ . فالآية تقتضى أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب فى آية الحمد ؛ وجميع ما قيل إلى هذا يرجع، فلا معنى لتعديد الأقوال والله المستعان .

الحادية والثلاثون — فى هذه الآية ردّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية، لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية فى صدور أفعاله منه ؛ طاعة كانت أو معصية ؛ لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله ، فهو غير

---

(١) أى قوله تعالى اهدنا وما بعده . (٢) أى اقرادا وجمعا فى الرفع والنصب والجر كما يؤخذ من لسان العرب .
(٣) فى نسخة : « الأخفش البصرى » .

محتاج فى صدورها عنه إلى ربه؛ وقد أكذبهم الله تعالى فى هذه الآية، إذ سألوه الهداية الى الصراط المستقيم؛ فلو كان الأمر اليهم، والاختيار بيدهم دون ربهم، لما سألوه الهداية، ولا كرروا السؤال فى كل صلاة؛ وكذلك تضرعهم اليه فى دفع المكروه، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا : ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ فكما سألوه أن يهديهم سألوه ألا يضلهم، وكذلك يدعون فيقولون : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ الآية .

الثانيــة والثلاثون ــ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ . اختلف فى المغضوب عليهــم والضالين، من هم ؟ فالجمهور : أن المغضوب عليهم : اليهود، والضالين : النصارى ؛ وجاء ذلك مفسرا عن النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث عدى بن حاتم، وقصة إسلامه، أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده، والترمذى فى جامعه، وشهد لهذا التفسير أيضا قوله سبحانه فى اليهود : ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، وقال فى النصارى : ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ . وقيل : المغضوب عليهم، المشركون . والضالين، المنافقون . وقيل : المغضوب عليهم، هو من أسقط فرض هذه السورة فى الصلاة؛ والضالين عن بركة قراءتها ؛ حكاه السلمى فى حقائقه، والماوردى فى تفسيره ــ وليس بشيء ــ قال المــاوردى : وهذا وجه مردود، لأن ما تعارضت فيه الأخبار ، وتقابلت فيه الآثار ، وانتشر فيه الخلاف، لم يجز أن يطلق عليه هذا الحكم . وقيل : المغضوب عليهــم باتباع البدع ، والضالين عن سنن الهدى . قال الشيخ المؤلف رحمه الله : وهذا حسن؛ وتفسير النبي صلى الله عليه وسلم أولى وأعلى وأحسن . وعليهم فى موضع رفع، لأن المعنى غُضب عليهم، والغضب فى اللغة : الشدة؛ ورجل غضوب أى شديد الخلق. والغضوب : الحيّة الخبيثة، لشدّتها والغضبة : الدرقة من جلد البعير يطوى بعضها على بعض؛ سميت بذلك لشدّتها . ومعنى الغضب فى صفة الله تعالى إرادة ، فهو صفة ذاته ، وإرادة الله تعالى من صفات ذاته؛ أو نفس العقوبة ومنه الحديث : "إن الصدقة لتطفئ غضب الرب" فهو صفة فعل .

الثالثة والثلاثون ــ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الضلال فى كلام العــرب هو الذهاب عن سنن القصــد وطريق الحق ، ومنه : ضل اللبن فى المــاء أى غاب . ومنه : ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أى غبنا بالموت وصرنا ترابا؛ قال :

ألم تسأل فتخبرك الديار * عن الحى المضلل أين ساروا

والضلضلة : حجر أملس يردّده الماء فى الوادى ؛ وكذلك الغضبة : صخرة فى الجبل مخالفة لونه ، قال :

* وغضبة فى هضبة ما أمنعا *

الرابعة والثلاثون — قرأ عمر بن الخطاب ، وأبىّ بن كعب ﴿غير المغضوب عليهم وغير الضالين﴾ وروى عنهما فى الراء النصب والخفض فى الحرفين ؛ فالخفض على البدل من الذين أو من الهاء والميم فى عليهم ؛ أو صفة للذين والذين معرفة ولا توصف المعارف بالنكرات ولا النكرات بالمعارف ، إلا أن الذين ليس بمقصود قصدهم فهو عام ؛ فالكلام بمنزلة قولك : إنى لأمُرّ بمثلك فأكرمه ؛ أو لأن غير تعرّفت لكونها بين شيئين لا وسط بينهما ، كما تقول : الحىّ غير الميت ، والساكن غير المتحرك ، والقائم غير القاعد ، قولان : الأوّل للفارسىّ ، والثانى للزمخشرىّ . والنصب فى الراء على وجهين : على الحال من الذين ، أو من الهاء والميم فى عليهم ، كأنك قلت : أنعمت عليهم لا مغضوبا عليهم أو على الاستثناء ؛ كأنك قلت : إلا المغضوب عليهم . ويجوز النصب بأعنى وحكى عن الخليل .

الخامسة والثلاثون — لا ؛ فى قوله ﴿ ولا الضالين ﴾ اختلف فيها ، فقيل هى زائدة قاله الطبرىّ . ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ وقيل : هى تأكيد دخلت لئلا يتوهم أن الضالين معطوف على الذين ، حكاه مكىّ ، والمهدوىّ . وقال الكوفيون : لا ، بمعنى غير وهى قراءة عمر وأبىّ وقد تقدّم .

السادسة والثلاثون — الأصل فى الضالين : الضاللين حذفت حركة اللام الأولى ثم أدغمت اللام فى اللام فاجتمع ساكنان مدّة الألف واللام المدغمة . وقرأ أيوب السختيانىّ : ولا الضألين بهمزة غير ممدودة كأنه فرّ من التقاء الساكنين وهى لغة . حكى أبو زيد قال : سمعت عمرو بن عبيد يقرأ : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَأْنٌّ ﴾ . فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب : دأبة وشأبة ؛ قال أبو الفتح : وعلى هذه اللغة قول كُثَيِّر :

* إذا ما الغوالى بالعبيط احمأرّت *

تمّ تفسير سورة الحمد ، ولله الحمد والمنة .

تفسير سورة البقرة

بحول الله، وكرمه لاربّ سواه .

وأوّل مبدوء به، الكلام فى نزولها، وفضلها، وما جاء فيها؛ وهكذا كل سورة إن وجدنا لها ذلك؛ فنقول :

سورة البقرة مدنية، نزلت فى مدد شتّى؛ وقيل: هي أوّل سورة نزلت بالمدينة، إلا قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فإنه آخر آية نزلت من السماء، ونزلت يوم النحر فى حجة الوداع بمنى؛ وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن .

وهذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم؛ ويقال لها : فسطاط القرآن؛ قاله خالد بن مَعْدان؛ وذلك لعظمها وبهائها، وكثرة أحكامها ومواعظها؛ وتعلّمها عمر رضى الله عنه بفقهها وما تحتوى عليه فى اثنتى عشرة سنة، وابنه عبد الله فى ثمانى سنين كما تقدم .

قال ابن العربى : سمعت بعض أشياخى يقول : فيها ألف أمر، وألف نهى، وألف حكم، وألف خبر؛ وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا وهم ذوو عدد وقدّم عليهم أحدثهم سنا، لحفظه سورة البقرة؛ وقال له : "اذهب فأنت أميرهم" أخرجه الترمذى عن أبى هريرة، وصححه. وروى مسلم عن أبى أمامة الباهلى قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "اقرءوا سورة البقرة فإنّ أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة " قال معاوية : بلغنى أن البطلة : السحرة . وروى أيضا عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر[1] من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة" وروى الدارمىّ عن عبد الله قال : ما من بيت يقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط . وقال : إن لكل شىء سناما، وإن سنام القرآن سورة البقرة ؛ وإن لكل شىء لُبابا وإن لباب القرآن المفصّل ؛ قال أبو محمد الدارمىّ : اللُّباب : الخالص. وفى صحيح البستى عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لكل شىء سناما وإن سنام القرآن سورة البقرة ومن قرأها فى بيته ليلا لم يدخل الشيطان بيته ثلاث

(١) فى رواية : «يفر» .

ليال ومن قرأها نهارا لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام" . قال أبو حاتم البستى : قوله صلى الله عليه وسلم : "لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام" أراد : مردة الشياطين . وروى الدارمى فى مسنده عن الشعبى قال : قال عبد الله : من قرأ عشر آيات من سورة البقرة فى ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يصبح ، أربعا من أولها وآية الكرسى وآيتين بعدها وثلاثا خواتيمها ، أولها : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ . وعن الشعبى عنه لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شىء يكرهه ، ولا يقرأن على مجنون إلا أفاق . وقال : المغيرة بن سبيع : — وكان من أصحاب عبد الله — لم ينس القرآن . وقال إسحاق بن عيسى : لم ينس ما قد حفظ . قال أبو محمد الدارمى : منهم من يقول : المغيرة بن سميع .

وفى كتاب الاستيعاب لابن عبد البر : وكان لبيد بن ربيعة [بن عامر][1] بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من شعراء الجاهلية ، أدرك الإسلام فحسن إسلامه وترك قول الشعر فى الإسلام ، وسأله عمر فى خلافته عن شعره واستنشده ، فقرأ : سورة البقرة ، فقال : إنما سألتك عن شعرك ، فقال : ما كنت لأقول بيتا من الشعر بعد إذ علمنى الله البقرة وآل عمران ، فأعجب عمر قوله ، وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة . وقد قال كثير من أهل الأخبار : إن لبيدا لم يقل شعرا منذ أسلم . وقال بعضهم : لم يقل فى الإسلام إلا قوله :

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى * حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

قال ابن عبد البر : وقد قيل إن هذا البيت لقَرَدَة بن نُفَاثَة السلولى ، وهو أصح عندى ، وقال غيره : بل البيت الذى قاله فى الإسلام :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه * والمرء يصلحه القرين الصالح

وسيأتى ماورد فى آية الكرسى وخواتيم البقرة ، ويأتى فى أول سورة آل عمران زيادة بيان لفضل هذه السورة إن شاء الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر وأعن .

قوله تعالى : ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ الآية . اختلف أهل التأويل فى الحروف التى فى أوائل السور ، فقال عامر الشعبى ، وسفيان الثورى ، وجماعة من المحدثين : هى سر الله فى القرآن ، ولله فى كل كتاب

---

(١) الزيادة عن كتاب الاستيعاب (ج ١ ص ٢٣٥) طبع الهند .

من كتبه سر، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه، ولا يجوز أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت؛ وروى هذا القول عن أبي بكر الصديق، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما. وذكر أبو الليث السَّمَرْقندي عن عمر، وعثمان، وابن مسعود، أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر. وقال أبو حاتم: لم نجد الحروف المقطعة في القرآن إلا في أوائل السور؛ ولا ندري ما أراد الله جل وعز بها.

قلت: ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنباري: حدثنا الحسن بن الحباب حدثنا أبو بكر بن أبي طالب حدثنا أبو المنذر الواسطي عن مالك بن مِغْول عن سعيد بن مسروق عن الربيع بن خيثم قال: إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ما شاء، وأطلعكم على ما شاء؛ فأما ما استأثر به لنفسه فلستم بنائليه، فلا تسألوا عنه، وأما الذي أطلعكم عليه فهو الذي تسألون عنه، وتخبرون به، وما بكل القرآن تعلمون، ولا بكل ما تعلمون تعملون. قال أبو بكر: فهذا يوضح أن حروفا من القرآن سترت معانيها عن جميع العالم، اختبارا من الله عز وجل وامتحانا؛ فمن آمن بها أثيب وسعد، ومن كفر وشك أثم وبعد. حدثنا أبو يوسف بن يعقوب القاضي حدثنا محمد بن أبي بكر حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن الأعمش عن عمارة عن حريث بن ظُهَيْر عن عبد الله قال: ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب؛ ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

قلت: هذا القول في المتشابه وحكمه، وهو الصحيح على ما يأتي بيانه في آل عمران إن شاء الله تعالى. وقال جمع من العلماء كبير: بل يجب أن نتكلم فيها، ونلتمس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تتخرج عليها؛ واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة؛ فروى عن ابن عباس وعلي أيضا: أن الحروف المقطعة في القرآن اسم الله الأعظم، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها. وقال قطرب والفراء وغيرهما: هي إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم؛ إذ لم يخرج عن كلامهم. قال قطرب: كانوا ينفرون عند استماع القرآن؛ فلما سمعوا: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾؛ استنكروا هذا اللفظ؛ فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم. وقال قوم: روى أن المشركين لما أعرضوا عن سماع القرآن بمكة وقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا

لَهَٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَٱلْغَوْا فِيهِ ﴾ نزلت ليستغربوها فيفتحون لها أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة . وقال جماعة : هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها، كقول ابن عباس وغيره : الألف من الله ، واللام من جبريل، والميم من محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الألف مفتاح اسم الله ، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد . وروى أبو الضُّحَى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ الٓمٓ ﴾ قال : أنا الله أعلم . ﴿ الٓرٰ ﴾ أنا الله أرى . ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ أنا الله أفصل . فالألف تؤدّى عن معنى أنا، واللام تؤدّى عن اسم الله ، والميم تؤدّى عن معنى أعلم . واختار هذا القول الزجاج وقال : أذهب الى أن كل حرف منها يؤدّى عن معنى ؛ وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظما لها ووضعا بدل الكلمات التى الحروف منها ؛ كقوله :

* فقلت لها قفى فقالت قاف *

أراد : قالت وقفت . وقال زهير :

بالخير خيرات وإن شرًّا فا * ولا أريد الشر إلا أنْ تا

أراد : وإن شرا فشر . وأراد : إلا أن تشاء .

وقال :

نادوهم ألَا الجموا ألَاتَا * قالوا جميعا كلهم ألَافَا

أراد : ألا تركبون، قالوا : ألا فاركبوا . وفى الحديث : "من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة" قال شقيق : هو أن يقول فى اقتل : اق كما قال عليه السلام: "كفى بالسيف شا" معناه : شافيا .

وقال زيد بن أسلم : هى أسماء للسور . وقال الكلبي : هى أقسام أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلها، وهى من أسمائه عن ابن عباس أيضا . وردّ بعض العلماء هذا القول فقال : لا يصح أن يكون قسما لأن القسم معقود على حروف مثل: إن وقد ولقد وما؛ ولم يوجد هاهنا حرف من هذه الحروف، فلا يجوز أن يكون يمينا(1). والجواب أن يقال: موضع القسم قوله تعالى: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فلو أن إنسانا حلف فقال : والله هذا الكتاب لا ريب فيه ؛ لكان الكلام سديدا ؛ وتكون لا، جواب القسم : فثبت أن قول الكلبي وما روى عن ابن عباس سديد صحيح .

(1) فى نسخة : «قسما» .

فإن قيل : ما الحكمة فى القسم من الله تعالى ؟ وكان القوم فى ذلك الزمان على صنفين : مصدق، ومكذب، فالمصدق يصدق بغير قسم، والمكذب لا يصدق مع القسم .

قيل له : القرآن نزل بلغة العرب، والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه ؛ والله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة، فأقسم أن القرآن من عنده . وقال بعضهم : ﴿ الۤمۤ ﴾ أى أنزلت عليك هذا الكتاب من اللوح المحفوظ . وقال قتادة فى قوله : ﴿ الۤمۤ ﴾ قال : اسم من أسماء القرآن . وروى عن محمد بن على الترمذى أنه قال : إن الله تعالى أودع جميع ما فى تلك السورة من الأحكام والقصص فى الحروف التى ذكرها فى أول السورة ؛ ولا يعرف ذلك إلا نبى أو ولى، ثم بين ذلك فى جميع السور ليفقه الناس . وقيل غير هذا من الأقوال؛ فالله أعلم .

والوقف على هذه الحروف على السكون لنقصانها إلا إذا أخبرت عنها أو عطفتها فإنك تعربها ؛ واختلف : هل لها محل من الإعراب؟ فقيل : لا، لأنها ليست أسماء متمكنة، ولا أفعالا مضارعة؛ وإنما هى بمنزلة حروف التهجى فهى محكية؛ هذا مذهب الخليل وسيبويه . ومن قال : إنها أسماء السور فموضعها عنده الرفع على أنها عنده خبر ابتداء مضمر؛ أى هذه ﴿ الۤمۤ ﴾ كما تقول هذه سورة البقرة، أو تكون رفعا على الابتداء والخبر ذلك ؛ كما تقول : زيد ذلك الرجل . وقال ابن كيسان النحوى : ﴿ الۤمۤ ﴾ فى موضع نصب؛ كما تقول : اقرأ ﴿ الۤمۤ ﴾ أو عليك ﴿ الۤمۤ ﴾ وقيل : فى موضع خفض بالقسم لقول ابن عباس : إنها أقسام أقسم الله بها .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ قيل : المعنى هذا الكتاب، وذلك قد تستعمل فى الإشارة إلى حاضر، وإن كان موضوعا للإشارة إلى غائب، كما قال تعالى فى الإخبار عن نفسه جل وعز : ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ؛ ومنه قول خفاف بن ندبة :

أقول له والرمح يأطر متنه * تأمل خفافا إننى أنا ذلكا

أى أنا هذا، فذلك إشارة إلى القرآن، موضوع موضع هذا؛ تلخيصه : الۤمۤ هذا الكتاب لا ريب فيه ؛ وهذا قول أبى عبيدة، وعكرمة، وغيرهما ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أى هذه ؛ لكنها لما انقضت صارت كأنها بعدت ؛ فقيل

تلك . وفى البخارى وقال معمر : ذلك الكتاب، هـذا القرآن هدى للتقين بيـان ودلالة كقوله : ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ . هذا حكم الله .

قلت : وقد جاء هـذا بمعنى ذلك ؛ ومنه قوله عليه السلام فى حديث أم حرام : "يركبون ثبج هذا البحر" أى ذلك البحر ؛ والله أعلم . وقيل هو على بابه إشارة على غائب .

واختلف فى ذلك الغائب على أقوال عشرة؛ فقيل : ذلك الكتاب، أى الكتاب الذى كتبت على الخلائق بالسعادة والشقاوة والأجل والرزق لا ريب فيه أى لا مبدل له . وقيل : ذلك الكتاب، أى الذى كتبت على نفسى فى الأزل، أن رحمتى سبقت غضبى . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب على نفسه فهو موضوع عنده أن رحمتى تغلب غضبى" فى رواية : «سبقت» . وقيل: إن الله تعالى قد كان وعدنبيه عليه السلام أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه المـاء ؛ فأشار الى ذلك الوعد كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهـل الكتاب وقال انمـا بعثتك لأبتليك وأبتلى بك وأنزلت عليـك كتابا لا يغسله المـاء تقرؤه نائما ويقظانا" الحديث. وقيل: الإشارة الى ما قد نزل من القرآن بمكة. وقيل : إن الله تبارك وتعالى لمـا أنزل على نبيه صلى الله عليـه وسلم بمكة : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ لم يزل رسـول الله صلى الله عليه وسـلم مستشرفا لإنجاز هذا الوعد من ربه عز وجل ؛ فلمـا أنزل عليه بالمدينة : ﴿الٓمٓ . ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ كان فيه معنى، هذا القرآن الذى أنزلته عليك بالمدينة، ذلك الكتاب الذى وعدتك أن أوحيه اليك بمكة . وقيل : إن ذلك إشارة الى ما فى التوراة والإنجيل؛ و﴿الٓمٓ﴾ اسم للقرآن؛ والتقدير هذا القرآن : ذلك الكتاب المفسر فى التوراة والإنجيل؛ يعنى أن التوراة والإنجيل يشهدان بصحته ويستغرق ما فيهما ويزيد عليهما ما ليس فيهما . وقيل : إن ذلك الكتاب إشارة إلى التوراة والإنجيل كليهما؛ والمعنى : الٓمٓ ذانك الكتابان أو مثـل ذينك الكتابين ؛ أى هذا القرآن جامع لمـا فى ذينك الكتابين فعبر بذلك عن الإثنين، بشاهد من القرآن؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أى عوان بين تينك : الفارض، والبكر؛ وسيأتى . وقيل إن ذلك إشارة إلى اللوح المحفوظ ؛ وقال الكسائى : ذلك إشارة إلى القرآن الذى فى السماء لم ينزل بعـد .

وقيل : إن الله تعالى قد كان وعد أهل الكتاب أنه ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم كتابا، فالإشارة إلى ذلك الوعد . قال المبرد : المعنى هذا القرآن، ذلك الكتاب الذى كنتم تستفتحون به على الذين كفروا . وقيل : إلى حروف المعجم فى قول من قال : ﴿ الٓمٓ ﴾ الحروف التى تحديتكم بالنظم منها .

والكتاب مصدر من كتب يكتب إذا جمع ؛ ومنه قيل : كتيبة لاجتماعها، وتكتّبت الخيل ، صارت كتائب ؛ وكتبت البغلة، إذا جمعت بين شفرى رحمها بحلقة أو سير ؛ قال :

لا تأمنن فزاريا حلت به ✻ على قلوصك واكتبها بأسيار

والكُتْبَة (بضم الكاف) : الخُرْزَة، والجمع كُتَبٌ، والكَتْبُ : الخَرْز . قال ذو الرمة :

وفراء غرفية اثاى خوارزها ✻ مشلشل ضيعته بينها الكتب

والكتاب : هو خط الكاتب حروف المعجم مجموعة أو متفرقة ؛ وسمى كتابا وإن كان مكتوبا كما قال الشاعر :

تؤمل رجعة منى وفيها ✻ كتاب مثل ما لصق الغراء

والكتاب : الفرض والحكم والقدر، قال الجعدى :

يا ابنة عمى كتاب الله أخرجنى ✻ عنكم وهل أمنعنّ الله ما فعلا

قوله تعالى : ﴿لا ريب﴾ نفى عام ؛ ولذلك نصب الريب به . وفى الريب ثلاثة معان .
أحدها : الشك ؛ قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

ليس فى الحق يا أميمة ريب ✻ إنما الريب ما يقول الجهول

وثانيها : التُّهَمَة؛ قال جميل :

بثينة قالت يا جميل أربتنى ✻ فقلت كلانا يابثين مُرِيب

وثالثها : الحاجة؛ قال (١) :

قضينا من تهامة كل ريب ✻ وخيبر ثم أجمَمْنَا السيوفا

فكتاب الله تعالى لاشك فيه ولا ارتياب؛ والمعنى أنه فى ذاته حق، وأنه منزل من عند الله، وصفة من صفاته، غير مخلوق ولا محدث، وإن وقع ريب للكفار . وقيل : هو خبر ومعناه النهى،

(١) هو كعب بن مالك الأنصارى ؛ كما فى اللسان مادة (ريب) .

أى لا ترتابوا، وتم الكلام، كأنه قال ذلك الكتاب حقا؛ وتقول : رابنى هذا الأمر إذا أدخل عليك شكا وخوفا ؛ وأراب : صار ذا ريبة فهو مريب ورابنى أمره، وريبُ الدهر : صروفه .

قوله تعالى : ﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه ست مسائل .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فيه ﴾ الهاء فى فيه فى موضع خفض بفى . وفيه خمسة أوجه؛ أجودها : فيهِ هُدى، ويليه فيه هُدى بضم الهاء بغير واو[(١)] وهى قراءة الزهرى وسلام أبى المنذر ، ويليه فِيهِى هدى باثبات الياء وهى قراءة ابن كثير، ويجوز فيهُو هـدى بالواو ، ويجوز فيهْ هُدى مدغما؛ وارتفع هدى على الابتداء والخبر فيه ؛ والهدى فى كلام العرب معناه الرشد والبيان، أى فيه كشف لأهل المعرفة ورشد وزيادة بيان وهدى .

الثانية — الهدى هديان : هدى دلالة، وهو الذى تقدر عليه الرسل وأتباعهم، قال الله تعالى : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وقال : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فأثبت لهم الهدى الذى معناه الدلالة والدعوة والتنبيه، وتفرد هو سبحانه بالهدى الذى معناه التأييد والتوفيق، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ فالهدى على هذا يجىء بمعنى خلق الإيمان فى القلب، ومنه قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ . والهدى : الاهتداء ومعناه راجع الى معنى الإرشاد كيفما تصرفت ؛ قال أبو المعالى : وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين الى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها، من ذلك قوله تعالى فى صفة المجاهدين : ﴿ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ معناه فاسلكوهم اليها .

الثالثة — الهدى لفظ مؤنث . قال الفراء : بعض بنى أسد تؤنث الهدى فتقول : هذه هدى حسنة. وقال اللحيانى: هو مذكر، ولم يعرب لأنه مقصور والألف لا تتحرك، ويتعدى بحرف وبغير حرف، وقد مضى فى الفاتحة تقول : هديته الطريق وإلى الطريق، والدار وإلى الدار أى عرفته، الاولى لغة أهل الحجاز والثانية حكاها الأخفش . وفى التنزيل : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ . وقيل: إن الهدى اسم من أسماء النهار، لأن الناس يهتدون فيه لمعايشهم وجميع مآربهم، ومنه قول ابن مقبل :

---

(١) أى بعد الهاء من (فيه) .

[حتى[1] استبلت الهدى والبيد هاجمة * يخشعن في الآل غلفا أو يصلينا]

الرابعة ـ قوله تعالى : ﴿ للمتقين ﴾ خص الله تعالى المتقين بهدايته وإن كان هدى للخلق أجمعين تشريفا لهم، لأنهم آمنوا وصدقوا بما فيه . وروى عن أبي رَوْق أنه قال : هدى للمتقين، أى كرامة لهم، يعني إنما أضاف اليهم إجلالا لهم وكرامة لهم وبيانا لفضلهم . وأصل للمتقين : للموتقيين بياءين مخففتين حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين وأبدلت الواو تاء على أصلهم في اجتماع الواو والتاء وأدغمت التاء في التاء فصار للمتقين .

الخامسة ـ التقوى يقال أصلها في اللغة : قلة الكلام؛ حكاه ابن فارس . قلت : ومنه الحديث : " التقي ملجم والمتقي فوق المؤمن والطائع " وهو الذي يتقي بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى، مأخوذ من اتقاء المكروه بما تجعله حاجزا بينك وبينه؛ كما قال النابغة :

سقط النَّصيفُ ولم ترد إسقاطه * فتناولته واتقتنا باليد

وقال آخر :

فألقت قناعا دونه الشمس واتقت * بأحسن موصولين كف ومعصم

وخرج أبو محمد عبد الغني الحافظ من حديث سعيد بن زَرْبِي أبي عبيدة عن عاصم بن بَهْدَلَة عن زِرِّ بن حُبَيْش عن ابن مسعود قال : قال يوما لابن أخيه : يابن أخي ترى الناس ما أكثرهم؟ قال : نعم؛ قال : لا خير فيهم إلا تائب أو تقي، ثم قال : يابن أخي ترى الناس ما أكثرهم؟ قلت : بلى؛ قال : لا خير فيهم إلا عالم أو متعلم . وقال أبو يزيد البسطامي : المتقي من إذا قال قال لله، ومن إذا عمل عمل لله . وقال أبو سليمان الداراني : المتقون الذين نزع الله عن قلوبهم حب الشهوات . وقيل : المتقي الذي اتقى الشرك وبرئ من النفاق . قال ابن عطية : وهذا فاسد لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق . وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أُبيًّا عن التقوى؛ فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك؟ قال : نعم؛ قال : فما عملت فيه ؟ قال : تشمرت وحذرت؛ قال : فذاك التقوى؛ وأخذ هذا المعنى ابن المعتز فنظمه :

---

(١) هذا البيت ساقط في جميع الأصول؛ والزيادة عن اللسان مادة هدى .

خلّ الذنوب صغيرها * وكبيرها ذاك التقى

واصنع كماش فوق أر * ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرنّ صغيرة * إن الجبال من الحصى

السادسة — التقوى، فيها جماع الخير كله، وهي وصية الله في الأولين والآخرين، وهي خير ما يستفيده الإنسان؛ كما قال أبو الدرداء وقد قيل له إن أصحابك يقولون الشعر وأنت ما حفظ عنك شيء؛ فقال :

يريد المرء أن يؤتى مناه * ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتى ومالى * وتقوى الله أفضل ما آستفادا

وروى ابن ماجه في سننه عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : "ما استفاد المرء[1] بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله" .

والأصل في التقوى : وقوى على وزن فعلى فقلبت الواو تاء من وقيته أقيه أي منعته ؛ ورجل تقى أي خائف ، أصله وقى، وكذلك تقاة كانت في الأصل وقاة كما قالوا : تجاه وتراث ، والأصل وجاه ووراث .

قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ فيها ست وعشرون مسئلة .

الأولى — قوله : ﴿الذين﴾ في موضع خفض نعت للمتقين ، ويجوز الرفع على القطع أي هم الذين، ويجوز النصب على المدح . ﴿يؤمنون﴾ يصدقون ، والإيمان في اللغة : التصديق ، وفي التنزيل : ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ أي بمصدق؛ ويتعدى بالباء واللام؛ كما قال: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾ وروى حجاج بن حجاج الأحول — ويلقب بزق العسل — قال سمعت قتادة يقول : يا آبن آدم ، إن كنت لا تريد أن تأتى الخير إلا عن نشاط فإن نفسك مائلة إلى السآمة والفترة والملة؛ ولكن المؤمن هو المتحامل، والمؤمن هو المتقوى، والمؤمن هو المتشدد، وإن المؤمنين

(١) في الجامع الصغير : «المؤمن» .

هم العجاجون إلى الله الليل والنهار ، والله ما يزال المؤمن يقول : ربنا ربنا فى السر والعلانية حتى استجاب لهم فى السر والعلانية .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ الغيب فى كلام العرب : كل ما غاب عنك ، وهو من ذوات الياء ، يقال منه : غابت الشمس تغيب ، والغيبة معروفة ، وأغابت المرأة فهى مغيبة إذا غاب عنها زوجها ، ووقعنا فى غيبة وغيابة ، أى هبطة من الأرض ، والغيابة : الأجمة ، وهى جماع الشجر يغاب فيها ، ويسمى المطمئن من الأرض : الغيب ، لأنه غاب عن البصر .

الثالثة — واختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا ؛ فقالت فرقة : الغيب فى هذه الآية : الله سبحانه . وضعفه ابن العربى . وقال آخرون : القضاء والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب . وقال آخرون الغيب : كل ما أخبر به الرسول عليه السلام مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة ، وعذاب القبر ، والحشر والنشر ، والصراط والميزان ، والجنة والنار . قال ابن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها .

قلت : وهذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبى صلى الله عليه وسلم : "فأخبرنى عن الإيمان" قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ؛ قال : "صدقت" وذكر الحديث . وقال عبد الله بن مسعود : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾

قلت : وفى التنزيل : ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ وقال : ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ ، فهو سبحانه غائب عن الأبصار ، غير مرئى فى هذه الدار ، غير غائب بالنظر والاستدلال ؛ فهم يؤمنون أن لهم ربا قادرا يجازى على الأعمال ، فهم يخشونه فى سرائرهم ، وخلواتهم التى يغيبون فيها عن الناس ، لعلمهم باطلاعه عليهم ؛ وعلى هذا تتفق الآى ولا تتعارض ؛ والحمد لله .

وقيل بالغيب ، أى بضمائرهم وقلوبهم ، بخلاف المنافقين ؛ وهذا قول حسن . وقال الشاعر :

وبالغيب آمنا وقد كان قومنا * يصلون للأوثان قبل محمد

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ معطوف جملة على جملة ؛ وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيآتها فى أوقاتها على ما يأتى بيانه ؛ يقال : قام الشيء أى دام وثبت ؛ وليس من القيام على الرجل ؛ وإنما هو من قولك : قام الحق أى ظهر وثبت ؛ قال الشاعر :

* وقامت الحرب بنا على ساق *

وقال آخر :

وإذا يقال أتيتم لم يبرحوا * حتى تقيم الخيل سوق طعان

وقيل : يقيمون : يديمون ، وأقامه : أى أدامه ؛ وإلى هذا المعنى أشار عمر بقوله : من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع .

الخامسة — إقامة الصلاة معروفة ؛ وهى سنة عند الجمهور ، ولا إعادة على تاركها ؛ وعند الأوزاعى ، وعطاء ، ومجاهد ، وابن أبى ليلى ، هى واجبة وعلى من تركها الإعادة ؛ وبه قال أهل الظاهر . وروى عن مالك ، واختاره ابن العربى قال : لأن فى حديث الأعرابى : "وأقم" فأمره بالإقامة كما أمره بالتكبير والاستقبال والوضوء .

قال : فأما أنتم الآن وقد وقفتم على الحديث ؛ فقد تعين عليكم أن تقولوا بإحدى روايتى مالك الموافقة للحديث وهى أن الإقامة فرض . قال ابن عبد البر قوله صلى الله عليه وسلم : "وتحريمها التكبير" دليل على أنه لم يدخل فى الصلاة من لم يحرم ، فما كان قبل الإحرام فحكمه ألا تعاد منه الصلاة إلا أن يجمعوا على شيء فيسلم للإجماع كالطهارة والقبلة والوقت ونحو ذلك ؛ وقال بعض علمائنا : من تركها عمدا أعاد الصلاة ، وليس ذلك لوجوبها إذ لو كان ذلك لاستوى سهوها وعمدها ، وإنما ذلك للاستخفاف بالسنن والله أعلم .

السادسة — واختلف العلماء فيمن سمع الإقامة هل يسرع أو لا ؟ فذهب الأكثر إلى أنه لا يسرع وإن خاف فوت الركعة لقوله عليه السلام : "إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون عليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا" رواه أبو هريرة أخرجه مسلم ، وعنه أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا ثُوِّبَ بالصلاة فلا يسعى إليها أحدكم ولكن ليمش وعليه السكينة والوقار ، صَلِّ ما أدركت واقْضِ ما سبقك" وهذا نص ؛ ومن جهة المعنى أنه

إذا أسرع انبهر فشوش عليه دخوله فى الصلاة وقراءتها وخشوعها . وذهب جماعة من السلف منهم ابن عمر، وابن مسعود، على اختلاف عنه، أنه إذا خاف فواتها أسرع؛ وقال إسحاق : يسرع إذا خاف فوات الركعة؛ وروى عن مالك نحوه؛ وقال : لا بأس لمن كان على فرس أن يحرك الفرس؛ وتأوله بعضهم على الفرق بين الماشى والراكب لأن الراكب، لا يكاد أن ينبهر كما ينبهر الماشى .

قلت : واستعمال سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل حال أولى، فيمشى كما جاء الحديث وعليه السكينة والوقار، لأنه فى صلاة؛ ومحال ان يكون خبره صلى الله عليه وسلم على خلاف ما أخبر؛ فكما أن الداخل فى الصلاة يلزم الوقار والسكون، كذلك الماشى، حتى يحصل له التشبه به فيحصل له ثوابه، ومما يدل على صحة هذا ماذكرناه من السنة، وما خرجه الدرامى فى مسنده، وقال حدثنا محمد بن يوسف قال حدثنا سفيان عن محمد بن عجلان عن المقبرى عن كعب بن عُجْرَة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا توضأت فعمدت إلى المسجد فلا تشبكن بين أصابعك فإنك فى صلاة " فمنع صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث وهو صحيح مما هو أقل من الإسراع، وجعله كالمصلى؛ وهذه السنن تبين معنى قوله تعالى : ﴿ فَٱسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ وأنه ليس المراد به الاشتداد على الأقدام ، وإنما عنى العمل والفعل ؛ هكذا فسره مالك، وهو الصواب فى ذلك والله أعلم .

السابعة ـــ واختلف العلماء فى تأويل قوله عليه السلام : "وما فاتكم فأتموا" وقوله : "واقض ماسبقك" هل هما بمعنى واحد أولا ؟ فقيل : هما بمعنى واحد وأن القضاء قد يطلق ويراد به التمام، قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَاةُ ﴾ وقال : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ ﴾. وقيل : معناهما مختلف وهو الصحيح؛ ويترتب على هذا الخلاف خلاف فيما يدركه الداخل، هل هو أول صلاته أو آخرها؟ فذهب الى الأول جماعة من أصحاب مالك؛ منهم ابن القاسم ولكنه يقضى مافاته بالحمد وسورة، فيكون بانيا فى الأفعال قاضيا فى الأقوال . قال ابن عبد البر : وهو المشهور من المذهب . وقال ابن خواز منداذ : وهو الذى عليه أصحابنا، وهو قول الأوزاعى، والشافعى، ومحمد بن الحسن، وأحمد بن حنبل، والطبرى، وداود بن على . وروى أشهب وهو الذى ذكره ابن عبد الحكم عن مالك، ورواه عيسى عن ابن القاسم عن مالك ، أن ما أدرك فهو آخر صلاته ، وأنه يكون قاضيا فى الأفعال والأقوال ؛ وهو قول الكوفيين . قال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : وهو مشهور مذهب مالك . قال ابن عبد البر : من

جعل ما أدرك أول صلاته فأظنهم راعوا الإحرام لأنه لا يكون إلا فى أول الصلاة، والتشهد والتسليم لا يكون إلا فى آخرها ؛ فمن هنا قالوا : إن ما أدرك فهو أوّل صلاته، مع ما ورد فى ذلك من السنة من قوله : " فأتموا " والتمـام هو الآخر.

واحتج الآخرون بقوله : "فاقضوا" والذى يقضيه هو الفائت، إلا أن رواية من روى : فأتموا أكثر، وليس يستقيم على قول من قال : إن ما أدرك أوّل صلاته ويطرد، إلا ماقاله عبد العزيز بن أبى سلمة المـاجشون، والمزنى ، وإسحاق ، وداود، من أنه يقرأ مع الإمام بالحمد وسورة إن أدرك ذلك معه ؛ وإذا قام للقضاء قرأ بالحمد وحدها ؛ فهؤلاء اطرد على أصلهم قولهم وفعلهم ؛ رضى الله عنهم .

الثامنة — الإقامة تمنع من ابتداء صلاة نافلة ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة" خرجه مسلم وغيره ؛ فأما إذا شرع فى نافلة فلا يقطعها لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ وخاصـة إذا صلى ركعة منها ؛ وقيل : يقطعها ، لعموم الحديث فى ذلك والله أعلم .

التاسعة — واختلف العلماء فيمن دخل المسجد ولم يكن ركع ركعتى الفجر، ثم أقيمت الصلاة ؛ فقال مالك : يدخل مع الإمام ولا يركعهما ؛ وإن كان لم يدخل المسجد، فإن لم يخف فوات ركعة فليركع خارج المسجد، ولا يركعهما فى شىء من أفنية المسجد — التى تصلى فيها الجمعة — اللاصقة بالمسجد ؛ وإن خاف أن تفوته الركعة الأولى فليدخل وليصل معه ، ثم يصليهما إذا طلعت الشمس ؛ أحب إلىّ وأفضل من تركهما ؛ وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن خشى أن تفوته الركعتان ولا يدرك الإمام قبل رفعه من الركوع فى الثانية دخل معه ، وإن رجا أن يدرك ركعة صلى ركعتى الفجر خارج المسجد، ثم يدخل مع الإمام ؛ وكذلك قال الأوزاعى ؛ إلا أنه يجوز ركوعهما فى المسجد ما لم يخف فوت الركعة الأخيرة ؛ وقال الثورى : إن خشى فوت ركعة دخل معهم ولم يصلهما ؛ وإلا صـلاهما وإن كان قـد دخل المسجد . وقال الحسن بن حى ويقال ابن حيـان : إذا أخذ المقيم فى الإقامة فلا تطوع إلا ركعتى الفجر . وقال الشافعى : من دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة دخل مع الإمام ولم يركعهما لا خارج المسجد ولا فى المسجد ؛ وكذلك قال الطبرى وبه قال أحمد بن حنبل ؛ وحكى عن مالك وهو الصحيح فى ذلك لقوله عليه السلام : "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة" . وركعتا الفجر

إمّا سنة، وإما فضيلة، وإما رغيبة، والحجة عند التنازع حجة السنة، ومن حجة قول مالك المشهور وأبي حنيفة، ماروى عن ابن عمر : أنه جاء والإمام يصلي صلاة الصبح فصلاهما في حجرة حفصة، ثم إنه صلى مع الإمام . ومن حجة الثورى والأوزاعيّ ما روى عن عبد الله بن مسعود : أنه دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة فصلى إلى اسطوانة في المسجد ركعتي الفجر، ثم دخل الصلاة بحضر من حذيفة وأبي موسى رضى الله عنهما . قالوا : وإذا جاز أن يشتغل بالنافلة عن المكتوبة خارج المسجد جاز له ذلك في المسجد، روى مسلم عن عبد الله بن مالك بن بحينة[(١)] قال : أقيمت صلاة الصبح فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يصليّ والمؤذن يقيم، فقال : "أتصلى الصبح أربعا" ! وهذا إنكار منه صلى الله عليه وسلم على الرجل، لصلاته ركعتي الفجر في المسجد والإمام يصلي؛ ويمكن أن يستدل به أيضا على أن ركعتي الفجر إن وقعت في تلك الحال صحت؛ لأنه عليه السلام لم يقطع عليه صلاته، مع تمكنه من ذلك، والله أعلم .

العاشرة ــ الصلاة أصلها في اللغة : الدعاء، مأخوذة من صلى يصلي إذا دعا، ومنه قوله عليه السلام : "إذا دعى أحدكم إلى طعام فليجب فإن كان مفطرا فليطعم وإن كان صائما فليصل" أي فليدع . وقال بعض العلماء : إن المراد الصلاة المعروفة، فيصلي ركعتين وينصرف؛ والأول أشهر، وعليه من العلماء الأكثر . ولما ولدت أسماء عبد الله بن الزبير أرسلته إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ قالت أسماء : ثم مسحه وصلى عليه، أي دعا له . وقال تعالى : ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي ادع لهم .

وقال الأعشى :

تقول بنتى وقد قربت مرتحلا * يا رب جنب أبى الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذى صليت فاغتمضى * نوما فإن لجنب المرء مضطجعا

وقال الأعشى أيضا :

وقابلها الريح في دنها * وصلى على دنها وارتسم

ارتسم الرجل : كبّر ودعا، قاله في الصحاح . وقال قوم : هي مأخوذة من الصلا وهو عرق في وسط الظهر ويفترق عند العَجْب فيكتنفه، ومنه أخذ المصلي في سبق الخيل، لأنه يأتي في الحلبة

(١) بحينة أمه وهي بنت الحارث بن عبد المطلب ــ وأبوه مالك بن القشب بن نضلة الأزدى ــ

ورأسه عند صلوى السابق؛ فاشتقت الصلاة منه، إما لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمصلى من الخيل، و إما لأن الراكع تثنى صلواه . والصلا مغرز الذنب من الفرس، والاثنان صلوان؛ والمصلى؛ تالى السابق، لأن رأسه عند صلاه . وقال علىّ رضى الله عنه : سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى أبو بكر وثلث عمر . وقيل : هى مأخوذة من اللزوم؛ ومنه صلي بالنار إذا لزمها؛ ومنه : ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ قال الحارث بن عباد :

لم أكن من جناتها علم الله * ه و إنى بحرها اليوم صال

أى ملازم لحرها، وكأنَّ المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحدّ الذى أمر الله تعالى به . وقيل : هى مأخوذة من صليت العود بالنار إذا قومته وليّنته بالصلاء ؛ والصلاء : صلاء النار بكسر الصاد ممدود ، فإن فتحت الصاد قصرت، فقلت صلا النار ، فكأنَّ المصلى يقوم نفسه بالمعاناة فيها ويلين ويخشع ؛ قال الخارزنجى[1] :

فلا تعجل بأمرك واستدمه * فما صلى عصاك[2] كمستديم

والصلاة : الدعاء؛ والصلاة : الرحمة، ومنه : "اللهم صلى على محمد" الحديث . والصلاة : العبادة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ ﴾ الآية، أى عبادتهم . والصلاة: النافلة؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ﴾ . والصلاة : التسبيح ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ أى من المصلين . ومنه : سبحة الضحى . وقد قيل فى تأويل : ﴿ فسبح بحمدك ﴾ نصلى : والصلاة : القراءة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ فهى لفظ مشترك . والصلاة : بيت يصلى فيه، قاله ابن فارس . وقد قيل : إن الصلاة اسم علم وضع لهذه العبادة فإن الله تعالى لم يخل زمانا من شرع، ولم يخل شرعا من صلاة؛ حكاه أبو نصر القشيرى .

قلت : فعلى هذا القول لا اشتقاق لها ؛ وعلى قول الجمهور وهى :

الحادية عشرة — اختلف الأصوليون هل هى مبقاة على أصلها اللغوى الوضعى الابتدائى، وكذلك الإيمان والزكاة والصيام والحج، والشرع إنما تصرف بالشروط والأحكام، وعلى تلك الزيادة من الشرع

---

(١) كذا فى جميع الأصول، وفى اللسان مادة (صلا) : « ... قيس بن زهير » . وفى اللسان : « عصاه » .

(٢) كذا فى جميع الأصول .

يصيرها موضوعة كالوضع الابتدائي من قبل الشرع ؛ هنا اختلافهم ، والأول أصح، لأن الشريعة ثبتت بالعربية ؛ والقرآن نزل بها بلسان عربي مبين ؛ ولكن للعرب تحكم في الأسماء، كالدابة وضعت لكل ما يدب ؛ خصصها العرف بالبهائم ؛ فكذلك لعرف الشرع تحكم في الأسماء والله أعلم .

الثانية عشرة ـ واختلف في المراد بالصلاة هنا؛ فقيل : الفرائض؛ وقيل : الفرائض والنوافل معا؛ وهو الصحيح لأن اللفظ عام والمتقي يأتي بهما .

الثالثة عشرة ـ الصلاة سبب للرزق؛ قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ الآية على ما يأتي بيانه في طه إن شاء الله تعالى، وشفاء من وجع البطن وغيره؛ روى ابن ماجه عن أبي هريرة قال: هَجَّر النبي صلى الله عليه وسلم فَهَجَّرْتُ فصليت ثم جلست؛ فالتفت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "اشكيت دَرْدَ" قلت : نعم يارسول الله؛ قال: "قم فصل فإن في الصلاة شفاء" في رواية: "أشكيث درد" يعني تشتكي بطنك بالفارسية ؛ وكان عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبَهُ أمر فزع إلى الصلاة .

الرابعة عشرة ـ الصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض؛ فمن شروطها : الطهارة، وسيأتي بيان أحكامها في سورة النساء والمائدة، وستر العورة ، يأتي في الأعراف القول فيها إن شاء الله تعالى .

وأما فروضها: فاستقبال القبلة، والنية، وتكبيرة الإحرام، والقيام لها، وقراءة أم القرآن، والقيام لها، والركوع والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من الركوع والاعتدال فيه، والسجود والطمأنينة فيه، ورفع الرأس من السجود، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه ، والسجود الثاني والطمأنينة فيه . والأصل في هذه الجملة حديث أبي هريرة في الرجل الذي علمه النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة لما أخل بها، فقال له : "إذا قمت الى الصلاة فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة، ثم كبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعا، ثم ارفع حتى تعتدل قائما، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها" خرجه مسلم، ومثله حديث رفاعة بن رافع، أخرجه الدارقطني وغيره. قال علماؤنا : فبين قوله صلى الله عليه وسلم أركان الصلاة، وسكت عن الإقامة، ورفع اليدين، وعن حد القراءة، وعن تكبير الانتقالات، وعن التسبيح في الركوع والسجود، وعن الجلسة

الوسطى، وعن التشهد، وعن الجلسة الأخيرة، وعن السلام؛ أما الإقامة وتعيين الفاتحة فقد مضى الكلام فيهما؛ وأما رفع اليدين فليس بواجب عند جماعة العلماء، وعامة الفقهاء، لحديث أبي هريرة، وحديث رفاعة ابن رافع؛ وقال داود وبعض أصحابه بوجوب ذلك عند تكبيرة الإحرام؛ وقال بعض أصحابه: الرفع عند الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع واجب، وإن من لم يرفع يديه فصلاته باطلة وهو قول الحميدي، ورواية عن الأوزاعي، واحتجوا بقوله عليه السلام: "صلوا كما رأيتموني أصلي" أخرجه البخاري؛ قالوا: فوجب علينا أن نفعل كما رأيناه يفعل، لأنه المبلغ عن الله مراده؛ وأما التكبير ما عدا تكبيرة الإحرام فمسنون عند الجمهور للحديث المذكور، وكان ابن قاسم صاحب مالك يقول: من أسقط من التكبير في الصلاة ثلاث تكبيرات فما فوقها سجد للسهو قبل السلام، وإن لم يسجد بطلت صلاته، وإن نسي تكبيرة واحدة أو اثنتين سجد أيضا للسهو، فإن لم يفعل فلا شيء عليه؛ وروى عنه أن التكبيرة الواحدة لا سهو على من سها فيها، وهذا يدل على أن عظم التكبير وجملته عنده فرض، وأن اليسير منه متجاوز عنه. وقال أصبغ بن الفرج، وعبد الله بن عبد الحكم: ليس على من لم يكبر في الصلاة من أولها إلى آخرها شيء إذا كبر تكبيرة الإحرام، فإن تركه ساهيا سجد للسهو، فإن لم يسجد فلا شيء عليه؛ ولا ينبغي لأحد أن يترك التكبير عامدا، لأنه سنة من سنن الصلاة، فإن فعل فقد أساء، ولا شيء عليه، وصلاته ماضية.

قلت: هذا هو الصحيح وهو الذي عليه جماعة فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين، وجماعة أهل الحديث، والمالكيين غير من ذهب مذهب ابن القاسم. وقد ترجم البخاري رحمه الله "باب إتمام التكبير في الركوع والسجود" وساق حديث مُطَرِّف بن عبد الله قال: صليت خلف علي بن أبي طالب أنا وعمران بن حصين، فكان إذا سجد كبر، وإذا رفع رأسه كبر، وإذا نهض من الركعتين كبر؛ فلما قضى الصلاة أخذ بيدي عمران بن حصين فقال: لقد ذكرني هذا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم، أو قال: لقد صلى بنا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم. وحديث عكرمة قال: رأيت رجلا عند المقام يكبر في كل خفض ورفع، وإذا قام وإذا وضع؛ فأخبرت ابن عباس فقال: أو ليس تلك صلاة النبي صلى الله عليه وسلم لا أم لك! فدلك البخاري رحمه الله بهذا الباب على أن التكبير لم يكن معمولا به عندهم. روى أبو إسحاق السبيعي عن يزيد بن أبي مريم عن أبي موسى الأشعري قال:

صلى بنا على يوم الجمل صلاة أذكرنا بها صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يكبر فى كل خفض ورفع ، وقيام وقعود؛ قال أبو موسى : فإما نسيناها وإما تركناها عمدا .

قلت : أتراهم أعادوا الصلاة ! فكيف يقال من ترك التكبير بطلت صلاته ! ولو كان ذلك لم يكن فرق بين السنة والفرض، والشيء إذا لم يجب أفراده لم يجب جميعه؛ وبالله التوفيق .

الخامسة عشرة ــ وأما التسبيح فى الركوع والسجود فغير واجب عند الجمهور للحديث المذكور؛ وأوجبه إسحاق بن رَاهَوَيْه، وأن من تركه أعاد الصلاة، لقوله عليه السلام : "أما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم" .

السادسة عشرة ــ وأما الجلوس والتشهد فاختلف العلماء فى ذلك، فقال مالك وأصحابه : الجلوس الأول والتشهد له سنتان؛ وأوجب جماعة من العلماء الجلوس الأول وقالوا : هو مخصوص من بين سائر الفروض بأن ينوب عنه السجود كالعرايا من المزابنة، والقراض من الإجارات، وكالوقوف بعد الاحرام لمن وجد الإمام راكعا؛ واحتجوا بأنه لو كان سنة ما كان العامد لتركه تبطل صلاته كما لاتبطل بترك سنن الصلاة؛ احتج من لم يوجبه بأن قال: لو كان من فرائض الصلاة لرجع الساهى عنه إليه حتى يأتى به، كما لو ترك سجدة أو ركعة؛ ويراعى فيه ما يراعى فى الركوع والسجود من الولاء والرتبة؛ ثم يسجد لسهوه كما يصنع من ترك ركعة أو سجدة وأتى بهما . وفى حديث عبد الله ابن بُحَيْنَة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من ركعتين ونسى أن يتشهد فسبح الناس خلفه كيما يجلس فثبت قائما فقاموا ؛ فلما فرغ من صلاته سجد سجدتى السهو قبل التسليم؛ فلو كان الجلوس فرضا لم يسقطه النسيان والسهو ؛ لأن الفرائض فى الصلاة يستوى فى تركها السهو والعمد إلا فى المؤتم . واختلفوا فى حكم الجلوس الأخير فى الصلاة وما الغرض من ذلك . وهى

السابعة عشرة ــ على خمسة أقوال :

أحدها : أن الجلوس فرض، والتشهد فرض، والسلام فرض ، وممن قال ذلك الشافعى واحمد ابن حنبل فى رواية؛ وحكاه أبو مصعب فى مختصره عن مالك وأهل المدينة ، وبه قال داود . قال الشافعى : من ترك التشهد الأول والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فلا إعادة عليه، وعليه سجدتا السهو لتركه، وإذا ترك التشهد الأخير ساهيا أو عامدا أعاد؛ واحتجوا بأن بيان النبى صلى الله عليه

وسلم فى الصلاة فرض، لأن أصل فرضها مجمل يفتقر إلى البيان إلا ما خرج بدليل . وقد قال صلى الله عليه وسلم : "صلوا كما رأيتمونى أصلى" .

القول الثانى : ان الجلوس والتشهد والسلام ليس بواجب، وإنما ذلك كله سنة مسنونة ؛ هذا قول بعض البصريين، وإليه ذهب ابراهيم بن عُلَيّة، وصرح بقياس الجلسة الاخيرة على الأولى، فخالف الجمهور وشذ، إلا أنه يرى الإعادة على من ترك شيأ من ذلك كله . ومن حجتهم حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إذا رفع الإمام رأسه من آخر سجدة فى صلاته ثم أحدث فقد تمت صلاته" وهو حديث لا يصح على ما قاله أبو عمر؛ وقد بيناه فى كتاب المقتبس[1] . وهذا اللفظ إنما يسقط السلام لا الجلوس .

القول الثالث : إن الجلوس مقدار التشهد فرض، وليس التشهد ولا السلام بواجب فرضا . قاله أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين، واحتجوا بحديث ابن المبارك عن الإفريقى عبد الرحمن ابن زياد، وهو ضعيف ؛ وفيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إذا جلس أحدكم فى آخر صلاته فأحدث قبل أن يسلم فقد تمت صلاته" قال ابن العربى : وكان شيخنا فخر الإسلام ينشدنا فى الدرس:

ويرى الخروج من الصلاة بضرطة ✻ أين الضراط من السلام عليكم

قال ابن العربى : وسلك بعض علمائنا من هذه المسئلة فرعين ضعيفين، أما أحدهما : فروى عبد الملك بن عبد الملك : أن من سلم من ركعتين متلاعبا، فخرج البيان أنه كان على أربع، أن يجزئه ؛ وهذا مذهب أهل العراق بعينه . وأما الثانى : فوقع فى الكتب المنبوذة أن الإمام إذا أحدث بعد التشهد متعمدا وقبل السلام أنه يجزئ من خلفه ؛ وهذا مما لا ينبغى أن يلتفت إليه فى الفتوى، فإن عمرت به المجالس للذكرى .

القول الرابع : أن الجلوس والسلام فرض ؛ وليس التشهد بواجب ؛ وممن قال هذا مالك ابن أنس، وأصحابه ؛ وأحمد بن حنبل فى رواية ؛ واحتجوا بأن قالوا : ليس شىء من الذكر يجب إلا تكبيرة الإحرام، وقراءة أم القرآن .

---

(١) فى بعض الأصول : «المقتبين» .

القول الخامس : أن التشهد والجلوس واجبان، وليس السلام بواجب ؛ قاله جماعة منهم إسحاق بن رَاهَوَيْه ، واحتج إسحاق بحديث ابن مسعود حين علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم التشهد وقال له : " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك وقضيت ما عليك" قال الدارقطني : قوله : " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك" أدرجه بعضهم عن زهير في الحديث ، ووصله بكلام النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وفصله شبابة عن زهير ، وجعله من كلام ابن مسعود؛ وقوله أشبه بالصواب من قول من أدرجه في حديث النبي صلى الله عليه وسلم .. وشبابة ثقة وقد تابعه غسان بن الربيع على ذلك . جعل آخر الحديث من كلام ابن مسعود، ولم يرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم .

الثامنة عشرة — واختلف العلماء في السلام ؛ فقيل : واجب؛ وقيل : ليس بواجب ؛ والصحيح وجوبه لحديث عائشة وحديث علي الصحيح خرجه أبو داود والترمذي ورواه سفيان الثوري عن عبد الله ابن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم " وهذا الحديث أصل في إيجاب التكبير والتسليم ، وأنه لا يجزئ عنهما غيرهما كما لا يجزئ عن الطهارة غيرها باتفاق ، قال عبد الرحمن ابن مهدي : لو افتتح رجل صلاته بسبعين اسما من أسماء الله عز وجل ولم يكبر تكبيرة الإحرام لم يجزه ، وإن أحدث قبل أن يسلم لم يجزه؛ وهذا تصحيح من عبد الرحمن بن مهدي لحديث علي ، وهو إمام في علم الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه . وحسبك به !

وقد اختلف العلماء في وجوب التكبير عند الافتتاح وهي :

التاسعة عشرة — فقال ابن شهاب الزهري ، وسعيد بن المسيب ، والأوزاعي ، وعبد الرحمن ، وطائفة : تكبيرة الإحرام ليست بواجبة ؛ وقد روي عن مالك في المأموم ما يدل على هذا القول ؛ والصحيح من مذهبه إيجاب تكبيرة الإحرام وأنها فرض وركن من أركان الصلاة ؛ وهو الصواب وعليه الجمهور ، وكل من خالف ذلك فمحجوج بالسنة :

الموفية عشرين — واختلف العلماء في اللفظ الذي يدخل به في الصلاة ؛ فقال مالك وأصحابه وجمهور العلماء : لا يجزئ إلا التكبير ، لا يجزئ منه تهليل ولا تسبيح ولا تعظيم ولا تحميد؛ هذا قول الحجازيين وأكثر العراقيين ؛ ولا يجزئ عند مالك إلا : " الله أكبر " لا غير ذلك ؛ وكذلك قال الشافعي

وزاد : ويجزئ "الله الأكبر" و"الله الكبير" . والحجة لمالك حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وحديث علي : وتحريمها التكبير، وحديث الأعرابي : فكبر؛ وفي سنن ابن ماجه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعلي بن محمد الطنافسي قالا : حدثنا أبو أسامة قال : حدثني عبد الحميد بن جعفر قال : حدثنا محمد بن عمرو ابن عطاء قال : سمعت أبا حميد الساعدي يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام الى الصلاة استقبل القبلة ورفع يديه، وقال : "الله أكبر" وهذا نص صريح، وحديث صحيح، في تعيين لفظ التكبير؛ قال الشاعر :

رأيت الله أكبر كل شيء * محاولة وأعظمه جنودا

ثم أنه يتضمن القدم، وليس يتضمنه كبير ولا عظيم، فكان أبلغ في المعنى والله أعلم .

وقال أبو حنيفة : إن افتتح بلا إله إلا الله يجزيه، وإن قال : اللهم اغفر لي لم يجزه؛ وبه قال محمد بن الحسن . وقال أبو يوسف : لا يجزئه إذا كان يحسن التكبير . وكان الحكم بن عتيبة يقول : إذا ذكر الله مكان التكبير أجزأه . قال ابن المنذر : ولا أعلمهم يختلفون أن من أحسن القراءة فهلل وكبر ولم يقرأ أن صلاته فاسدة، فمن كان هذا مذهبه فاللازم له أن يقول لا يجزيه مكان التكبير غيره، كما لا يجزئ مكان القراءة غيرها ؛ وقال أبو حنيفة : يجزئه التكبير بالفارسية وإن كان يحسن العربية . قال ابن المنذر : لا يجزيه لأنه خلاف ما عليه جماعات المسلمين، وخلاف ما علم النبي صلى الله عليه وسلم أمته؛ ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال والله أعلم .

الحادية والعشرون — واتفقت الأمة على وجوب النية عند تكبيرة الإحرام إلا شيأ روي عن بعض أصحابنا يأتي الكلام عليه في آية الطهارة؛ وحقيقتها قصد التقرب الى الآمر بفعل ما أمر به على الوجه المطلوب منه . قال ابن العربي : والأصل في كل نية أن يكون عقدها مع التلبس بالفعل المنوي بها، أو قبل ذلك بشرط استصحابها، فان تقدمت النية وطرأت غفلة فوقع التلبس بالعبادة في تلك الحالة لم يعتد بها ، كما لا يعتد بالنية إذا وقعت بعد التلبس بالفعل ؛ وقد رخص في تقديمها في الصوم لعظم الحرج في اقترانها به . قال ابن العربي : وقال لنا أبو الحسن القروي بثغر عسقلان : سمعت إمام الحرمين يقول : يحضر الإنسان عند التلبس بالصلاة النية، ويجرد النظر

فى الصانع وحدوث العالم والنبوات حتى ينتهى نظره الى نيـة الصلاة؛ قال : ولا يحتاج ذلك الى زمان طويل، وإنما يكون ذلك فى أوحى لحظة، لأن تعليم الجمل يفتقر الى الزمان الطويل، وتذكارها يكون فى لحظة؛ ومن تمام النية أن تكون مستصحبة على الصلاة كلها، إلا أن ذلك لمـا كان أمرا يتعذر سمح الشرع فى عزوب النية فى أثنائها؛ سمعت شيخنا أبا بكر الفهرى بالمسجد الأقصى يقول : قال محمد بن سحنون : رأيت أبا سحنون ربما يكمل الصلاة فيعيدها؛ فقلت له ما هذا؟ فقال : عزبت نيتى فى أثنائها فلأجل ذلك أعدتها .

قلت : فهذه جملة من أحكام الصلاة، وسائر أحكامها يأتى بيانها فى مواضعها من هذا الكتاب بحول الله تعالى؛ فيأتى ذكر الركوع، وصلاة الجماعة، والقبلة، والمبادرة الى الأوقات، وبعض صلاة الخوف، فى هـذه السورة، ويأتى ذكر قصر الصلاة، وصلاة الخوف، فى "النساء"، والأوقات، فى "هود وسبحان والروم"، وصـلاة الليل، فى "المزمل"، وسجود التـلاوة، فى "الأعراف"، وسجود الشكر، فى "ص"، كلٌّ فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الثانية والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ رزقناهم : أعطيناهم، والرزق عند أهل السنة ما صح الانتفاع به، حلالا كان أو حراما؛ خلافا للمعتزلة فى قولهم : إن الحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه، وإن الله لا يرزق الحرام، وإنما يرزق الحلال، والرزق لا يكون إلا بمعنى المِلك.

قالوا : فلو نشأ صبى مع اللصوص ولم يأكل شيـأ إلا ما أطعمـه اللصوص الى أن بلغ وقوى وصار لصا، ثم لم يزل يتلصص ويأكل ما تلصصه الى أن مات، فإن الله لم يرزقه شيئا، إذ لم يملكه، وإنه يموت ولم يأكل من رزق الله شيئا .

وهذا فاسد، والدليل عليه أن الرزق لو كان بمعنى التمليك لوجب ألا يكون الطفل مرزوقا، ولا البهائم التى ترتع فى الصحراء، ولا السخال من البهائم، لأن لبن أمهاتها ملك لصاحبها دون السخال .

ولمـا اجتمعت الأمة على أن الطفل والسخال والبهائم مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين علم أن الرزق هو الغذاء لأن الأمة مجمعة على أن العبيد والإماء مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين؛ فعلم أن الرزق ما قلناه، لا ما قالوه، والذى يدل على أنه لا رازق سواه قوله الحق : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ

ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ وقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ وهذا قاطع؛ فالله تعالى رازق حقيقة، وابن آدم رازق تجوزا، لأنه يملك ملكا منتزعا، كما بيناه فى الفاتحة؛ مرزوق حقيقة، كالبهائم التى لا ملك لها؛ إلا أن الشيء إذا كان مأذونا له فى تناوله فهو حلال حكما، وما كان منه غير مأذون له فى تناوله فهو حرام حكما؛ وجميع ذلك رزق.

وقد خرّج بعض النبلاء من قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ فقال: ذكر المغفرة يشير إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام.

الثالثة والعشرون — قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ الرزق مصدر رزق يرزق رَزقا، فالرزق بالفتح المصدر، وبالكسر الاسم، وجمعه أرزاق؛ والرزق: العطاء. والرازقية: ثياب كتّان [بيض](1). وارتزق الجند: أخذوا أرزاقهم. والرَّزقة: المرة الواحدة؛ هكذا قال أهل اللغة. وقال ابن السكيت: الرزق بلغة أزد شنوءة: الشكر؛ وهو قوله عز وجل: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أى شكركم التكذيب. ويقول: رزقنى أى شكرنى.

الرابعة والعشرون — قوله تعالى: ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ينفقون: يخرجون؛ والإنفاق: إخراج المال من اليد؛ ومنه نفق البيع: أى خرج من يد البائع إلى المشترى. ونفقت الدابة: خرجت روحها؛ ومنه النافقاء لجحر اليربوع الذى يخرج منه إذا أُخذ من جهة أخرى. ومنه المنافق لأنه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه؛ ونيفق السراويل معروفة وهو مخرج الرجل منها. ونفق الزاد: فنى وأنفقه صاحبه. وأنفق القوم: فنى زادهم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنْفَاقِ﴾.

الخامسة والعشرون — واختلف العلماء فى المراد بالنفقة ههنا؛ فقيل: الزكاة المفروضة — روى عن ابن عباس — لمقارنتها الصلاة. وقيل: نفقة الرجل على أهله — روى عن ابن مسعود — لأن ذلك أفضل النفقة؛ روى مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دينار أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك" وروى عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(1) الزيادة عن اللسان مادة (رزق).

" أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه الرجل على دابته فى سبيل الله عز وجل، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله" قال أبو قلابة : وبدأ بالعيال [ثم] قال أبو قلابة : وأى رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم . وقيل: المراد صدقة التطوع ـــ روى عن الضحاك ـــ نظرا إلى أن الزكاة لا تأتى الا بلفظها المختص بها، وهو الزكاة، فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة احتملت الفرض والتطوع ، فإذا جاءت بلفظ الإنفاق لم تكن إلا التطوع . قال الضحاك : كانت النفقة قربانا يتقربون بها الى الله جل وعز على قدر جهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات والناسخات[1] فى «براءة» . وقيل: إنه الحقوق الواجبة العارضة فى الأموال ما عدا الزكاة، لأن الله تعالى لما قرنه بالصلاة كان فرضا، ولما عدل عن لفظها كان فرضا سواها . وقيل: هو عام، وهو الصحيح؛ لأنه خرج مخرج المدح فى الإنفاق مما رزقوا؛ وذلك لايكون إلا من الحلال : أى يؤتون ما ألزمهم الشرع من زكاة وغيرها مما يعنّ فى بعض الاحوال مع ما ندبهم إليه . وقيل : الإيمان بالغيب : حظ القلب، وإقام الصلاة : حظ البدن ، ومما رزقناهم ينفقون : حظ المال؛ وهذا ظاهر . وقال بعض المتقدمين فى تأويل قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أى مما علمناهم يعلمون، حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيرى .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية، قيل: المراد مؤمنو أهل الكتاب، كعبد الله ابن سلام وفيه نزلت، ونزلت الأولى فى مؤمنى العرب، وقيل: الآيتان جميعا فى المؤمنين، وعليه فإعراب الذين خفض على العطف ، ويصح أن يكون رفعا على الاستئناف أى وهم الذين ؛ ومن جعلها فى صنفين فإعراب الذين رفع بالابتداء وخبره أولئك على هدى؛ ويحتمل الخفض عطفا .

قوله تعالى: ﴿ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يعنى القرآن ﴿ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يعنى الكتب السالفة، بخلاف ما فعله اليهود والنصارى حسب ما أخبر الله عنهم فى قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ الآية . ويقال : لما نزلت هذه الآية : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ . قالت اليهود والنصارى : نحن آمنا بالغيب؛ فلما قال: ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ . قالوا : نحن نقيم الصلاة؛

(١) مثل قوله تعالى : خذ من أموالهم صدقة الآية فقد قال ابن العربى أنها ناسخة لآية : والذين يكنزون الذهب والفضة الآية أنظر صفحة ٣٨١ من الجزء الأول من تفسيره المطبوع بمصر سنة ١٣٣١هـ وكذلك روى الجصاص نسخها بها عن عمر بن عبد العزيز .

فلما قال : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ قالوا : نحن ننفق ونتصدق؛ فلما قال: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ . نفروا من ذلك . وفي حديث أبي ذر قال : قلت يارسول الله كم كتابا أنزل الله ؟ قال : "مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى أخنوخ (١) ثلاثين صحيفة، وعلى ابراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان" الحديث . أخرجه الحسين الأُجُرِّي، وأبو حاتم البُستي .

وهنا مسئلة، إن قال قائل : كيف يمكن الإيمان بجميعها مع تنافي أحكامها ؟ قيل له فيه جوابان أحدهما : أن الإيمان بأن جميعها نزل من عند الله، وهو قول من أسقط التعبد بما تقدم من الشرائع . الثاني : أن الإيمان بمالم ينسخ منها ، وهذا قول من أوجب التزام الشرائع المتقدمة على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى: ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ . أي وبالبعث والنشر هم عالمون . واليقين : العلم دون الشك، يقال منه : يقنت الأمر بالكسر يقنا، وأيقنت واستيقنت وتيقنت كله بمعنى ؛ وأنا على يقين منه . وانما صارت الياء واوا في قولك : موقن ، للضمة قبلها واذا صغرته رددته الى الأصل، فقلت مييقن . والتصغير يرد الأشياء الى أصولها وكذلك الجمع، وربما عبروا باليقين عن الظن، ومنه قول علمائنا في اليمين اللغو : هو أن يحلف بالله على أمر يوقنه، ثم يتبين له أنه خلاف ذلك، فلا شيء عليه ؛ قال الشاعر :

تَحَسَّبَ هَوَّاسٌ وَأَيْقَنَ أَنَّنِي * بِهَا مُفْتَدٍ مِنْ وَاحِدٍ لَا أُغَامِرُهْ

يقول : تشمم الأسد ناقتي، يظن أنني مفتد بها منه ، واستحمي نفسي فأتركها له ولا أقتحم المهالك بمقاتلته . فأما الظن بمعنى اليقين فورد في التنزيل وهو في الشعر كثير وسيأتي . والآخرة مشتقة من التأخر لتأخرها عنا وتأخرنا عنها، كما أن الدنيا مشتقة من الدنو على ما يأتي .

قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قال النحاس أهل نجد يقولون : أولاك ، وبعضهم يقول : ألاك، والكاف للخطاب . قال الكسائي : من قال أولئك فواحده ذلك، ومن قال ألاك فواحده ذاك، وألالك مثل أولئك؛ وأنشد ابن السكيت :

(١) أخنوخ هو ادريس عليه السلام .

الالِك قومى لم يكونوا أشابة * وهل يعظ الضليل الا الالكا

وربما قالوا : أولئك فى غير العقلاء ؛ قال الشاعر :

ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى * والعيش بعد أولئك الأيام

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا ﴾ وقال علماؤنا إن فى قوله تعالى: ﴿مِن ربهم﴾ . ردّا على القدرية فى قولهم : يخلقون إيمانهم وهداهم ، تعالى الله عن قولهم ؛ ولو كان كما قالوا لقال : «من أنفسهم» ؛ وقد تقدم الكلام فيه وفى الهدى فلا معنى لإعادة ذلك .

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . هم ، يجوز أن يكون مبتدأ ثانيا وخبره المفلحون ، والثانى وخبره خبر الأول ؛ ويجوز أن تكون هم زائدة ــ يسميها البصريون فاصلة والكوفيون عمادا ــ والمفلحون خبر أولئك .

والفلح أصله فى اللغة الشق والقطع ؛ قال الشاعر :

* إن الحديد بالحديد يفلح *

أى يشق ، ومنه فلاحة الأرضين إنما هو شقها للحرث ، قاله أبو عبيد ، ولذلك سمى الأكّار فلاحا ، ويقال للذى شقت شفته السفلى أفلح ، وهو بين الفلحة ، فكأن المفلح قد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه . وقد يستعمل فى الفوز والبقاء ، وهو أصله أيضا فى اللغة ، ومنه قول الرجل لامرأته : إستفلحى بأمرك ، معناه فوزى بأمرك ؛ وقال الشاعر :

لو كان حىّ مدرك الفلاح * أدركه ملاعب الرماح

وقال الأضبط بن قريع السعدىّ فى الجاهلية الجهلاء :

لكل هم من الهموم سعه * والمُسْىُ والصبح لا فلاح معه

يقول : ليس مع كرّ الليل والنهار بقاء ؛ وقال آخر :

نحل بلادا كلها حلّ قبلنا * ونرجو الفلاح بعد عاد وحمير

أى البقاء ؛ وقال عبيد :

أفلح بما شئت فقد يدرك بالضعـ * ـف وقد يُخَدَّع الأريب

أى أبق بما شئت من كيس وحمق فقد يرزق الأحمق ويحرم العاقل . فمعنى وأولئك هم المفلحون: أى الفائزون بالجنة والباقون فيها . وقال ابن أبى إسحاق : المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا ؛ والمعنى واحد . وقد استعمل الفلاح فى السحور ؛ ومنه الحديث : حتى كاد يفوتنا الفلاح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : وما الفلاح؟ قال : السحور، أخرجه أبو داود؛ فكأن معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سماه فلاحا . والفلاح بتشديد اللام : المكارى فى قول القائل[1] :

لها رطل تكيل الزيت فيه * وفلاح يسوق لها حمارا

ثم الفلاح فى العرف : الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب .

مسئلة — إن قال قائل كيف قرأ حمزة : عليهُم وإليهُم ولديهُم ؛ ولم يقرأ من ربهم ولا فيهم ولا جنتيهم ؟ فالجواب أن عليهم وإليهم ولديهم الياء فيه منقلبة من ألف، والأصل علاهم ولداهم وإلاهم فأقرت الهاء على ضمتها ؛ وليس ذلك فى فيهم ولا من ربهم ولا جنتيهم ووافقه الكسائى فى عليهم الذلة وإليهم اثنين على ما هو معروف من القراءة عنهما .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية ؛ لما ذكر المؤمنين وأحوالهم، ذكر الكافرين ومآلهم ؛ والكفر ضد الإيمان وهو المراد فى الآية ؛ وقد يكون بمعنى جحود النعمة والإحسان ، ومنه قوله عليه السلام فى النساء فى حديث الكسوف : "ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء قيل بم يا رسول الله ؟ قال : "بكفرهن"؛ قيل أيكفرن بالله ؟ قال : "يكفرن العشير ويكفرن الإحسان لو أحسنت الى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئا قالت: ما رأيت منك خيرا قط" أخرجه البخارى وغيره .

وأصل الكفر فى كلام العرب : الستر والتغطية؛ ومنه قول الشاعر :

* فى ليلة كفر النجوم غمامها *

أى سترها ، ومنه سمى الليل كافرا لأنه يغطى كل شىء بسواده؛ قال الشاعر[2] :

فَتَذَكَّرَا ثَقَلًا رَثِيدًا بَعْدَمَا * أَلْقَتْ ذُكَاءُ يَمِينَهَا فِى كَافِرِ

(١) هو عمرو بن أحمر الباهلى؛ كما فى اللسان مادة (فلح) .

(٢) هو ثعلبة بن صعيرة المازنى؛ يصف الظليم والنعامة ورواحهما الى بيضهما عند غروب الشمس . (اللسان مادة "كفر").

ذكاء بضم الذال والمد اسم للشمس؛ ومنه قول الآخر:

فوردت قبل انبلاج الفجر * وابن ذكاء كامن فى كفر

أى فى ليل . والكافر أيضا ، البحر، والنهر العظيم ، والكافر : الزارع والجمع كفار ، قال الله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ . يعنى الزراع لأنهم يغطون الحب، ورماد مكفور : سفت الريح عليه التراب . والكافر من الأرض : ما بعد عن الناس لا يكاد ينزله ولا يمر به أحد ؛ ومن حل بتلك المواضع فهم أهل الكفور، ويقال الكفور : القرى .

قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ معناه معتدل عندهم الإنذار وتركه ، أى سواء عليهم هذا؛ وجيء بالاستفهام من أجل التسوية، ومثله قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ .

وقال الشاعر :

وليـل يقول الناس من ظلماته * سواء صحيحات العيون وعورها

قوله تعالى : ﴿ ءَأَنْذَرْتَهُمْ ﴾ الإنذار: الإبلاغ والإعلام، ولا يكاد يكون إلا فى تخويف يسع زمانه الاحتراز، فان لم يتسع زمانه للاحتراز كان إشعارا ولم يكن إنذارا؛ قال الشاعر :

أنذرت عمرا وهو فى مهـل * قبل الصباح فقد عصى عمرو

وتناذر بنو فلان هذا الأمر إذا خوفه بعضهم بعضا .

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ، فقيل : هى عامة ومعناها الخصوص فيمن حقت عليه كلمة العذاب، وسبق فى علم الله انه يموت على كفره ؛ أراد الله تعالى أن يعلم أن فى الناس من هذه حاله، دون أن يعين أحدا . وقال ابن عباس والكلبى : نزلت فى رؤساء اليهود، منهم حُيَيّ ابن أخطب ، وكعب بن الأشرف ونظراؤهما . وقال الربيع بن أنس : نزلت فيمن قتـل يوم بدر من قادة الأحزاب، والأول أصح ، فإن من عين أحدا فإنمـا مثل بمن كشف الغيب عنـه بموته على الكفر، وذلك داخل فى ضمن الآية .

قوله تعالى : ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . موضعه رفع خبر إن، أى إن الذين كفروا لا يؤمنون، وقيل خبر إن سواء، وما بعده يقوم مقام الصلة؛ قاله ابن كيسان . وقال محمد بن يزيد : سواء رفع بالابتداء،

ءأنذرتهم أم لم تنذرهم الخبر، والجملة خبر إنَّ . قال النحاس : أى أنهم يتألمون فلم تغن فيهم النذارة شيئا . واختلف القراء فى قراءة ءأنذرتهم ، فقرأ أهل المدينة ، وأبو عمرو، والأعمش، وعبدالله بن أبى إسحاق : آنذرتهم بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية ، واختارها الخليل وسيبويه ، وهى لغة قريش وسعد بن بكر، وعليها قول الشاعر (١) :

أياظبية الوعساءِ بين جُلَاجِلٍ * وبين النقا آنت أم أُمُّ سالم

هجا ءأنت ألف واحدة؛ وقال الآخر :

تطالت فاستشرفته فعرفته * فقلت له آنت زيد الأرانب

وروى عن ابن محيصن أنه قرأ : ﴿أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ بهمزة لا ألف بعدها، فحذف لالتقاء الهمزتين أو لأن أم تدل على الاستفهام كما قال الشاعر :

تروح من الحىّ أم تبتكر * وماذا يضيرك لو تنتظر

أراد : أتروح فاكتفى بأم من الألف . وروى عن ابن أبى إسحاق أنه قرأ : ءاءنذرتهم، فحقق الهمزتين وأدخل بينهما ألفا لئلا يجمع بينهما . قال أبو حاتم : ويجوز أن تدخل بينهما ألفا وتخفف الثانية؛ وأبوعمرو، ونافع، يفعلان ذلك كثيرا ؛ وقرأ حمزة، وعاصم، والكسائى بتحقيق الهمزتين : أأنذرتهم وهو اختيار أبى عبيد، وذلك بعيد عند الخليل؛ وقال سيبويه : يشبه فى الثقل ضننوا؛ قال الأخفش : ويجوز تخفيف الأولى من الهمزتين وذلك ردىء لأنهم إنما يخففون بعد الاستثقال، وبعد حصول الواحدة . قال أبو حاتم : ويجوز تخفيف الهمزتين جميعاً؛ فهذه سبعة أوجه من القراءات، ووجه ثامن يجوز فى غير القرآن، لأنه مخالف للشواذ ؛ قال الأخفش سعيد : تبدل من الهمزة هاء تقول : ها أنذرتهم ؛ كما يقال هياك وإياك ؛ وقال الأخفش فى قول الله تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ ﴾ إنما هو أأنتم .

قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية فيها عشر مسائل .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ ﴾ بين سبحانه فى هذه الآية المانع لهم من الإيمان بقوله : ختم الله ، والختم مصدر ختمت الشىء ختما فهو مختوم ومختّم شدّد للمبالغة ، ومعناه التغطية على الشىء

(١) هو ذو الرمة كما فى معجم البلدان لياقوت .

والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء ، ومنه : ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك ، حتى لا يوصل إلى ما فيه ، ولا يوضع فيه غير ما فيه .

وقال أهل المعانى : وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف: بالختم ، والطبع ، والضيق ، والمرض ، والرين ، والموت ، والقساوة ، والانصراف ، والحمية ، والإنكار ؛ فقال فى الإنكار : ﴿ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ . وقال فى الحمية : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ ﴾ . وقال فى الانصراف : ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ . وقال فى القساوة : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ . وقال : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ . وقال فى الموت : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ . وقال : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ . وقال فى الرين : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ . وقال فى المرض : ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ . وقال فى الضيق : ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ . وقال فى الطبع : ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ . وقال : ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ . وقال فى الختم : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ . وسيأتى بيانها كلها فى مواضعها إن شاء الله تعالى .

الثانية ــ الختم يكون محسوسا كما بينا ، ومعنى كما فى هذه الآية ؛ فالختم على القلوب: عدم الوعى عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته والفكر فى آياته ؛ وعلى السمع : عدم فهمهم للقرآن إذا تلى عليهم أودعوا إلى وحدانيته ؛ وعلى الأبصار : عدم هدايتها للنظر فى مخلوقاته ، وعجائب مصنوعاته ، هذا معنى قول ابن عباس ، وابن مسعود ، وقتادة ، وغيرهم .

الثالثة ــ فى هذه الآية أدل دليل وأوضح سبيل ، على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال ، والكفر والإيمان ؛ فاعتبروا أيها السامعون ، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم ؛ فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جهدوا ؛ وقد طبع على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة ، فمتى يهتدون ؟ أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ . وكان فعل الله ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ، إذ لم يمنعه حقا وجب له فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم ، لا ما وجب لهم .

فإن قالوا ، إن معنى الختم والطبع والغشاوة : التسمية والحكم والإخبار بأنهم لا يؤمنون ، لا الفعل .

قلنا : هذا فاسد ، لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعا مختوما ، ولا يجوز أن تكون حقيقته التسمية والحكم ، ألا ترى أنه إذا قيل فلان طبع الكتاب وختمه ، كان حقيقته أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعا ومختوما ، لا التسمية والحكم ، هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة ، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين ، مجازاة لكفرهم ، كما قال تعالى : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي عليه السلام ، والملائكة ، والمؤمنين ، ممتنع ، فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون ، لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهم مختوم عليها ، وأنهم فى ضلال لا يؤمنون ، ويحكمون عليهم بذلك ، فثبت أن الختم والطبع هو معنى غير التسمية والحكم ، وإنما هو معنى يخلقه الله فى القلب يمنع من الإيمان به ، دليله قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ . أى لئلا يفقهوه ، وما كان مثله .

الرابعة — قوله : ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ . فيه دليل على فضل القلب على جميع الجوارح ، والقلب للإنسان وغيره . وخالص كل شىء وأشرفه قلبه ، فالقلب موضع الفكر ، وهو فى الأصل مصدر قلبت الشىء أقلبه قلبا ، إذا رددته على بداءته ، وقلبت الإناء : رددته على وجهه ، ثم نقل هذا اللفظ فسمى به هذا العضو ، الذى هو أشرف الحيوان ، لسرعة الخواطر إليه ، ولترددها عليه ، كما قيل :

ما سمّى القلب إلا من تقلبه ۞ فاحذر على القلب من قلب وتحويل

ثم لما نقلت العرب هذا المصدر لهذا العضو الشريف ، التزمت فيه تفخيم قافه ، تفريقا بينه وبين أصله ، روى ابن ماجه عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مثل القلب ريشة تقلبها الرياح بفلاة" ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول : "اللهم يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك" فإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول مع عظيم قدره ، وجلال منصبه ، فنحن أولى بذلك ، اقتداء به ، قال الله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ . وسيأتى .

الخامسة ــ الجوارح وإن كانت تابعة للقلب فقد يتأثر القلب ــ وإن كان رئيسها وملكها ــ بأعمالها للارتباط الذي بين الظاهر والباطن ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إن الرجل ليصدق فتنكت في قلبه نكتة بيضاء وإن الرجل ليكذب الكذبة فيسود قلبه" وروى الترمذي وصححه عن أبي هريرة : "أن الرجل ليصيب الذنب فيسود قلبه فإن هو تاب صقل قلبه" قال : وهو الرين الذي ذكره الله في القرآن في قوله : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . وقال مجاهد : القلب كالكف يقبض منه بكل ذنب إصبع ، ثم يطبع .

قلت : وفي قول مجاهد هذا ، وقوله عليه السلام : "إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" دليل على أن الختم يكون حقيقيا والله أعلم . وقد قيل : إن القلب يشبه الصنوبرة ؛ وهو يعضد قول مجاهد . والله أعلم .

وقد روى مسلم عن حذيفة قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا : "أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة" ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : "ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط ، فتراه منتبرا وليس فيه شيء ، ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال إن في بني فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلما ليردنه علي دينه ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه علي ساعيه وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا" .

ففي قوله : الوكت وهو الأثر اليسير ، ويقال للبسر إذا وقعت فيه نكتة من الأرطاب قد وكت ، فهو موكت . وقوله : المجل ، وهو أن يكون بين الجلد واللحم ماء ؛ وقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : "كجمر دحرجته" أي دورته على رجلك فنفط ، فتراه منتبرا أي مرتفعا ؛ ما يدل على أن ذلك كله محسوس في القلب يفعل فيه ؛ وكذلك الختم والطبع والله أعلم . وفي حديث حذيفة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا .

فأىّ قلب أُشربها نكت نكتة سوداء وأىّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا إلا ما أُشرب من هواه" وذكر الحديث . مجخيا : يعنى مائلا .

السادسة — القلب قد يعبر عنه بالفؤاد والصدر؛ قال الله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾. وقال : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يعنى فى الموضعين قلبك ، وقد يعبر به عن العقل قال الله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أى عقل ؛ لأن القلب محل العقل فى قول الأكثرين ، والفؤاد محل القلب، والصدر محل الفؤاد . والله أعلم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ استدل بها من فضّل السمع على البصر لتقدمه عليه. وقال تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ . وقال : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ . قال : والسمع يدرك به الجهات الست، وفى النور والظلمة، ولا يدرك بالبصر إلا من الجهة المقابلة ، وبواسطة من ضياء وشعاع . وقال أكثر المتكلمين بتفضيل البصر على السمع لأن السمع لا يدرك به إلا الأصوات والكلام، والبصر يدرك به الأجسام والألوان والهيئات كلها . قالوا : فلما كانت تعلقاته أكثر كان أفضل؛ وأجازوا الإدراك بالبصر من الجهات الست .

الثامنة — إن قال قائل : لم جمع الأبصار ووحد السمع؟ قيل له : إنما وحده لأنه مصدر يقع للقليل والكثير؛ يقال : سمعت الشىء أسمعه سمعا وسماعا ، فالسمع مصدر سمعت ؛ والسمع أيضا اسم للجارحة المسموع بها سميت بالمصدر. وقيل : إنه لما أضاف السمع الى الجماعة دل على أنه يراد به أسماع الجماعة؛ كما قال الشاعر :

بها جيف الحسرى فأما عظامها * فبيض وأما جلدها فصليب

إنما يريد جلودها، فوحد لأنه قد علم أنه لا يكون للجماعة جلد واحد .

وقال آخر فى مثله :

لا تنكر القتل وقد سبينا * فى حلقكم عظم وقد شجينا

يريد فى حلوقكم؛ ومثله قول الآخر :

كأنه وجه تركيين قد غضبا * مستهدف لطعان غير تذبيب

وإنما يريد وجهين، فقال وجه تركيين لأنه قد علم أنه لا يكون للاثنين وجه واحد ؛ ومثله كثير جدا . وقرئ : وعلى أسماعهم، ويحتمل أن يكون المعنى وعلى مواضع سمعهم؛ لأن السمع لا يختم وإنما يختم موضع السمع، لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقد يكون السمع بمعنى الاستماع؛ يقال : سمعك حديثى ـ أى استماعك إلى حديثى ـ يعجبنى ، ومنه قول ذى الرمة ، يصف ثورا تسمّع الى صوت صائد وكلاب :

وقد توجس ركزا مصفر ندس * بنبأة الصوت ما فى سمعه كذب

أى ما فى استماعه كذب ، أى هو صادق الاستماع ، والندس : الحاذق . والنبأة : الصوت الخفى ، وكذلك الركز . والسمع بكسر السين وإسكان الميم : ذِكر الإنسان بالجميل ، يقال : ذهب سمعه فى الناس أى ذكره . والسِّمْع أيضا : ولد الذئب من الضبع . والوقف هنا : وعلى سمعهم . وغشاوة رفع على الابتداء وما قبله خبره . والضمائر فى قلوبهم وما عطف عليه لمن سبق فى علم الله أنه لا يؤمن من كفار قريش، وقيل من المنافقين، وقيل من اليهود ، وقيل من الجميع، وهو أصوب، لأنه يعم . فالختم على القلوب والأسماع . والغشاوة على الأبصار . والغشاء : الغطاء . وهى :

التاسعة ـ ومنه غاشية السرج؛ وغشيت الشيء أغشيه قال النابغة :

هلّا سألت بنى ذبيان ما حسبى * إذا الدخان تغشى الأشمط البرما

وقال آخر[1] :

صحبتك إذ عينى عليها غشاوة * فلما انجلت قطعت نفسى ألومها

قال ابن كيسان : فإن جمعت غشاوة قلت : غشاء بحذف الهاء . وحكى الفراء : غشاوى مثل أداوى وقرئ : غشاوة بالنصب على معنى وجعل ، فيكون من باب قوله : علفتها تبنا وماء باردا، وقول الآخر :

ياليت زوجك فى الوغا * متقلدا سيفا ورمحا

(١) هو الحارث بن خالد المخزومى : كما فى اللسان مادة (غشا) .

المعنى وأسقيتها ماء ، وحاملا رمحا ؛ لأن الرمح لا يتقلد . قال الفارسيّ : ولا تكاد تجد هذا الاستعمال فى حال سعة واختيار؛ فقراءة الرفع أحسن، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة . قال : ولم أسمع من الغشاوة فعلا متصرفا بالواو . وقال بعض المفسرين : الغشاوة على الأسماع والأبصار؛ والوقف على قلوبهم . وقال آخرون : الختم فى الجميع ، والغشاوة هى الختم فالوقف على هذا على غشاوة؛ وقرأ الحسن غشاوة بضم الغين، وقرأ أبو حيوة : بفتحها؛ وروى عن أبى عمرو : غشوة رده إلى أصل المصدر؛ قال ابن كيسان : ويجوز غَشوة وغُشوة وأجودها غشاوة ؛ كذلك تستعمل العرب فى كل ما كان مشتملا على الشيء ، نحو عمامة وكنانة وقلادة وعصابة وغير ذلك .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ ﴾ أى للكافرين المكذبين ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ نعته ؛ والعذاب مثل الضرب بالسوط والحرق بالنار والقطع بالحديد؛ إلى غير ذلك مما يؤلم الإنسان . وفى التنزيل : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهو مشتق من الحبس والمنع؛ يقال فى اللغة : أعذبه عن كذا أى أحبسه وأمنعه ، ومنه سمى عذوبة الماء لأنها قد أعذبت ، واستعذب بالحبس فى الوعاء ليصفو ويفارقه ما خالطه ؛ ومنه قول علىّ رضى الله عنه : أعذبوا نساءكم عن الخروج ، أى احبسوهن . وعنه رضى الله عنه وقد شيع سرية فقال : أعذبوا عن ذكر النساء فإن ذلك يكسركم عن الغزو؛ وكل من منعته شيئا فقد أعذبته؛ وفى المثل : « لألجمنك لجاما معذبا » أى مانعا عن ركوب الناس ؛ ويقال : أعذب أى امتنع . وأعذب غيره فهو لازم ومتعد ؛ فسمى العذاب عذابا لأن صاحبه يحبس ويمنع عنه جميع ما يلائم الجسد من الخير ويهال عليه أضدادها .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا ﴾ . فيه سبع مسائل :

الأولى — روى ابن جريج عن مجاهد قال : نزلت أربع آيات من سورة البقرة فى المؤمنين ، واثنتان فى نعت الكافرين، وثلاث عشرة فى المنافقين . وروى أسباط عن السدى فى قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ قال : هم المنافقون . وقال علماء الصوفية : الناس اسم جنس، واسم الجنس لا يخاطب به الأولياء .

الثانية — واختلف النحاة فى لفظ الناس ، فقيل : هو اسم من أسماء الجموع جمع إنسان وإنسانة، على غير اللفظ، وتصغيره نويس؛ فالناس من النوس وهو الحركة يقال : ناس ينوس أى

تحرك ، ومنه حديث أم زرع : « أناس من حلى أذنى » ، وقيل : أصله من نسى فأصل ناس نسى قلب فصار نيس تحركت الياء فانفتح ما قبلها فانقلبت ألفا ، ثم دخلت الألف واللام فقيل : الناس . قال ابن عباس : نسى آدم عهد الله فسمى إنسانا . وقال عليه السلام : " نسى آدم فنسيت ذريته " وفى التنزيل : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ . وسيأتى ، وعلى هذا فالهمزة زائدة ، قال الشاعر :

لا تنسين تلك العهود فإنما * سميت إنسانا لأنك ناسى

وقال آخـر :

فإن نسيت عهودا منك سالفة * فاغفر فأول ناس أول الناس

وقيل : سمى إنسانا لأنسه بحواء . وقيل : لأنسه بربه ، فالهمزة أصلية ؛ قال الشاعر :

وما سمى الانسان إلا لأنسه * ولا القلب إلا أنه يتقلب

الثالثة ـــ لما ذكر الله جل وتعالى المؤمنين أولا ، وبدأ بهم لشرفهم وفضلهم ، ذكر الكافرين فى مقابلتهم ؛ إذ الكفر والإيمان طرفان ، ثم ذكر المنافقين بعدهم وألحقهم بالكافرين قبلهم ، لنفى الايمان عنهم بقوله الحق : ﴿ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ . ففى هذا رد على الكرَّامية حيث قالوا : إن الايمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا ﴾ . ولم يقل : بما قالوا وأضمروا ، وبقوله عليه السلام : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم " وهذا منهم قصور وجمود ، وترك نظر لما نطق به القرآن والسنة من العمل مع القول والاعتقاد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان " أخرجه ابن ماجه فى سننه ، فما ذهب إليه محمد بن كرَّام السجستانى وأصحابه هو النفاق وعين الشقاق ، ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الاعتقاد .

الرابعة ـــ قال علماؤنا رحمة الله عليهم : المؤمن ضربان : مؤمن يحبه الله ويواليه ، ومؤمن لا يحبه الله ولا يواليه ، بل يبغضه ويعاديه ؛ فكل من علم الله أنه يوافى بالإيمان ، فالله محب له ، موال له ، راض عنه ، وكل من علم الله أنه يوافى بالكفر ، فالله مبغض له ، ساخط عليه ، معاد له ، لا لأجل إيمانه ، ولكن لكفره وضلاله الذى يوافى به ؛ والكافر ضربان : كافر يعاقب لا محالة ، وكافر لا يعاقب ؛

فالذى يعاقب هو الذى يوافى بالكفر، فالله ساخط عليــه معادٍ له ؛ والذى لا يعاقب هو المــوافى بالإيمان، فالله غير ساخط على هــذا، ولا باغض له ، بل محب له ، موالٍ، لا لكفره لكن لإيمــانه الموافى به؛ فلا يجوز أن يطلق القول وهى :

الخامسة — بأن المؤمن يستحق الثواب، والكافر يستحق العقاب، بل يجب تقييده بالموافاة؛ ولأجل هــذا قلنا إن الله راضٍ عن عمر فى الوقت الذى كان يعبد الأصنام ، ومريد لثوابه ودخوله الجنة ، لا لعبادته الصنم ، لكن لإيمانه الموافى به ؛ وإن الله تعالى ساخط على إبليس فى حال عبادته لكفره الموافى به .

وخالفت القدرية فى هذا وقالت : إن الله لم يكن ساخطا على إبليس وقت عبادته، ولا راضيا عن عمر وقت عبادته للصنم، وهذا فاسد لمــا ثبت أن الله سبحانه عالم بما يوافى به إبليس لعنه الله ، وبما يوافى به عمر رضى الله عنه فيما لم يزل ؛ فثبت أنه كان ساخطا على إبليس محبا لعمر، ويدل عليه إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير محب لمن علم أنه من أهل النار، بل هو ساخط عليه،وأنه محب لمن علم أنه من أهل الجنة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وإنما الأعمال بالخواتيم" ولهذا قال علمــاء الصوفية : ليس الإيمان ما يتزين به العبد قولا وفعلا؛ لكن الإيمان جَرْىُ السعادة فى سوابق الأزل؛ وأما ظهوره على الهياكل فربما يكون عاريًا، وربما يكون حقيقة .

قلت : هذا كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره، عن عبد الله بن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليــه وسلم وهو الصادق المصدوق : "إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرســل الله الملك فينفخ فيــه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهــل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" فإن قيل وهى :

السادســة — فقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمــد عبد الغنى بن سعيد المصرى من حديث محمد بن سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة ، وهو محمد بن أبى قيس ، عن سليمان بن موسى وهو الأشدق ،

عن مجاهد بن جبر عن ابن عباس أخبرنا أبو رزين العقيلي قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأشربن أنا وأنت يا أبا رزين من لبن لم يتغير طعمه" قال: قلت: "كيف يحيي الله الموتى؟ قال: "أما مررت بأرض لك مجدبة ثم مررت بها مخصبة، ثم مررت بها مجدبة ثم مررت بها مخصبة" قلت: بلى، قال: "كذلك النشور" قال قلت: كيف لي أن أعلم أنّى مؤمن؟ قال: "ليس أحد من هذه الأمة ــ قال ابن أبي قيس أو قال من أمتي ــ عمل حسنة وعلم أنها حسنة وأن الله جازيه بها خيرا أو عمل سيئة وعلم أنها سيئة وأن الله جازيه بها شرا أو يغفرها إلا مؤمن".

قلت: وهذا الحديث وإن كان سنده ليس بالقوى فإن معناه صحيح وليس بمعارض لحديث ابن مسعود، فان ذلك موقوف على الخاتمة، كما قال عليه السلام: "وإنما الأعمال بالخواتيم" وهذا إنما يدل على أنه مؤمن فى الحال والله أعلم.

السابعة ــ قال علماء اللغة: إنما سمى المنافق منافقا لإظهاره غير ما يضمر تشبيها باليربوع له جحر يقال له: النافقاء، وآخر يقال له: القاصعاء، وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرق التراب، فإذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج، فظاهر جحره تراب، وباطنه حفر، وكذلك المنافق ظاهره إيمان، وباطنه كفر، وقد تقدّم هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾. قال علماؤنا: معنى يخادعون الله أي يخادعونه عند أنفسهم وعلى ظنهم. وقيل: قال ذلك لعملهم عمل المخادع. وقيل: فى الكلام حذف، تقديره: يخادعون رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن الحسن وغيره؛ وجعل خداعهم لرسوله خداعا لهم؛ لأنه دعاهم برسالته؛ وكذلك إذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله، ومخادعتهم: ما أظهروه من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر، ليحقنوا دماءهم وأموالهم، ويظنون أنهم قد نجوا وخدعوا؛ قاله جماعة من المتأولين. وقال أهل اللغة: أصل الخدع فى كلام العرب: الفساد، حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي وأنشد:

أبيض اللون لذيذ طعمه * طيب الريق إذا الريق خدع (١)

(١) قاله سويد بن أبي كاهل، يصف ثغر امرأة، كما فى اللسان مادة (خدع).

قلت : فيخادعون الله على هذا، أى يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم و بين الله تعالى بالرياء . وكذا جاء مفسرا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم على ما يأتى؛ وفى التنزيل : ﴿ يُرَآءُونَ النَّاسَ ﴾ . وقيل : أصله الإخفاء ؛ ومنه مخدع البيت الذى يُحرزُ فيه الشيء حكاه ابن فارس وغيره ؛ وتقول العرب : انخدع الضب فى جحره .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ نفى و إيجاب أى ما تحل عاقبة الخدع إلا بهم؟ ومن كلامهم : من خدع من لا يخدع فانما يخدع نفسه . وهـذا صحيح لان الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن ؛ وأما من عرف البواطن فمن دخل معه فى الخداع فإنما يخدع نفسه، ودل هذا على أن المنافقين لم يعرفوا الله إذلوعرفوه لعرفوا أنه لا يخدع ؛ وقد تقدّم من قوله عليـه السلام أنه قال : "لا تخادع الله، فإنه من يخادع الله يخدعه الله، ونفسه يخدع لو يشعر" قالوا : يا رسول الله، وكيف يخادع الله ؟ قال : " تعمل بمـا أمرك الله به وتطلب به غيره" . وسيأتى بيان الخدع من الله تعالى كيف هو عنـد قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ وقرأ نافع ، وابن كثـير ، وأبو عمرو : ﴿ يُخَادِعُونَ ﴾ فى الموضعين ليتجانس اللفظان . وقرأ عاصم ،وحمزة،والكسائى،وابن عامر : ﴿ يَخْدَعُونَ ﴾ الثانى ؛ والمصدر خدع بكسر الخاء وخديعة حكى ذلك أبو زيد . وقرأ مورق العجلى : ﴿ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ ﴾ بضم الياء وفتح الخاء وتشديد الدال على التكثير . وقرأ أبو طالوت عبدالسلام بن شدّاد والجارود بضم الياء و إسكان الخاء وفتح الدال على معنى وما يخدعون إلا عن أنفسهم؛ فحذف حرف الجركما قال تعالى : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ ﴾ . أى من قومه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ . أى يفطنون أن و بال خدعهم راجع عليهم ؛ فيظنون أنهم قد نجوا بخدعهم وفازوا، و إنما ذلك فى الدنيا، وفى الآخرة يقال لهم : ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ على ما يأتى . قال أهل اللغة : شعرت بالشيء أى فطنت له؛ ومنه الشاعر لفطنته لأنه يفطن لمـا لا يفطن له غيره من غريب المعانى .

ومنه قولهم : ليت شعرى أى ليتنى علمت .

قوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ . ابتـداء وخبر ؛ والمرض عبارة مسـتعارة للفساد الذى فى عقائدهم، وذلك إما أن يكون شـكا ونفاقا ، و إما جحدا وتكذيبا ؛ والمعنى قلوبهم مرضى لخلوها

عن العصمة والتوفيق ، والرعاية والتأييد ؛ قال ابن فارس اللغوى : المرض كل ما خرج به الإنسان عن حد الصحة ، من علة ، أو نفاق ، أو تقصير فى أمر . والقراء مجمعون على فتح الراء من مرض إلا ما روى الأصمعى عن أبى عمرو أنه سكن الراء .

قوله تعالى : ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ . قيل : هو دعاء عليهم ، ويكون معنى الكلام زادهم الله شكا ونفاقا ، جزاء على كفرهم وضعفا عن الانتصار ، وعجزا عن القدرة ؛ كما قال الشاعر :

يا مرسل الريح جنوبا وصبا * إذ غضبت زيد فزدها غضبا

أى لا تهدها على الانتصار فيما غضبت منه ؛ وعلى هذا يكون فى الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين والطرد لهم . لأنهم شر خلق الله ، وقيل : هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم أى فزادهم الله مرضا الى مرضهم ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ . وقال أرباب المعانى : فى قلوبهم مرض أى بسكونهم الى الدنيا ، وحبهم لها ، وغفلتهم عن الآخرة ، وإعراضهم عنها . وقوله : ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ أى وكلهم الى أنفسهم ، وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرغوا من ذلك الى اهتمام بالدين ولهم عذاب أليم بما يفنى عما يبقى . وقال الجنيد : علل القلوب من اتباع الهوى ، كما أن علل الجوارح من مرض البدن .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . أليم فى كلام العرب معناه مؤلم أى موجع ، مثل السميع بمعنى المسمع ؛ قال ذو الرمة يصف إبلا :

ونرفع من صدور شمردلات * يصك وجوهها وهج أليم

وآلم اذا أوجع ، والإيلام : الإيجاع ، والألم : الوجع ، وقد ألم يألم ألما ، والتألم : التوجع ، ويجمع أليم على ألاما وألماء مثل : كريم وكرماء ، وآلام مثل أشراف .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ، ما مصدرية أى بتكذيبهم الرسل ، وردهم على الله جل وعز ، وتكذيبهم بآياته ؛ قاله أبو حاتم . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائى بالتخفيف ، ومعناه بكذبهم وقولهم آمنا وليسوا بمؤمنين .

مسألة — واختلف العلماء فى إمساك النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم على أربعة أقوال :

القول الأول — قال بعض العلماء : إنمـا لم يقتلهم لأنه لم يعلم حالهم أحد سـواه . وقد اتفق العلماء على بكرة أبيهم على أن القاضى لا يقتل بعلمه، وإن اختلفوا فى سائر الأحكام؛ قال ابن العربى: وهذا منتقض، فقد قتل بالمجذر بن زياد، الحارث بن سويد بن الصامت لأن المجذر قتل أباه سويدا يوم بعاث؛ فأسلم الحارث وأغفله يوم أحد فقتله؛ فأخبر به جبريل النبيّ صلى الله عليـه وسلم فقتله به لأن قتله كان غيلة(١)؛ وقتل الغيلة حد من حدود الله .

قلت : وهذه غفلة من هذا الإمام، لأنه إن ثبت الإجماع المذكور فليس بمنتقض بمـا ذكر، لأن الإجماع لا ينعقد ولا يثبت إلا بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم وانقطاع الوحى ؛ وعلى هذا فتكون تلك قضية فى عين، بوحى، فلا يحتج بها أو منسوخة بالاجماع والله أعلم .

القول الثانى — قال أصحاب الشافعى : إنما لم يقتلهم لأن الزنديق وهو الذى يسر الكفر ويظهر الإيمان يستتاب ولا يقتل . قال ابن العربى : وهذا وهم ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسـلم لم يستتبهم ولا نقل ذلك أحد، ولا يقول أحد إن استتابة الزنديق واجبة ؛ وقـد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم معرضا عنهم مع علمه بهم . فهذا المتأخر من أصحاب الشافعى الذى قال : إن استتابة الزنديق جائزة قال قولا لم يصح لأحد .

القول الثالث — إنما لم يقتلهم مصلحة، لتأليف القلوب عليه، لئلا تنفر عنه ؛ وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بقوله لعمر : "معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتـل أصحابى" أخرجه البخارى ومسلم . وقد كان يعطى للمؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم تألفا؛ وهذا هو قول علمائنا وغيرهم . قال ابن عطية : وهى طريقة أصحاب مالك رحمـه الله فى كف رسول الله صلى الله عليـه وسلم عن المنافقين؛ نص على هذا محمد بن الجهم، والقاضى اسماعيل، والأبهرى، وابن المـاجشون، واحتج بقوله تعالى : ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إلى قوله . ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ . قال قتادة : معناه إذا هم أعلنوا النفاق . قال مالك رحمـه الله : النفاق فى عهد رسول الله صلى الله

(١) راجع هذه القصة فى سيرة ابن هشام (ص ٣٥٦، ٥٩٧) طبع أوربا . وكتاب الاستيعاب، فى اسم المجذر .

عليه وسلم هو الزندقة فينا اليوم؛ فيقتل الزنديق إذا شهد عليه بها دون استتابة؛ وهو أحد قولى الشافعى. قال مالك : وإنما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه إذ لم يشهد على المنافقين . قال القاضى اسماعيل : لم يشهد على عبد الله بن أبيّ إلا زيد بن أرقم وحده؛ ولا على الجلاس بن سويد إلا عمير بن سعد ربيبه؛ ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل . وقال الشافعى رحمه الله محتجا للقول الآخر: السنة فيمن شهد عليه بالزندقة فجحد وأعلن بالإيمان وتبرأ من كل دين سوى الإسلام إن ذلك يمنع من إراقة دمه؛ وبه قال أصحاب الرأى وأحمد والطبرى وغيرهم . قال الشافعى وأصحابه : وإنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم ، لأن ما يظهرونه يجُبُّ ما قبله . وقال الطبرى : جعل الله تعالى الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولى الحكم فى سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر، لأنه حكم بالظنون ، ولو كان ذلك لأحد كان أولى الناس به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووكل سرائرهم الى الله؛ وقد كذب الله ظاهرهم بقوله : ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ . قال ابن عطية : ينفصل المالكيون عما لزموه من هذه الآية بأنها لم تعين أشخاصهم فيها وإنما جاء فيها توبيخ لكل مغموص عليه بالنفاق؛ وبقى لكل واحد منهم أن يقول : لم أرد بها وما أنا إلا مؤمن، ولو عين أحد لما جب كذبه شيئا .

قلت: هذا الانفصال فيه نظر، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم أو كثيرا منهم بأسمائهم وأعيانهم بإعلام الله تعالى إياه، وكان حذيفة يعلم ذلك بإخبار النبي عليه السلام إياه حتى كان عمر رضى الله عنه يقول له : يا حذيفة هل أنا منهم ؟ فيقول له : لا .

القول الرابع — وهو أن الله تعالى كان قد حفظ أصحاب نبيه عليه السلام بكونه ثبتهم أن يفسدهم المنافقون أو يفسدوا دينهم فلم يكن فى تبقيتهم ضرر، وليس كذلك اليوم ، لأنا لا نأمن من الزنادقة أن يفسدوا عامتنا وجهالنا .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية ، إذا فى موضع نصب على الظرف والعامل فيها قالوا ، وهى تؤذن بوقوع الفعل المنتظر . قال الجوهرى : إذا اسم يدل على زمان

مستقبل ولم تستعمل إلا مضافة إلى جملة، تقول : أجيئك إذا احمرّ البسر وإذا قدم فلان؛ والذى يدل على أنها اسم وقوعها موقع قولك : آتيك يوم يقدم فلان ؛ فهى ظرف وفيها معنى المجازاة . وجزاء الشرط ثلاثة : الفعل والفاء وإذا؛ فالفعل قولك : إن تأتنى آتك،والفاء إن تأتنى فأنا أحسن إليك؛ وإذا كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ . ومما جاء من المجازاة بإذا فى الشعر قول قيس بن الخطيم :

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها * خطانا إلى أعدائنا فنضارب

فعطف فنضارب بالجزم على موضع كان لأنه مجزوم؛ ولو لم يكن مجزوما لقال فنضارب بالنصب . وقد تزاد على إذا ، ما تأكيدا فيجزم بها أيضا؛ ومنه قول الفرزدق :

فقام أبو ليلى إليه ابن ظالم * وكان إذا ما يسلل السيف يضرب

قال سيبويه : والجيد ما قال كعب بن زهير :

وإذا ما تشاء تبعث منها * مغرب الشمس ناشطا مذعورا

يعنى أن الجيد ألا يجزم بإذا كما لم يجزم فى هذا البيت . وحكى عن المبرد : أنها فى قولك فى المفاجأة خرجت فإذا زيد ظرف مكان لأنها تضمنت جثة، وهذا مردود لأن المعنى خرجت فإذا حضور زيد، فإنما تضمنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان؛ ومنه قوله : «اليوم خمر وغدا أمر» فمعناه وجود خمر ووقوع أمر .

قوله : ﴿ قِيلَ ﴾ من القول وأصله قُوِل نقلت كسرة الواو إلى القاف فانقلبت الواو ياء؛ ويجوز: قيل لهم، بإدغام اللام فى اللام، وجاز الجمع بين ساكنين لأن الياء حرف مدّ ولين؛ قال الأخفش : ويجوز قيل بضم القاف والياء ؛ وقال الكسائى : ويجوز اشمام القاف الضم ليدل على أنه لما لم يسم فاعله ، وهى لغة قيس؛ وكذلك جىء وغيض وحيل وسيق وسىء وسيئت، وكذلك روى هشام عن ابن عباس[1]، ورويس[2] عن يعقوب؛ وأشم منها نافع سىء وسيئت خاصة؛ وزاد ابن ذكوان : حيل وسيق وكسر الباقون فى الجميع . فأما هذيل وبنو دبير من أسد وبنى فقعس فيقولون : قول بواو ساكنة.

(١) فى نسخة : «ابن عامر» .

(٢) رويس (كزبير) لقب محمد بن المتوكل القارئ، راوى يعقوب بن اسحاق . القاموس المحيط .

قوله : ﴿ لَا تُفْسِدُوا ﴾ لا نهى ، والفساد ضدّ الصلاح ، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدها . فسد الشيء يفسد فسادا وفسودا وهو فاسد وفسيد . والمعنى فى الآية لا تفسدوا فى الأرض بالكفر وموالاة أهله ، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقيل : كانت الأرض قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم فيها الفساد ، ويفعل فيها بالمعاصى ؛ فلما بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم ارتفع الفساد وصلحت الأرض ؛ فاذا عملوا بالمعاصى فقد أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ .

قوله : ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ الأرض مؤنثة وهى اسم جنس ، وكان حق الواحدة منها أن يقال أرضة ، ولكنهم لم يقولوا ، والجمع أرضات لأنهم قد يجمعون المؤنث الذى ليست فيه هاء التأنيث بالتاء كقولهم : عُرُسات ، ثم قالوا أرضون فجمعوا بالواو والنون ، والمؤنث لا يجمع بالواو والنون إلا أن يكون منقوصا كثُبَة وظُبَة ، ولكنهم جعلوا الواو والنون ، عوضا من حذفهم الألف والتاء وتركوا فتحة الراء على حالها ، وربما سكنت ، وقد تجمع على أروض ؛ وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون : أرض وآراض ، كما قالوا : أهل وآهال ؛ والأراضى أيضا على غير قياس كأنهم جمعوا أرضا ؛ وكل ما سفل فهو أرض ؛ وأرض أرضة أى زكية بينة الأراضة ، وقد أُرضت بالضم أى زكت . قال أبو عمرو : نزلنا أرضا أريضة أى معجبة للعين ؛ ويقال : لا أرض لك ، كما يقال : لا أم لك . والأرض أسفل قوائم الدابة ؛ قال حميد يصف فرسا :

ولم يقلب أرضها البيطار * ولا لحبليه بها حبار

أى أثر ؛ والارض : النفضة والرعدة . روى حماد بن سلمة عن قتادة عن عبدالله بن الحارث قال : زلزلت الأرض بالبصرة ، فقال ابن عباس : والله ما أدرى ؟ أزلزلت الأرض بى أم بى ارض ؟ أى أم بى رعدة ؛ وقال ذو الرمة يصف صائدا :

إذا توجس رِكزا من سنابكها * أو كان صاحب أرض أو به الموم

والأرض : الزكام ، وقد آرضه الله إيراضا ، أى أزكمه فهو مأروض ؛ وفسيل مستارِض ، وودية مستارضة بكسر الراء وهو أن يكون له عرق فى الأرض ؛ فأما إذا نبت على جذع النخل فهو الراكب . والإراض بالكسر : بساط ضخم من صوف أو وبر ، ورجل أريض ، أى متواضع خليق للخير ؛ قال

الأصمعي يقال : هو آرضهم أن يفعل ذلك أى أخلقهم ؛ وشئ عريض أريض اتباع له ؛ وبعضهم يفرده ويقول : جدى أريض أى سمين .

قوله : ﴿ نَحْنُ ﴾ أصل نحن نَحُنْ قلبت حركة الحاء على النون وأسكنت الحاء ؛ قاله هشام آبن معاوية النحوى . وقال الزجاج : نحن لجماعة ، ومن علامة الجماعة الواو ، والضمة من جنس الواو ؛ فلما اضطروا إلى حركة نحن لالتقاء الساكنين حركوها بما يكون للجماعة . قال ولهذا ضموا واو الجمع فى قوله عز وجل : ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَٰلَةَ ﴾ . وقال محمد بن يزيد : نحن مثل قبلُ و بعدُ لأنها متعلقة بالإخبار عن اثنين وأكثر، فأنا للواحد، ونحن للتثنية والجمع، وقد يخبر به المتكلم عن نفسه فى قوله : نحن قمنا، قال الله تعالى : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ . والمؤنث فى هذا إذا كانت متكلمة بمنزلة المذكر؛ تقول المرأة : قمت وذهبت، وقمنا وذهبنا، وأنا فعلت ذاك، ونحن فعلنا . هذا كلام العرب فٱعلم .

قوله تعالى : ﴿مُصْلِحُونَ﴾ اسم فاعل من أصلح ؛ والصلاح: ضد الفساد، وصلح الشيء بضم اللام وفتحها لغتان قاله ابن السكيت . والصلوح بضم الصاد مصدر صلح بضم اللام ؛ قال الشاعر :

فكيف بإطراقى إذا ما شتمتنى * وما بعد شتم الوالدين صلوح

وصلاح من أسماء مكة ؛ والصلح بكسر الصاد : نهر .

و إنما قالوا ذلك على ظنهم، لأن إفسادهم عندهم إصلاح، أى إن ممالأتنا للكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم و بين المؤمنين . قاله آبن عباس وغيره .

قوله عز وجل : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾ ردًا عليهم وتكذيبا لقولهم ؛ قال أرباب المعانى : من أظهر الدعوى كذب، ألا ترى أن الله عز وجل يقول : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾ . وهذا صحيح. وكسرت إنَّ لأنها مبتدأة،قاله النحاس . وقال علىّ بن سليمان : يجوز فتحها كما أجاز سيبويه : حقا أنك منطلق ، بمعنى ألا [1] . وهم يجوز أن يكون مبتدأ والمفسدون خبره والمبتدأ وخبره خبر إنَّ ؛ ويجوز أن تكون هم توكيدا للهاء والميم فى إنهم ، ويجوز أن تكون فاصلة — والكوفيون يقولون عمادا — والمفسدون خبر إنَّ؛ والتقدير : ألا إنهم المفسدون، كما تقدم فى قوله : ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .

(١) فى العبارة غموض . ولعل الصواب : « ... يجوز فتحها كما أجاز سيبويه أمّا أنك منطلق على معنى حقا أنك منطلق . وأمّا بمعنى ألا » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ . قال ابن كيسان يقال : ما على من لم يعلم أنه مفسد من الذم، إنما يذم إذا علم أنه مفسد، ثم أفسد على علم ؛ قال : ففيه جوابان ؛ أحدهما : أنهم كانوا يعملون الفساد سرا و يظهرون الصلاح وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبي صلى الله عليه وسلم ؛ والوجه الآخر : أن يكون فسادهم عندهم صلاحا، وهم لايشعرون أن ذلك فساد، وقد عصوا الله ورسوله فى تركهم تبين الحق واتباعه . ولكن حرف تأكيد واستدراك، ولا بد فيه من نفى وإثبات ؛ إن كان قبله نفى، كان بعده إيجاب، و إن كان قبله إيجاب، كان بعده نفى ؛ ولا يجوز الاقتصار بعده على اسم واحد إذا تقدّم الإيجاب، ولكنك تذكر جملة مضادة لما قبلها كما فى هذه الآية ؛ وقولك : جاءنى زيد لكن عمرو لم يجئ، ولا يجوز جاءنى زيد لكن عمرو ثم تسكت، لأنهم قد استغنوا ببل فى مثل هذا الموضع عن لكن، و إنما يجوز ذلك إذا تقدّم النفى كقولك : ما جاءنى زيد لكن عمرو .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعنى المنافقين، فى قول مقاتل وغيره، ﴿ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ ﴾ أى صدقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وشرعه، كما صدق المهاجرون والمحققون من أهل يثرب . وألف آمنوا ألف قطع لإنك تقول : يؤمن، والكاف فى موضع نصب لأنها نعت لمصدر محذوف أى إيمانا كإيمان الناس .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ . يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، عن ابن عباس ؛ وعنه أيضا : مؤمنو أهل الكتاب ؛ وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه فى خفاء واستهزاء ، فأطلع الله نبيه والمؤمنين على ذلك، وقرر أن السفه، ورقة الحلوم، وفساد البصائر، إنما هى فى حيزهم، وصفة لهم ؛ وأخبر أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون للرين الذى على قلوبهم . وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس : أنها نزلت فى شان اليهود أى و إذا قيل لهم يعنى اليهود آمنوا كما آمن الناس عبد الله بن سلام وأصحابه، قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ! يعنى الجهال والخرقاء . وأصل السفه فى كلام العرب : الخفة والرقة ، يقال : ثوب سفيه إذا كان ردىء النسج خفيفه ، أو كان باليا رقيقا . وتسفهت الريح الشجر : مالت به ؛ قال ذو الرمة :

مشين كما اهتزت رماح تسفهت (١) * أعاليها مر الرياح النواسم

(١) كذا فى الأصول، واللسان مادة (سفه) . وفى ديوانه : «رويدا» .

وتسفهت الشيء : استحقرته . والسفه : ضد الحلم ، ويقال : إن السفه أن يكثر الرجل شرب الماء فلا يروى . ويجوز فى همزتى السفهاء[1] أربعة أوجه ، أجودها أن تحقق الأولى وتقلب الثانية واوا خالصة ، وهى قراءة أهل المدينة ، والمعروف من قراءة أبى عمرو ؛ وإن شئت خفّفتهما جميعا فجعلت الأولى بين الهمزة والواو وجعلت الثانية واوا خالصة ؛ وإن شئت خففت الأولى وحققت الثانية ؛ وإن شئت حققتهما جميعا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ . مثل ولكن لا يشعرون ، وقد تقدم . والعلم معرفة المعلوم على ما هو به ، تقول : علمت الشيء أعلمه علما عرفته ، وعالمت الرجل فعلمته أعلُمه بالضمة فى المستقبل غلبته بالعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ . أنزلت هذه الآية فى ذكر المنافقين . أصل لقوا : لقيوا نقلت الضمة إلى القاف وحذفت الياء لالتقاء الساكنين ؛ وقرأ محمد بن السميقع اليمانى : لاقوا الذين ءامنوا . والأصل لاقيوا تحركت الياء وقبلها فتحة انقلبت ألفا ، اجتمع ساكنان الألف والواو فحذفت الألف لالتقاء الساكنين ثم حركت الواو بالضم .

وإن قيل : لم ضمت الواو فى لاقوا فى الإدراج ، وحذفت من لقوا ؟ فالجواب : أن قبل الواو التى فى لقوا ضمة فلو حركت الواو بالضم لثقل على اللسان النطق بها فحذفت لثقلها ، وحركت فى لاقوا لأن قبلها فتحة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ ﴾ . إن قيل : لم وصلت خلوا بإلى وعرفها أن توصل بالباء؟ قيل له : خلوا هنا بمعنى ذهبوا وانصرفوا ؛ ومنه قول الفرزدق :

كيف ترانى قالبا مجنى * قد قتل الله زيادا عنى

لما أنزله منزله صرف ؛ وقال قوم : إلى بمعنى مع وفيه ضعف . وقال قوم : إلى بمعنى الباء ، وهذا يأباه الخليل وسيبويه . وقيل : المعنى وإذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم ، فإلى على بابها . والشياطين جمع شيطان على التكسير وقد تقدم القول فى اشتقاقه ومعناه فى الاستعاذة . واختلف المفسرون فى المراد بالشياطين هنا ؛ فقال ابن عباس والسدى : هم رؤساء الكفر . وقال الكلبى :

---

(١) أى مع كلمة ألا التى بعدها

هم شياطين الجن . وقال جمع من المفسرين : هم الكهان . ولفظ الشيطنة الذى معناه البعد عن الإيمان والخير يعم جميع من ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ . أى مكذبون بما ندعى إليه ؛ وقيل : ساخرون . والهزء : السخرية واللعب ؛ يقال : هزئ به واستهزأ ؛ قال الراجز :

قد هزئت منى أم طيسله * قالت أراه معدما لا مال له

وقيل : أصل الاستهزاء : الانتقام ؛ كما قال الآخر :

قد استهزءوا منهم بألفى مدجج * سراتهم وسط الضحاضح جثم

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ . أى ينتقم منهم ويعاقبهم ، ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم ؛ فسمى العقوبة باسم الذنب ، هذا قول الجمهور من العلماء ؛ والعرب تستعمل ذلك كثيرا فى كلامهم ، من ذلك قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فسمى انتصاره جهلا ؛ والجهل لا يفتخر به ذو عقل ؛ وإنما قاله ليزدوج الكلام فيكون ذلك أخف على اللسان من المخالفة بينهما ؛ وكانت العرب إذا وضعوا لفظا بإزاء لفظ جوابا له وجزاء ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفا له فى معناه ؛ وعلى ذلك جاء القرآن والسنة ؛ وقال الله عز وجل : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ . وقال : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ . والجزاء لا يكون سيئة ، والقصاص لا يكون اعتداء لأنه حق وجب ؛ ومثله : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ . و﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ . و﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ . وليس منه سبحانه مكر ولا هزء ولا كيد ، إنما هو جزاء لمكرهم واستهزائهم وجزاء كيدهم ؛ وكذلك ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ . ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله لا يمل حتى تملوا ولا يسأم حتى تسأموا" قيل حتى بمعنى الواو أى وتملوا ؛ وقيل : المعنى وأنتم تملون ؛ وقيل : المعنى لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل ؛ وقال قوم : إن الله تعالى يفعل بهم أفعالا

هى فى تأمل البشر هزء وخدع ومكر، حسب ما روى : " إن النار[1] تجمد كما تجمد الإهالة فيمشون عليها ويظنونها منجاة فتنخسف بهم " وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا ﴾ هم منافقو أهل الكتاب ؛ فذكرهم وذكر استهزاءهم، وأنهم إذا خلوا إلى شياطينهم يعنى رؤساءهم فى الكفر — على ما تقدم — قالوا : إنا معكم على دينكم إنما نحن مستهزئون بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؛ الله يستهزئ بهم فى الآخرة ، يفتح لهم باب جهنم من الجنة ، ثم يقال لهم : تعالوا فيقبلون يسبحون فى النار ، والمؤمنون على الأرائك وهى السرر فى الحجال ينظرون اليهم ، فإذا انتهوا إلى الباب سد عنهم ، فيضحك المؤمنون منهم ؛ فذلك قول الله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ أى فى الآخرة ، ويضحك المؤمنون منهم حين غلقت دونهم الأبواب ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ . إلى أهل النار : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ . وقال قوم : الخداع من الله والاستهزاء هو استدراجهم بدرور النعم الدنيوية عليهم ؛ فالله سبحانه وتعالى يظهر لهم من الإحسان فى الدنيا، خلاف ما يغيب عنهم ، ويستر عنهم من عذاب الآخرة، فيظنون أنه راض عنهم، وهو تعالى قد حتم عذابهم ؛ فهذا على تأمل البشر كأنه استهزاء ومكر وخداع ؛ ودل على هذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم[2] الله عز وجل يعطى العبد ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج " ثم نزع بهذه الآية : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال بعض العلماء فى قوله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . كلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم نعمة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ ﴾ . أى يطيل لهم المدة ويمهلهم ويملى لهم ؛ كما قال : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ وأصله الزيادة ؛ قال يونس بن حبيب : يقال مد فى الشر، وأمد فى الخير ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ . وقال : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ . وحكى

---

(١) فى نسخة «تخمد» بالخاء .

(٢) فى الجامع الصغير : « إذا رأيت » .

عن الأخفش : مددت له إذا تركته ، وأمددته إذا أعطيته . وعن الفراء واللحياني : مددت فيما كانت زيادته من مثله ، يقال : مدّ النهر [النهر][1] ، وفي التنزيل : ﴿ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ ؛ وأمددت فيما كانت زيادته من غيره كقولك : أمددت الجيش بمدد ، ومنه : ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ وأمدّ الجرح لأن المدّة من غيره أي صارت فيه مدة .

قوله تعالى : ﴿ فِى طُغْيَٰنِهِمْ ﴾ كفرهم وضلالهم ، وأصل الطغيان مجاوزة الحدّ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ ﴾ . أي ارتفع وعلا وتجاوز المقدار الذي قدرته الخزان ، وقوله في فرعون : ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ . أي أسرف في الدعوى حيث قال : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ . والمعنى في الآية يمدهم بطول العمر حتى يزيدوا في الطغيان فيزيدهم في عذابهم .

قوله تعالى : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يعمون ، وقال مجاهد : أي يترددون متحيرين في الكفر ، وحكى أهل اللغة : عمه الرجل يعمه عموها وعمها فهو عمه وعامه إذا حار ، ويقال : رجل عامه وعمه : حائر متردد ، وجمعه عُمْه ؛ وذهبت إبله العمهى إذا لم يدر أين ذهبت . والعمى في العين ، والعمه في القلب ، وفي التنزيل : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ . قال سيبويه : ضمت الواو في اشتروا فرقا بينها وبين الواو الأصلية ، نحو : ﴿ وَأَن لَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ﴾ . وقال ابن كيسان : الضمة في الواو أخف من غيرها لأنها من جنسها . وقال الزجاج : حركت بالضم كما فعل في نحن . وقرأ ابن أبي إسحاق ويحيى بن يعمر بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين . وروى أبو زيد الأنصاري عن قعنب أبي السمال العدوي : أنه قرأ بفتح الواو لخفة الفتحة وأن ما قبلها مفتوحا ، وأجاز الكسائي همز الواو وضمها كأدؤد . واشتروا من الشراء ، والشراء هنا مستعار ، والمعنى استحبوا الكفر على الإيمان كما قال : ﴿ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ . فعبر عنه بالشراء لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه ، فأما أن يكون معنى شراء المعاوضة فلا ، لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعون إيمانهم . وقال ابن عباس : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى ، ومعناه استبدلوا واختاروا الكفر على الإيمان ، وإنما

(١) الزيادة عن اللسان مادة (مد) .

أخرجه بلفظ الشراء توسعا لأن الشراء والتجارة راجعان إلى الاستبدال؛ والعرب تستعمل ذلك فى كل من استبدل شيئا بشىء؛ قال أبو ذؤيب :

وإن تزعمينى كنت أجهل فيكم * فإنى اشتريت الحلم بعدك بالجهل

وأصل الضلالة : الحيرة؛ ويسمى النسيان ضلالة لما فيه من الحيرة ؛ قال جل وعز : ﴿ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَاْ مِنَ ٱلضَّالِّينَ ﴾ . أى الناسين ؛ ويسمى الهلاك ضلالة ؛ كما قال عز وجل : ﴿ وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴾ . أسند تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب فى قولهم : ربح بيعك، وخسرت صفقتك؛ وقولهم : ليل قائم، ونهار صائم؛ والمعنى ربحت وخسرت فى بيعك، وقمت فى ليلك وصمت فى نهارك؛ أى فما ربحوا فى تجارتهم؛ وقال الشاعر :

نهارك هائم وليلك نائم * كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

ٱبن كيسان : ويجوز تجارة وتجائر، وضلالة وضلائل .

﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ فى اشترائهم الضلالة؛ وقيل : فى سابق علم الله . والاهتداء ضد الرشاد ؛ وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ . فمثلهم رفع بالابتداء والخبر فى الكاف، فهى اسم كما هى فى قول الأعشى :

أتنتهون ولن ينهى ذوى شطط * كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

وقول امرئ القيس :

ورحنا بكابن الماء يجنب وسطنا * تصوب فيه العين طورا وترتقى

أراد مثل الطعن ، وبمثل ٱبن الماء؛ ويجوز أن يكون الخبر محذوفا تقديره مثلهم مستقر كمثل فالكاف على هذا حرف . والمثل والمِثل والمثيل واحد ومعناه الشبه، والمتماثلان : المتشابهان هكذا قال أهل اللغة .

قوله : ﴿ ٱلَّذِى ﴾ يقع للواحد والجمع ؛ قال ابن الشجرى هبة الله بن على : ومن العرب من يأتى بالجمع بلفظ الواحد كما قال :

وإن الذى حانت بفلج دماؤهم * هم القوم كل القوم يا أم خالد

وقيل فى قول الله تعالى : ﴿وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ . إنه بهذه اللغة ، وكذلك قوله : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى﴾ . قيل : المعنى كمثل الذين استوقدوا ، ولذلك قال : ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ . فحمل أول الكلام على الواحد ، وآخره على الجمع ؛ فأما قوله تعالى : ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا﴾ . فإن الذى ها هنا وصف لمصدر محذوف تقديره وخضتم كالخوض الذى خاضوا . وقيل : إنما وحد الذى واستوقد لأن المستوقد كان واحدا من جماعة تولى الإيقاد لهم ، فلما ذهب الضوء رجع عليهم جميعا فقال بنورهم ؛ واستوقد بمعنى أوقد ؛ مثل استجاب بمعنى أجاب ؛ فالسين والتاء زائدتان قاله الأخفش ؛ ومنه قول الشاعر :

وداع دعا يامن يجيب إلى الندا * فلم يستجبه عنــد ذاك مجيب

أى يجبه ؛ واختلف النحاة فى جواب لما ، وفى عود الضمير من نورهم ؛ فقيل : جواب لما محذوف وهو طفئت ، والضمير فى نورهم على هذا للمنافقين ، والإخبار بهذا عن حال تكون فى الآخرة كما قال تعالى : ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ﴾ وقيل : جوابه ذهب ، والضمير فى نورهم عائد على الذى ، وعلى هذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد لأن بقاء المستوقد فى ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق فى حيرته وتردده ؛ والمعنى المراد بالآية ضرب مثل للمنافقين ، وذلك أن ما يظهرونه من الإيمان الذى تثبت لهم به أحكام المسلمين من المناكح والتوارث والغنائم ، والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم بمثابة من أوقد نارا فى ليلة مظلمة فاستضاء بها ، ورأى ما ينبغى أن يتقيه وأمن منه ؛ فإذا طفئت عنه أو ذهبت وصل إليه الأذى وبقى متحيرا ؛ فكذلك المنافقون لما آمنوا اغتروا بكلمة الإسلام ، ثم يصيرون بعد الموت إلى العذاب الأليم ؛ كما أخبر التنزيل : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ ويذهب نورهم ؛ ولهذا يقولون : ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ . وقيل : إن إقبال المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار ؛ وانصرافهم عن مودتهم وارتكاسهم عندهم كذهابها . وقيل غير هذا .

قوله : ﴿نَارًا﴾ النار مؤنثة وهى من النور وهو أيضا الإشراق ، وهى من الواو لأنك تقول فى التصغير : نويرة ، وفى الجمع نور وأنور ، ونيران انقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها ؛ وضاءت

وأضاءت لغتان، يقال : ضاء القمر يضوء ضوءاً وأضاء يضيء، ويكون لازما ومتعديا ؛ وقرأ محمد بن السميقع : ضاءت بغير ألف والعامة بالألف؛ قال الشاعر :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم * دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

﴿ مَا حَوْلَهُ ﴾ ما زائدة مؤكدة، وقيل : مفعولة بأضاءت ؛ وحوله ظرف مكان والهاء فى موضع خفض بإضافته اليها . و﴿ ذَهَبَ ﴾ وأذهب لغتان من الذهاب، وهو زوال الشيء . ﴿ وَتَرَكَهُمْ ﴾ أى أبقاهم . ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾ جمع ظلمة، وقرأ الأعمش : ظلمات باسكان اللام على الأصل ؛ ومن قرأها بالضم فللفرق بين الاسم والنعت ؛ وقرأ أشهب العقيلى : ظلمات بفتح اللام ؛ قال البصريون أبدل من الضمة فتحة لأنها أخف . وقال الكسائى: ظلمات، جمع الجمع، جمع ظُلَم . ﴿ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ فعل مستقبل فى موضع الحال؛ كأنه قال : غير مبصرين ، فلا يجوز الوقف على هذا، على ظلمات .

قوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ صم أى هم صم ، فهو خبر ابتداء مضمر ، وفى قراءة عبد الله بن مسعود وحفصة : صما بكما عميا، فيجوز النصب على الذم؛ كما قال تعالى : ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ . وكما قال : ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ . وكما قال الشاعر :

سقونى الخمر ثم تكنفونى * عداةَ الله من كذب وزور

فنصب عداة الله على الذم، فالوقف على يبصرون على هذا المذهب صواب حسن ؛ ويجوز أن ينصب صما بتركهم؛ كأنه قال : وتركهم صما بكما عميا ؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على يبصرون . والصمم فى كلام العرب: الانسداد؛ يقال: قناة صماء إذا لم تكن مجوفة؛ وصممت القارورة إذا سددتها، فالأصم: من انسدت خروق مسامعه؛ والأبكم : الذى لاينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس ؛ وقيل : الأخرس والأبكم واحد ؛ ويقال رجل أبكم وبكيم أى أخرس بين الخرس والبكم قال :

فليت لسانى كان نصفين منهما * بكيم ونصف عند مجرى الكواكب

والعمى : ذهاب البصر وقد عمى فهو أعمى، وقوم عمى، وأعماه الله؛ وتعامى الرجل أرى ذلك من نفسه، وعمى عليه الأمر إذا التبس؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ .

وليس الغرض مما ذكرناه نفي الإدراكات عن حواسهم جملة ، وإنما الغرض نفيها في جهة ما ؛ تقول : فلان أصم عن الخنا ؛ ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

* أصم عما ساءه سميع *

وقال آخــــر :

وعوراء الكلام صممت عنها * ولو أني أشاء بها سميـع

وقال الدارمي :

أعمى إذا ما جارتي خرجت * حتى يواري جارتي الجـدر

وقال بعضهم في وصاته لرجل يكثر الدخول على الملوك :

أدخـل إذا ما دخلت أعمى * وأخرج إذا ما خرجت أخرس

وقال قتادة : صم عن استماع الحق، بكم عن التكلم به، عمي عن الإبصار له .

قلت : وهـذا المعنى هو المراد في وصف النبي صلى الله عليـه وسلم ولاة آخر الزمان في حديث جبريل " وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها " والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي إلى الحق لسابق علم الله تعالى فيهم ؛ يقال : رجع بنفسه رجوعا، ورجعه غيره، وهذيل تقـول : أرجعه غيره ؛ وقوله تعالى : ﴿ يَرْجِـعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ . أي يتلاومون فيما بينهم حسب ما بينه التنزيل في سورة سبأ .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ ﴾ . قال الطبري : أو بمعنى الواو، وقاله الفراء وأنشد :

وقد زعمت ليـــلى بأني فاجر * لنفسي تقاها أو عليها فجورها

وقال آخـــر :

نال الخلافة أو كانت له قدرا * كما أتى ربه موسى على قدر

أي وكانت ؛ وقيل: أو للتخيير أي مثلوهم بهذا أو بهذا، لا على الاقتصار على أحد الأمرين ؛ والمعنى أو كأصحاب صيب ؛ والصيب : المطر، واشتقاقه من صاب يصوب إذا نزل، قال علقمة :

فلا تعـدلي بيني وبين معمر * سقتك روايا المزن حيث تصـوب

وأصله : صيوب اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت ؛ كما فعلوا في ميت وسيد وهين ولين ؛ وقال بعض الكوفيين : أصله صويب على مثال فعيل ؛ قال

اذا كان « القرطبي » سيجلد في مجلد واحد فتنزع هذه الورقة

كتاب الشعب
سلسلة قصص الصبيان والصبايا

مع الباعة
والمكتبات





















Bibliotheca Alexandrina
0415071